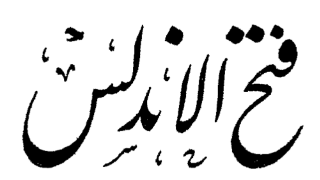


رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف احوالها الادارية
والسياسية والدينية وعلاقتها بعضها ببعض
وبسط عادات القوط والرومان هناك والفرق بين
طبقات الناس وقدوم طارق بن زياد لفتحها
والسبب الذي دعاه الى ذلك الى مقتل
رودريك ملك القوط في واقعة
وادي لبتة سنة ٩٢ هـ

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

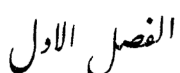
سنة ١٩

مقدمة

هذه هي الحلقة السابعة من روايات تاريخ الاسلام التي اخذنا في تصنيفها ونشرها بين اهل هذا اللسان لنبسط فيها اهم حوادث التاريخ الاسلامي ونصف الهيأة الاجتماعية وآدابها وعادات الناس واخلاقهم

ونشر التاريخ على هذه الصورة يشوق الناس الى استقصاء اجزائه والتثبت من تفاصيله ويوضحه ايضاحاً لا يجده القارئ في كتب التاريخ الاعتيادية . فضلاً عما تبعث اليه القصص الغرامية من التشويق للمطالعة مما يرغب الناس في القراءة — نعلم ذلك مما نراه من تسابقهم الى مطالعة هذه الروايات وزيادة عددهم سنة عن سنة زيادة محسوسة . فلا يمضي على الرواية بضعة اعوام حتى نضطر الى اعادة طبعها . واذا حسبنا نشر هذه الروايات في الهلال طبعة اولى كان اكثرها الآن قد طبعت للمرة الثالثة

ورواية « فتح الاندلس » هذه يدل اسمها على موضوعها فانها تتضمن تاريخ فتح المسلمين للاندلس (اسبانيا) سنة ٩٢ ﻫ على يد طارق بن زياد القائد البربري الشهير . ويتخلل ذلك وصف حال الهيأة الاجتماعية في ذلك العصر وعلاقة المملكة بالكنيسة وتأثير مجمع الاساقفة على ادارة الحكومة وتفاوت طبقات الناس في اوربا وعاداتهم واخلاقهم في تلك العصور المظلمة وابحاث فلسفية اخلاقية تميز هذه الرواية عن اكثر رفيقاتها فنرجو ان تقع خدمتنا موقع القبول ونطلب اليه تعالى ان ياخذ بيدنا لاتمام هذه السلسلة وهو ولي التوفيق



الفصل الاول

الأندلس والقوط وطليطلة

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا واسمها في الاصل وندلوسيا نسبة الى الوندال او الفندال وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان فلما فتحها العرب سموها الاندلس ثم اطلقوا هذا الاسم على اسبانيا كلها

وكانت اسبانيا في جملة مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد فسطا عليها القوط وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من اعالي الهند الى اوربا طلبًا للمرعى والمعاش واقاموا في بوادي اوربا كما اقام العرب في بوادي الشام والعراق . ثم سطا القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سطو العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون وانشأوا الممالك في فرنسا والمانيا وانكلترا وغيرها وهي الدول الباقية في اوربا الى الآن

وكان في جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » سطوا على اسبانيا في القرن الخامس واستخرجوها من الرومانيين وانشأوا فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامي سنة ٩٢ ه (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد البربري الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط في اسبانيا عامئذٍ مدينة طليطلة على ضفاف نهر التاج في اواسط اسبانيا . وكانت طليطلة في ذلك العهد مدينة عامرة فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والديور . وكانت مركز الدين والسياسة وفيها يجتمع مجمع الاساقفة كل عام ينظر في الامور العامة

وكان ملك الاسبان عام الفتح الملك رودريك والعرب يسمونهُ « لذريق » وهو قوطي الاصل تولى الملك سنة ٧٠٩ م ولم يكن من العائلة المالكة ولكنهُ اختلس الملك اختلاسًا وترك ابناء الملك السابق ناقمين عليهِ . وكانت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات او دوقيات يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق او الكونت ويرجعون في احكامهم جميعًا الى الملك المقيم في طليطلة

وطليطلة واقعة على اكمة مؤلفة من آكام يحيط بها نهر التاج من كل جهاتها الا

الشمال بما يشبه حدوة الفرس تماماً . ووراء النهر من الشرق والغرب والجنوب جبال متسلسلة تحجب الافق عن اهل المدينة وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب وغابات السنديان والصنوبر . وفي منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح جامعاً وهي من الفخامة والمناعة على جانب عظيم . وكان الناظر اذا القى نظره على ابنية طليطلة من شاهق تبين فيها من ضروب الابنية مزيجاً من الطرز الروماني والطرز القوطي وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الاخرى مغارس الفاكهة والاثمار وسائر اصناف الاشجار اذا اطلّ الواقف من احدى نوافذ منازلها اشرف عليها كلها

الفصل الثاني

فلورندا

وكان في جملة قصور الملك رودريك قصرٌ في شرقي المدينة على اكمة تشرف على ضفاف النهر . ويحدق بالقصر صفوف الاشجار والرياحين والازهار على مرتفعات تتخللها مجاري الماء على غير نظام مما يزيدها جمالاً . ومساحة تلك الحدائق واسعة يحدق بها كلها الا من جهة النهر سور حوله الحراس في منازل بنوها لهم بجانب ابواب البستان

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق اليه من جهة وله باب مستقل يستطرق الى البستان من جهة اخرى . ناهيك بقصور اخرى متفرقة في جوانب ذلك البستان بعضها للحاشية وبعضها للامراء . وفي جملتها قصر كبير كان يقيم فيه اولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات جرياً على القواعد المتبعة عند ملوك القوط في ذلك الزمان . فقد كان من عاداتهم ان يجتمع في بلاطهم في طليطلة ابناء ولاتهم المشار اليهم وبناتهم يقيمون هناك ويربون في البلاط الملوكي معاً يتعارفون ويتعاشرون فيشبون على ما يرضاه الملك ويتأدبون في خدمته ثم يتزوجون [1]

ففي صباح الخامس والعشرين من دسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان اهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد والناس يتقاطرون الى الكنائس والديور وهم يهنئون

(١) ابن الاثير ج ٤ وغيره من مؤرخي العرب

بعضهم بعضًا · واكثر الكنائس ازدحامًا في ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لان اكبر اساقفة طليطلة يصلي فيها و يحضر القداس الملك رودريك بنفسهِ ومعهُ حاشيتهُ وكبار رجال دولتهِ · فغصت تلك الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤُها وما جاورها من الشوارع والاسطحة بالناس على اختلاف الاجناس والاعمار تطلعًا الى رؤْية الملك ومشاهدة موكبهِ الحافل · ومما زاد الناس شوقًا الى رؤْيتهِ انهُ كان لا يزال قريب العهد من ملكه وقلما رآه اهل طليطلة فكيف باهل القرى المجاورة · فاغتنموا ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذي اختلس الملك من غيطشة (١) ملكهم السابق

ولم تبق امرأة لم تخرج من بيتها اذا لم يكن لسماع الصلاة فلمشاهدة موكب الملك رودريك الاَّ فتاة من اهل البلاط الملوكي اغتنمت اشتغال الملك ورعيتهِ بذلك العيد لتخلو بنفسها وتفكر في امرها · وكانت من جملة بنات الكونتات حكام الولايات تقيم في القصر الذي يجمعهم جميعًا بجوار قصر الملك فنقلها الملك منذ بضعة ايام الى القصر الصغير المتصل بقصرهِ · وهو اكرام حسدها عليهِ كل رفاقها ورفيقاتها ولكنهُ كان سببًا كبيرًا في تعاستها وانشغال بالها

فلما خرج الملك ورجال دولتهِ وسائر اهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هي بانحراف صحتها · وكان ذلك اليوم صاحيًا زاهيًا يندر مثالهُ في فصل الشتاء . وقد اطلت الشمس من وراء الآكام وارسلت اشعتها على نهر التاج وما على ضفافهِ من الحدائق وفي جملتها حديقة قصر الملك فبخرت ما كان على الاوراق والازهار من الطل · ومثل هذا اليوم يحلو للناس الخروج فيهِ من المنازل الى البساتين لاستقبال اشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة

فاغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيتهِ ونزلت من القصر وتمشت في طرق تلك الحديقة وقد تدثرت فوق اثوابها برداء من الحرير الاحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد · وقد غطى الرداء اكتافها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها (الفسطان) الارجواني المزركش بالقصب فانهُ ما زال يتلألأُ في اشعة الشمس ويجر من ورائها جرًّا خفيفًا · واما رأسها فقد كان مكشوفًا وعليهِ شبكة من الحرير الا يضتضم شعرها الذهبي ضمة واحدة وترسلهُ الى ظهرها مستعرضًا كأنها خارجة من الحمام وتلك عادة الرومان في لباس الشعر اقتبسها

(١) هذا اسمه عند العرب اما الافرنج فيسمونه Witiza

عنهم القنوط في تلك الاعصار . وكان ذلك الشعر الذهبي يتلالا من خلال تلك الشبكة خصوصًا اذا وقعت عليهِ اشعة الشمس في اثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على ان اكتساءها بذلك الرداء لم يخفِ جمال قامتها ورشاقة مشيتها . واما وجهها فقد كان ممتلئًا ناصع البياض مشربًا حمرة رائقة يكاد يشف عما تحتهُ وقد زادهُ الانحراف والذبول هيبة وجمالاً وزادا تينك العينين الزرقاوين حدة وبضاءة . ولم تكن عيناها زرقاوين تمامًا بل كان فيهما مع الزرقة شيء لا يعبر عنهُ بغير السحر . ولها فمٌ مع صغرهِ لا يبدو الاَّ مبتسماً ابتسام الجلال والحشمة

سارت الفتاة في الحديقة ومعظم اشجارها عارٍ من الورق واكثر رياحينها خالية من الازهار كأنها تشارك فتاتنا بالذبول والانكسار الاَّ الارض فقد كانت كأنها بساط من العشب الاخضر مرصعة ببعض الازهار التي تتفتح في الشتاء . فمشت الفتاة وهي لا تبالي بما قد يعترض طريقها من الاغصان المدلاة . فربما لطم كتفها بغصن وصدرها بآخر ورأسها بآخر وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وتراعي حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها . ولم تكن العجوز اقل منها قلقًا ولكن الزمان حنكها ومرور الحدثان علمها ان الاحوال لا تدوم على حال

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليهِ ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنهُ الاشعة كأنها جبال من الفضة . والفتاة تارة تنزل في وادٍ وطورًا تصعد على تل والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناول الفتاة الزهور والاثمار ولا تتكلم كانما حكم عليها بالسكوت وجعل الكلام عليها ذنبًا

وبعد التمشي برهة انتهت الى اكمة منبسطة تطل على النهر يكسوها عشب قصير كانهُ بساط من الديباج وقد تطاير عنهُ الندى بوقوع الاشعة عليهِ فراق لفتاتنا الجلوس عليهِ والتعرض لأشعة الشمس التماسًا للدفء وللتمتع بمنظر السماء الازرق الصافي . فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت « ما قولك يا خالة ألا نقعد على هذه الاكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل . . ؟ »

فهرعت العجوز وهي تصلح نقابًا كانت قد لفت بهِ رأسها وحول اذنيها تجنبًا للبرد وقالت « اقعدي حيثما تشائين ياحبيبتي » قالت ذلك واسرعت الى كرسي من خشب كان في بعض طرق الحديقة وجاءتها بهِ فابت القعود عليهِ وقالت « افضل

هذا العشب فان العقود عليه حسن في هذا اليوم » فقعدت وقعدت العجوز بين يديها وهي لا تزال تراقب حركاتها وقلبها يحوم حولها وقد سرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة . فجعلت ترغبها في تسريح نظرها بما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التي تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان وبتخلل الغابات بيوت متفرقة هنا وهناك كأن الناظر الى تلك البقعة ينظر الى صورة مكبرة . فقالت العجوز « تأملي يا فلورندا بهذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركي عنك الاوهام »

وكانت تلك التعزية سببًا في هياج شجون فلورندا فقالت « لقد اذكرتني يا خالة بامر احاول تناسيه .. كيف ينشرح صدري وانا في ما تعلمين من البلبال ... وقد زادني بلبالاً انتقالي الى هذا القصر .... »

فقالت « وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد اصبحت اقرب الى قصر الملك واعز جانبًا ... »

فقالت وهي تنظر الى آخر ما يقع نظرها عليه من مجرى النهر كانها ترى قاربًا بعيدًا « ان ذلك الانتقال هو الذي اخافني .. ويا ليته نقلني الى اطراف المدينة بل ياليته ارجعني الى والدي .... » قالت ذلك وشرقت بدموعها فانشغلت عن النظر الى ذلك القارب بما جال في خاطرها من امر والدها وبعدها عنه ووقوعها في ذلك الخطر

الفصل الثالث

ألفونس

وكانت العجوز خالة ام فلورندا وقد احتضنتها من طفوليتها وربتها في بيت والدها حتى اذا آن مجيئها الى بلاط الملك على جاري عادتهم كلفها ابوها ان تكون معها . فقضت في عشرتها بضعة عشر عامًا ولم تكن تزداد الاّ حبًا بها وانعطافًا نحوها لما فطرت عليه فلورندا من الجمال واللطف . فلما رأتها تبكي انفطر قلبها وقالت « اما الرجوع الى والدك فانه ميسور ولكن بقاءك هنا لا أرى فيه باسًا وخصوصًا لاجل الفونس .. »

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكانها كانت في

غفلة وإفاقت فدقَّ قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها . ثم تنهدت والتفتت الى العجوز وقالت « دعيني من الفونس . . . حتى الفونس نفسهُ اصبح من اسباب شقائي وقد كنت كما تعلمين احسبهُ سبب سعادتي . . . آه . . دعيني ابكي . . . »

فقالت العجوز « مالي أراك تحسبين الشقاء محدقًا بك من كل ناحية وانت من اسعد خلق الله . . ؟ كيف تقولين ان الفونس من اسباب شقائك وهو خطيبك ويستهلك في سبيل مرضاتك . . ؟ »

قالت « اعلم ذلك وهذا الذي يزيد بلبالي . احبهُ ويحبني . . وما الفائدة من هذه المحبة . . . ان الذنب ذنبك ياخالة . . . انت علقت قلبي به وكنت خالية لا اعرف القلق . . . سامحك الله . . »

قالت « لم اندم على ما بذلتهُ من الجهد في تقريب قلبيكما لانكما متناسبان خلقًا وخلقة وانتما من عائلة واحدة . ولما سعيت في تقريبكما كان هو ولي عهد هذه المملكة الواسعة ولما توفقتُ الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت اني أوصلتك الى اوج السعادة . لان الفونس كان لا يلبث ان يصير ملكًا على اسبانيا كلها فتكونين انت ملكة القوط . ولم يخطر لي ان يحصل ما حصل من الانقلاب فيسعى اهل المطامع والاغراض في اهلاك ابيه واخراج الملك الى احد قواده . . » ولما بلغت الى هنا خفضت صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة ان يسمعها احد ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت « فاذا كنت تعدّين خروج الملك من يديه شقاء فاني لا ألومك . . »

فقطعت فلورندا كلام خالتها وقالت « لا لا . . . ليس ذلك سبب شقائي وانما هو انقطاع الفونس عن المجيء اليَّ . . ها قد مضت اشهر ولم اشاهده واظنني لن اشاهده بعد اعوام وخصوصًا بعد انتقالي الى هذا القصر . . اعوذ بالله من هذا الانتقال . . ان قلبي يحدثني بسوء سيصيبني منهُ . . . ولذلك ترينني منذ انتقلت اليه وانا منحرفة الصحة لا يهنأ لي عيش . . . »

قالت « اراك واهمة يا حبيبتي فما في هذا القصر الاّ ما يدعو الى انشراح صدرك واما سبب انقباضك فانما هو شوقك لألفونس وهذا لا ألومك فيه وان يكن هو معذورًا في تغيبه . لان الملك يراقب حركاته وسكناته خوفًا منهُ لعلمه بما اختلسهُ من قبضة يده . . . »

وكان القارب الذي وقع نظر فلورندا عليه في اعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور

ثم ظهر من بينها على مقربة من حديقة النصر . وحالما وقع نظر فلورندا عليهِ خفق قلبها لانها رأت فيهِ الفونس واثنين من رجالهِ . فلم تعد تعلم ماذا تقول واكتفت بالاشارة اليهِ فاقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر واشار الى الرجلين فنزل احدها ومشى في جهة اخرى وظل الثاني في القارب . واما الفونس فحالما وقع نظره فلورندا اسرع اليها وعليهِ لباس القواد الرسمي وهو عبارة عن سراويل منتفخة قصيرة مبطنة بالفرو الى الركبة وحول صدره دراعة مقفلة من الامام وفوقها قباء قصير ارجواني اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة وعلى رأسهِ قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحت القبعة شعره الاسود يسترسل الى اكتافهِ . وكان الفونس في العشرين من عمره ولم يستطل شعر عارضيهِ وشاربيهِ بعد . وكان ابيض الوجه اسود العينين اذا نظرت في عينيهِ تبينت فيها الحب والوداعة مع النباهة ولم تر فيهما شيئًا من المكر . وكان قد علق بحب فلورندا مذ كان ابوه على عرش اسبانيا وهو يومئذٍ ولي عهد المملكة لانهُ اكبر اخوتهِ . وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليهِ يومئذ ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بالنظر الى القرابة التي بينهما فنجحت وتعلق الفونس بفلورندا تعلقًا شديدًا . وكان يتردد عليها كثيرًا ويجالسها كل يوم تقريبًا ثم اشتغل عنها بعد وفاة والده بما اصابهُ من ضياع الآمال . واصبح رودريك الملك الجديد وقد وضع عليهِ العيون والارصاد . فخاف الفونس المجيء اليها ولكنهُ كان يترقب الفرص لرؤيتها ويسأل عن احوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك وانها تقيم فيهِ وحدها فهاجت فيهِ عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبرًا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها فاذا رآها لا تزال على عهدها اسرع في عقد الاقتران . لانهُ كان يظنها زهدت بهِ بعد خروج الملك من يده . واتفق احتفال اهل طليطلة بعيد الميلاد في تلك الاثناء وقد خرج الملك في موكبهِ الى الكنيسة الكبرى والفونس في جملة البطانة وعليهِ اللباس الرسمي وهو في جملة الراكبين فخطر لهُ وهو في أثناء الطريق ان ينفرد عن الموكب خلسة ويمضي الى فلورندا لانهُ كان قد بلغهُ انحراف صحتها فرجح انها لا تخرج الى الصلاة في ذلك اليوم فاختار المجيء في القارب لئلا يراه احد في اسواق المدينة وجاء معهُ في القارب اثنان من خاصته . فلما نزل البر ارسل احدهما لاستقدام فرسهِ حتى يعود عليهِ راكبًا الى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة . واستبقى الآخر في القارب لحين

الحاجة ... امر خادمة بذلك والتفت فوقع بصره على فلورندا فلم يتمالك ان اسرع نحوها وهو يثب وثبًا والمسافة بينهما نحو مئة متر

الفصل الرابع

﴿ لسان الغرام ﴾

اما هي فلما رأته قادمًا بغتت وظهرت البغتة في عينيها واسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها وارادت ان تقف لملاقاتهِ فلم تستطع من شدة التأثر وامتقع لونها وشخصت ببصرها اليهِ وهي لا تصدق انها تراه . اما هو فلما دنا منها ولم تقف لهُ ولا رحبت بهِ تحقق عنده ما كان يظنهُ من زهدها فيهِ . وبعد ان كان مسرعًا بلهفة المشتاق تباطأ وندم على مجيئهِ وتطفله . ثم ما لبث ان رأى العجوز تهرول اليه وهي تعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهي تقول « اهلاً وسهلاً بحبيب القلب الفونس »

فاطمأَن بالهُ ولكنهُ ما زال خائفًا فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هي لا تزال جالسة وقد التفّت بالرداء ويداها مختبئتان فيهِ حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليهِ ونظرت فيهِ نظرة خرقت احشاءه وقرأ في عينيها بتلك اللحظة ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات — قرأ فيها العتب والتعنيف قرأ الشوق والوجد . قرأ فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام . فلم يستطع جوابًا على تلك المعاني الا الجثو على ذلك البساط الاخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان « السلام يا فلورندا السلام » ومد يده وانحنى رأسهُ كانهُ يسأَلها احسانًا . فظلت هي شاخصة فيهِ ويداها لا تزالان مختبئتين في ذلك الرداء . ولبث الاثنان شاخصين برهة وعيونهما تخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشي عينيها فحجب عنها وجه الفونس . فاخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها فسبقها الفونس الى استخراج منديلهِ ومسحهما بهِ ثم مسح بهِ وجههُ وتنشق رائحتهُ وتنهد تنهيدًا شديدًا واعاد يده فمدها الى فلورندا فلم تمد يدها اليهِ . ففهم انها تتعمد ذلك دلالاً وعتبًا فلم ينتظرها فمد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كانهما امسكا بطارية كهربائية قوية

مضت فترة وهما يتخاطبان بالالحاظ ولهما من قراءة الافكار ما يغنيهما عن الالفاظ . وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الازهار والاستتار بين الاغصان رفقاً بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما في مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتاً وقد عوّل على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام . فقضيا برهة واليد باليد والعين على العين والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان . وقد غشي الاعين ماء لامع هو من اكبر دلائل الهيام

ثم فتحت فلورندا الحديث فقالت بنغمة الدلال والعتاب « ما الذي جاء بك يا الفونس ؟ . . »

قال « لا أدري ما الذي جاء بي يا حبيبتي فهل تعلمين انت ؟ واما الذي اعلمهُ فهو اني اسير هواك . واني حي برضاك ميت بجفاك . . . حبيبتي فلورندا . . . هل عندك مثل ما عندي ؟ . . . نعم اعلم انك كنت تحبيني ولكن هل انت باقية على ذلك او على بعضهِ ام غيرك ما غير احوالنا واضاع آمالنا . . . ؟ »

فادركت انهُ يشير الى خروج الملك من يدهِ فسحبت انامله من بين انامله بلطف واظهرت انها تحوّل وجهها عنهُ ونظرها لا يزال ثابتاً في نظرهِ كأنها تقول لهُ « أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين ؟ . . » ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها « لم اكن أشكّ بصدق مودتك وقد امتزج قلبانا — ولكنني حسبت سوء حظي غيرك وبعد ان خسرت ابي وملكي جرني سوء الطالع الى خسارة ما هو اثمن من ملك العالم كلهِ . . » قال ذلك وقد ابرقت عيناه وانبسطت اسرتهُ وهو لا يزال ينظر اليها ويتوقع ان يسمع قولها . فعادت الى السكوت والتفت بردائها وحولت نظرها الى مجرى النهر واصغت الى صوت هديرهِ . فاستولى على تلك الحديقة سكوت لم يكن يتخللهُ الا خرير الماء وزقزقة العصافير

فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فاذا هي قادمة وفي يدها بعض الازهار فناداها وهو يقول « تعالي يا خالة كلمي فلورندا عساها ان تعطف عليَّ بكلمة ابرد بها لظى وجدي . . »



الفصل الخامس

الحب كثير الشكوك

وكانت العجوز قد وصلت اليها فقدمت الزهور الى فلورندا واجابت الفونس قائلة « اذا كنت لا تفهم بدون كلام فما انت من أهل الغرام . أتحتاج مع ما تراه في فلورندا الى ايضاح . وهل تظن ما يليق بالشبان من التصريح يليق بالفتيات ايضاً » ثم التفتت الى فلورندا وقالت « هذا هو الفونس كلمته واسأليه ... وقد سمعت منك شكاً في محبته فهل رأيت صدق قولي في ثباته .... »

فرفعت فلورندا بصرها اليه وقد اخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً حتى ظهر ذلك جلياً في عينيها لما اعتراها من الذبول واللمعان فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يخطفها ببصره وقد نسي مصيبته في الملك وضياع حقه فيه وهان عليه ان ترضى فلورندا ولو خسر العالم باسره . وفيما هو غارق في تلك الهواجس سمعها تقول « هل شككت في حبي يا الفونس .. »

قال « نعم يا منيتي ... والحب كثير الشكوك .. »

فاطرقت وهي تقول « صدقت ان الحب كثير الشكوك فقد خامرني مثل ما خامرك كما قالت خالتي .... ولكن ... »

فقطع الفونس كلامها وقال « لا أرى مسوغاً لشكك فيَّ وانت تعلمين اني مستهلك في هواك . واما انا فيحق لي ان ارتاب ببقائك على عهدي لما اصابني من نوائب الزمان . فقد كنت ولي عهد هذه المملكة فاصبحت مثل سائر رجالها ... »

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه فقالت « لما احببتك يا منيتي انما احببت الفونس ولم احب ولي عهد مملكة القوط . ان الحب لا يعتبر الرتب ولا المناصب . والقلوب يا الفونس تتعاقد وتتحد وهي لا تبصر ولا تقيس ولا تكيل ولا تزن . وهي لا تتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات ولا تفرق بين الحقوق والواجبات . القلب يا الفونس لا يرى علامات الشرف ولا يهوى التيجان ولا يخاف الصولجان — القلب يا حبيبي لا يهوى الاَّ القلب ... »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام في محياها ثم اطرقت وسكتت وفي ملامح فمها انها لم تستتم الكلام بعد .. فلم يشأ الفونس ان يقطع سلسلة افكارها فظلَّ صامتًا وهو ينظر اليها نظر المستزيد ولسان حاله يقول اتمي كلامك . فلما رأتهُ يتوقع كلامها قالت « على اني آسفة لخروج هذا الامر من يدك لا لاني احب ان اكون ملكة . ولكني ... » قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معًا . فتزايد احمرار وجهها وقد اقطبت اسرتها والتفتت نحو القصر كانها تخاف رقيبًا . وسكتت . فانشغل خاطر الفونس بذلك السكوت وادرك بعض مرادها ولكنهُ تجاهل وقال لها « ولكن ماذا يا فلورندا يا حبيبتي ? . قولي ... افصحي »

قالت وهي تخفض صوتها « ولكنني لولا هذا التبديل لم اكن اقاسي هذه المتاعب ... لم اكن احسب نفسي بين انياب الاسد ... وملاكي الحارس بعيد عني ... » وخنقتها العبرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت « ألم اكن انعم بالاً لو ظل غيطشة على كرسي الملك او لو انهُ عهد بهِ اليك فلم يكن لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتي ... »

فقطع الفونس كلامها وقد علتهُ البغتة واتقدت الغيرة في قلبهِ وقال « بماذا اقلق راحتك ? ... هل خاطبك في شيء ? ... هل بدا لك منهُ سوء ... اخبريني قولي .. »

قالت « كلاًّ لم يبد لي منهُ شيء ولكنني لا احسب نفسي في مامن . وخصوصًا بعد ان نقلني الى هذا القصر ولم افهم لهذا النقل معنى ... فبقاء الملك في يدك ادعى الى سروري وسعادتي من هذا القبيل ... »

فادرك الفونس الامر الذي تعرّض هي بهِ مع ما توختهُ من المبالغة في تلطيف العبارة وعلم انها تقرعهُ لتقاعدهِ عن المطالبة بحقوقهِ . وكان لا يزال الى تلك الساعة جاثيًا بين يديها فلما سمع قولها أحس كأنها صبت ماء غاليًا على بدنهِ فوقف وقد غلب عليهِ الهيام وهان عليهِ كل شيء في سبيل ارضائها وقال « يحق لك ان تعيريني يا فلورندا اذا كنت متقاعدًا عن الامر ولكن لكل اجل كتاب . وقد كنت امسكت عن زيارتك على ان لا أزورك الاَّ بعد ان احقق رغائبك فطال سعيي ولم اصل الى المرغوب فلم اعد اصبر على بعدك وانا خائف من فتورك ... فرأيت فيك من الثبات في الحب ما زادني ثباتًا في مسعاي ... فاعلمي يا فلورندا ان ما يتوكأ عليهِ هذا المختلس من احزاب الروم عصابة ضعيفة . وانما تمكن الاساقفة من تنصيبهِ رغبة في خدمة رومية [1] وكل

(١) تاريخ اسبانيا لروني ج ٢

احزاب المملكة ضده وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم ... وليس هذا محل الافاضة بهذا الشان ولكنني اقسم لك برأس ابي وان كان مائتًا ... ان رودريك هذا لا يلبث ان ينزل و يعود الملك الى اصحابهِ ...»

وكانت فلورندا تسمع كلامهُ وهي تنظر في وردة من ورد الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها فتشاغلت بنثر اوراقها وهي تصغي لما يقولهُ الفونس . فلما بلغ الى قولهِ بعود الملك الى اصحابه رمت ما بقي بين اناملها من تلك الوردة ورفعت بصرها اليهِ كانها تتثبت بقولهِ او تتفهم حقيقة ما يريد . ففهم مرادها فازداد تهورًا في تصوره واوهمهُ غرامهُ انهُ قادر على كل شيء فمد يده ومس اطراف شعره المسترسل على كتفيهِ وقال « واذا كنتِ لا تثقين بقولي فاني اشهدك على نفسي واشهد هذه الخالة ايضًا ان بقاء هذا الشعر حرام عليَّ ان لم افِ بقولي [1] »

فتحققت فلورندا انهُ يقسم صادقًا ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينهُ وبين تلك الامنية من العقبات فارادت ان تخفف من عهده فقالت « لا حاجة بنا الى هذه الاقسام ولا تعرض نفسك للخطر من اجل الملك فانهُ مجد باطل . وانما المراد ان نكون معًا في مامن من أهل الاعتداء ولو في كوخ من اكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في الحرث والزرع ...»

الفصل السادس

موكب الملك

فاراد الفونس ان يجيبها فسمع صفيرًا فبغت والتفت فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم فعلم ان موكب الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر وهو لا يزال مستغرقًا في حديثهِ مع فلورندا فندم وتحقق انهُ اخطأ ولا بد من ان يسيء رودريك الظن فيهِ . ورأتهُ فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع فادركت انهُ ابطأ عن الاحتفال فقالت لهُ « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك .....»

---

(١) كان ارسال الشعر من علامات الشرف عند القوط ولا يحلقهُ او يقصهُ الا العبيد

فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها « ادعي لي فالك من الملائكة ودعاؤك مستجاب . واذكريني في صلاتك عساي ان اتوفق لمرضاتك » فأجابتهُ باشارة من أهدابها وحاجبيها . فتحوّل نازلاً نحو القارب ليبعد بهِ عن الحديقة ثم يركب فرسهُ الى القصر من طريق آخر . وظلت فلورندا واقفة وهي تشيعهُ ببصرها حتى توارى فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها فرجعنا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام في نفسها بعد ذلك الحديث . وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك وخافت ان يجر ذلك الى الاذى بحبيبها

اما رودريك فقد سار بموكبهِ الى الكنيسة في ذلك الصباح وفي نفسهِ شاغل من امر الفونس لانهُ كان يتوقع ان يراه في الموكب في جملة الحاشية وكانوا قد زينوا الكنيسة الملك زينة باهرة بالرياحين واضاؤوا الشموع واوقدوا البخور حتى انتشرت رائحتهُ على ما جاور الكنيسة . وكانت اصوات المرتلين والمصلين تسمع لمسافة بعيدة والناس يتزاحمون لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضاً والمطلون من السقوف والنوافذ اكثر من المارين في الاسواق

ولما اقبل الملك بموكبهِ خرج الاساقفة لاستقبالهِ ووراءهم وبين ايديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع وبعضهم يحمل الصليب وآخر الكاس وآخر غير ذلك من شارات النصرانية . فترجل الملك عن بعد وترجل من كان معهُ فكان اول من استقبل الملك رئيس الاساقفة فحياهُ فانحنى الملك على يدهِ وقبلها وقبل صليباً مرصعاً كان فيها . ومشوا جميعاً في فناء الكنيسة الخارجي والاساقفة ورجال الكهنوت امامهم حتى اقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فدخلوا من بابها وهو عبارة عن ثلاثة ابواب اوسطها اعظمها عتبتهُ العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والانبياء . فمشى الملك وعلى رأسهِ تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعرهُ مسترسل الى كتفهِ وظهرهِ . وشعر لحيتهِ وشاربيهِ مسترسل الى صدره . وكل اشراف المملكة بين يديهِ بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة والكل مبتهجون بما يشاهدونهُ من الزهو في ذلك العيد . وساروا في صحن الكنيسة بين اعمدة فخيمة من الرخام النقي او المرمر منصوبة في ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعاً على ثمانين عموداً وعلو الكنيسة من صحنها الى اعلى قبتها ٤٦ متراً وطولها يزيد على مئة متر . وقد زادها فخامة في ذلك اليوم ما علقوهُ فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل

المنارة بالزيت امام الصور وقد تصاعد البخور وعلت اصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعي الكهنة في اسكاتهم

ما زال الملك ماشياً حتى استقرَّ على كرسي خاص بهِ بجانب الهيكل واستقرَّ سائر حاشيتهِ في مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . اما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناهُ شائعة في حاشيتهِ وفي الجماهير كأنهُ يفتش عن ضائع . وكان في كرسي عن يمينهِ قسيسٌ كان يلازمهُ دائمًا فيقيم معهُ في قصرهِ ويصلي لهُ صلاة النوم وصلاة الصبح وهو الذي يعرّفهُ ويرشدهُ ويعزيهِ . وكان الملك لا يذهب في احتفال الاَّ اصطحبهُ ولم يكن يبرم امرًا الاَّ بمشورتهِ واسمهُ الاب مرتين . وكان طاعنًا في السن وقد شاب شعرهُ ودق عضلهُ وتجعد جلد وجههِ واستطالت اسرة جبهتهِ وغارت عيناهُ وزادهما ارسال شعر حاجبيهِ فوقهما غورًا واختفاء . وقد تساقطت اسنانهُ وانخفضت شفتاهُ حتى اصبح فمهُ واديًا بين جبلين . وكان في شبابهِ وكهولتهِ سريع الكلام فلما صار اهتم خالط كلامهُ تمتمة تتعب السامع في تفهم ما يقول . وكان قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان . وكان شديد التعلق بكرسي رومية لانهُ ربيَ فيها فشبَّ رومانيَّ المبدأ والغرض . ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق فكان لذلك من اكبر المساعدين على تنصيب رودريك

الفصل السابع

الرُّوم والقوط

والتباغض بين الرُّوم والقوط طبيعيٌّ لان اسبانيا لما فتحها القوط في القرن الخامس للميلاد كانت رومانية المذهب والغرض وكل اعيانها واكابرها من الرُّومان فتسلط القوط عليهم قرنين وبعض القرن ولم تتحد قلوبهم ولا تآلفت اغراضهم وظلَّ القوطي يتكلم لغة والرُّوماني لغة اخرى . وربما كان القوطي احوج الى تعلم لغة الرُّومان (اللاتينية) من الرُّوماني الى اللغة القوطية . لان اللاتينية لغة المملكة الرومانية وكانت اسبانيا تابعة لها . ففتحها القوط ولم يستطيعوا استبدالها بلغتهم كما استبدل العرب لغات ما فتحوهُ من المملكة الرُّومانية الشرقية باللغة العربية . وشأن العرب والقوط في فتح مملكة الرُّومان متشابهٌ — جاءها القوط من الشمال وجاء العرب من الجنوب وكلاهما اهل بادية وخشونة

فاكتسحاها واستولى كل منهما على جانب منها ولكن العرب استطاعوا ما لم يستطعهُ القوط فأنشأُوا على انقاض تمدن الرُّوم تمدنًا خاصًّا بهم وجعلوا الامم التي دانت لهم تتوالى الاجيال امة واحدة تتكلم لسانًا واحدًا . واما القوط فقضوا في اسبانيا نيفًا ومئتي سنة ثم خرجوا منها ولم يتركوا اثرًا يذكر

وزد على ذلك ان القوط لما فتحوا اسبانيا كانت ديانتهم الاريوسية على مذهب آريوس[1] صاحب البدعة الشهيرة في النصرانية . لان دعاة هذه البدعة لما اصابهم ما اصابهم من الاضطهاد وقاومهم الامبراطرة انفسهم هاجروا المملكة الرُّومانية وتفرقوا حواليها في الشمال والجنوب واخذوا يبثون هذا المذهب في القبائل المقيمة هناك ومنهم قبائل الجرمان في شمالي اوربا وفي جملتهم القوط . فلما فتح القوط اسبانيا كانوا يدينون بالاروسية وظلوا على ذلك قرنًا وبعض القرن . ونشأ في اثناء تلك المدة شيع اخرى اتبعها بعض الاسبان والقوط في جملتها شيعة نسطور المشهورة وشيعة باشينسيوس وغيرها

ففي اواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمهُ ريكارد فاتبع المذهب الكاثوليكي سنة ٥٨٧ للميلاد فتبعتهُ الاساقفة ثم الرعية فعادت اسبانيا الى مذهب كنيسة رومية وصار الاساقفة اكثرهم من الرومان وجعلوا في جملة شروط انتخاب الملك ان يكون قوطيًا كاثوليكيًا[2]

ولم يمض قليل حتى احسَّ القوط بالخطا الذي ارتكبوهُ بالتخلي عن مذهبهم ولغتهم وعلموا ان ذلك التخلي ذاهب بدولتهم . وكان اكثر ملوكهم شعورًا بذلك غيطشة والد الفونس بطل روايتنا . فعزم على التخلص من تلك القيود فشعر الاساقفة بمقاصده وكان النفوذ قد افضى اليهم فاتحدوا مع اعيان البلاد وهم على غرض رومية فانزلوا غيطشة وولوا رودريك — ويقال انهم فعلوا ذلك بعد موت غيطشة . وعلى هذه الكيفية خرج الملك من بيت غيطشة الى بيت رودريك وجماعة الاكليروس من حزبهِ . ويعتقد اصحاب غيطشة ان رودريك ليس من اصل قوطي ولذلك عدوهُ مختلسًا

وكان الاب مرتين من جملة الساعين في تنصيب رودريك . وكان يكره غيطشة واولاده بنوع خاص لان غيطشة كان يكرههُ لشدة تعصبهِ لرومية فكان مرتين من اكثر الناس سعيًا في اخراج الملك من يديهِ الى رودريك . ولذلك كان رودريك لا يقطع امرًا الاَّ بمشورتهِ . وكان في جملة مشورات مرتين على الملك ان يضيق على

(١) دوزي ج ٢ (٢) تاريخ اسبانيا تاليف رومي ج ٣ صفحة ٢٥٢

الفونس ولا يسمح بغيابهِ عن القصر وان يكون دائمًا بين يديهِ خوفًا من ان ينشيء الاحزاب المطالبة بالملك (١)

فلما وصل الملك الى الكنيسة في ذلك اليوم كان اول شيء نبههُ اليهِ مرتين ان الفونس لم يكن في جملة فرسان الموكب · فتفرَّس الملك في الناس فلم يجدهُ بينهم فانشغل خاطرهُ ولكنهُ مالبث ان شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيهِ من الانتباه لحركات الكهنة في اثناء القداس على انهُ كان يعود برهة بعد اخرى الى البحث عن الفونس خلسة

الفصل الثامن

المحاكمة

فلما انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبهِ عاد الى البحث عن الفونس فلم يجدهُ فركب ودعا الاب مرتين للركوب معهُ فقضيا مسافة الطريق يتساران في سبب تغيب الفونس في ذلك اليوم · ولما دنا الموكب من القصر رأى الاب مرتين الفونس مسرعًا على جواده من جهة القصر وكان عالمًا بعلاقتهِ بفلورندا فأدرك انها هي سبب تغيبهِ ولكنهُ اقتصر على تنبيه ذهن الملك الى قدومهِ في تلك اللحظة

فوصل الملك الى قصره وترجل عند الباب الكبير وصعد على درجات عريضة من الرخام تؤدي الى فناء القصر ثم الى باحة قائمة على اساطين تستطرق الى دهليز يتفرع الى طرق تؤدي الى اجزاء القصر المختلفة وفي جملتها قاعة المجلس · فدخل الملك وقسيسهُ من طريق خاص يؤدي الى تلك القاعة · ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنئين من الطريق العام · فجلس الملك على عرش مرتفع قوائمهُ بشكل قوائم الاسد وهو مصنوع من الفضة والملك في الملابس الرسمية وعلى كتفهِ بردة من الديباج موشاة بالذهب وعلى رأسهِ تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وفي يدهِ صولجان من الذهب ينتهي بصليب مرصع · وكان رودريك في نحو الاربعين من العمر ممتلىء الجسم بارز الصدر والبطن قوي البدن تلوح في وجههِ امارات البسالة عيناهُ جاحظتان كبيرتان وحاجباهُ غليظان وشعر شاربيهِ طويل حتى يزيد على طول شعر لحيتهِ ورأسهِ

(١) كان لغيطشة على قول بعضهم ثلاثة اولاد

جلس رودريك على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة تمثل السيد المسيح مصلوبًا وعلى جدران القاعة صوَر عديدة دينية · وجلس بجانبه الاب مرتين و بين يديه رجال خاصته ثم توافد الناس لتقديم التهاني وفي جملتهم الفونس فانهُ دخل وحيّ الملك وهنأهُ كما فعل الآخرون وجلس في جملة الجلوس · فلما همّ الناس بالانصراف اراد الفونس ان ينصرف فأشار اليه رودريك ان يبقى فأوجس الفونس خيفةً من ذلك الاستبقاء · ولكنهُ صبر حتى اذا خلا المجلس ولم يبق في القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال الملك « ما الذي أخرك عن مرافقة الموكب في هذا الصباح يا الفونس ·· ؟ »

فبغت الفونس ولم يكن مستعدًّا للجواب لانهُ لم يكن يظن الملك يهتم لغيابه هذا الاهتمام فعلت وجههُ امارات البغتة ولكنهُ تجلد واجاب « كنت في شاغل خصوصيّ اعاقني عن القيام بفروض الصلاة بين يدي جلالة الملك ·· »

قال الملك « من الغريب ان يتفق لك هذا الشاغل في تذكار عيد الميلاد وفي ساعة خروج الموكب ·· » قال ذلك وحوّل نظرهُ الى صورة في الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها والملك يتشاغل بتمشيط طرف لحيته بأنامله

فقال الفونس « نعم انهُ اتفاق غريب · ولكنهُ وقع ولا حيلة في وقوعه واني أتأسف لذلك »

وكان الاب مرتين في اثناء ذلك مشتغلاً بتلاوة بعض الصلوات امام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لا يسمعهُ احد ولما فرغ من صلاته عاد وقد تزمل بردائه واصلح قلنسوتهُ وجلس بجانب الملك واصغى لما يدور بينهما · فلما رآه الفونس مهتماً بالامر اختلج قلبهُ لعلمه بما بينهما من المضاغنة

أما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبلهُ ولكنهُ رأى من الحكمة أن يؤجل حكمهُ في اقواله الى بعد مشورة القسيس فأراد ان يصرفهُ فسمع القسيس يقول لهُ « يظهر ان انشغالك كان في قصر جلالة الملك ·· او بجوار قصره ·· » قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله

فزاد استياء الفونس منهُ ولكنهُ خاف اذا اجابهُ ان يصرح بشيء آخر

واما الملك فانهُ توسم في عبارة القسيس شيئًا كان يتردد في ذهنه ولم يتحققهُ فأراد ان يفهم ذلك من مرتين على حدة فلم يصبر على الفونس حتى يجيب فالتفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معًا وقال « انصرف الآن يا بنيّ واحترس ان تفعل

ذلك مرة اخرى ..»

فأحس الفونس عند ذلك فرج سكن له جاشه وكأن ثقلاً كبيرًا نزل عن صدره فتحوّل نحو الباب وخرج وهو لا يكاد يرى شيئًا امامه لعظم ما قام في نفسه من اسباب القلق . ولم يكد يخرج من باب القصر حتى انتبه لنفسه وتمثل له مركزه وما آل اليه امره بعد خروج الملك من يده . فقد كان على عهد ابيه اذا مرَّ من هناك تسابق الناس الى القاء التحية والاستعطاف ولا يبقى احد لا يقف له . فمرَّ في ذلك اليوم والناس يتزاحمون في فناء القصر ولم ينتبه له احد الاَّ اصدقاؤه حتى هؤلاء اصبحوا يحاذرون المظاهرة بصداقته خوفًا من ان يسيء الملك ظنه فيهم

خرج الفونس وقد هبت فيه عوامل الغيرة وكانت الفاظ فلورندا لا تزال ترنُّ في اذنيه فتذكر وعده اياها باستخراج الملك فزاده غيظه من الملك تمكنًا بوعده فركب جواده وسار توًّا الى منزله وهو غارق في بحار الهواجس وقد استصغر نفسه وهان عليه ركوب اي شيء في سبيل الانتقام لوالده واسترضاء فلورندا

الفصل التاسع

الزيارة

أما رودريك فلما خرج الفونس من مجلسه تظاهر برغبته في الاستراحة فدخل غرفته الخصوصية فجاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمي والبسوه ثيابه الاعتيادية وهو لا يخاطب احدًا منهم في شيء لانشغال خاطره بالعبارة التي سمعها من الاب مرتين عن الفونس والقصر . فلما فرغ من لبس الثياب دعا الاب للغذاء معه فجاء . وفيما هما على المائدة لم يخاطبه الملك في شيء لوجود الملكة معهما وهو يحب ان يبعد امثال هذه المواضيع عن ذهنها لما يترتب عليها من الغيرة . فلما فرغوا من الطعام قال الملك « يا ابتاه اطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة ان ترافقني الى غرفتي ... » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لان زوجها كثيرًا ما كان يخلو بالاب مرتين مثل هذه الخلوة للمخابرة او المشاورة او الاعتراف او غير ذلك

فلما خلوا في الغرفة قال رودريك « ما قولك بصاحبنا اليوم ...؟ »

قال « اذا كنت تعني الفونس فأرى ان جلالة الملك قد بالغ في الحلم والرأفة في معاملته .... كيف يتغيب عن موكب جلالتك لاعذار ما أنزل الله بها من سلطان ؟ ... » قال ذلك بنغمة الاستغراب واستعجل بنطقها التماسًا لتأثيرها على الملك ولو لم يكن رودريك قد الف الفاظه ونغمته لما فهم منها شيئًا

فقال الملك « ولكنني سمعتك تشير الى عذره اشارة لم افهمها جيدًا »

فادرك الاب ان الملك يحتال في استطلاع ما بين الفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويوهم مرتين انه يسال سؤالاً بسيطًا فسايره الاب على فكره واجابه بنغمة البساطة قائلاً « لم اقل شيئًا وانما قلت انه تاخر في القصر .. »

قال « واي قصر .. »

قال « واي قصر .. ؟ قصر جلالة الملك ... كأن مولاي لا يعلم علاقته بذلك القصر ؟ .... »

قال وهو يبالغ في التجاهل « لا اعلم علاقة له بهذا القصر بعد ان خرج الملك منهم ووضعت يدي عليه ... »

قال « لا اعني علاقته بالملك ... بل اعني علاقته بفلورندا بنت الكونت جوليان التي امر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة ايام ... »

فلما ذكر اسمها بغت الملك وخفق قلبه حباً وغيرة ولكن انفة المُلك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الامر لا يهمه وقال « هل هي علاقة قرابة ..؟ ام ما هي .. ؟ »

قال « لا يخفى على جلالة الملك ان الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا بينه وبين غيطشة قرابة اظنها نسائية ولكنني اعني قرابة الفونس من فلورندا بنوع خاص .... »

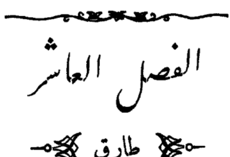
قال « اي قرابة ... ؟ »

فضحك مرتين وقال « كنت احسب الملك عارفًا بذلك لان خطبتها مشهورة من قبل تولي جلالتكم عرش اسبانيا ... »

فلما سمع رودريك ذكر الخطبة عظم عليه الامر لانه كان يحب فلورندا كثيرًا ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتمادًا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها وعوّل على ان يطمعها بالمال والسلطان او يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه . ولم يشأ ان يطلع القسيس على فكره فتظاهر باقتناعه بهذا

الجواب ووقف . فادرك القسيس ان الملك بريد الانصراف فوقف هو وانسحب

وكان بين غرفة الملك وبين قصر فلورندا دهليز يستطرق الى ذلك القصر وليس الى قصر فلورندا سبيل من قصر الملك غير تلك الغرفة وقد بني قصرها على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية فعول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة الفونس . ولم ير ان يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو انما ينوي معاشرتها خفية عنها . فاغلق باب غرفته المستطرق الى قصره وفتح الباب الآخر المؤدي الى قصر فلورندا



الفصل العاشر

طارق

اما فلورندا فكانت بعد ذهاب حبيبها من الحديقة قد تحولت هي والعجوز الى القصر وقد اخذ الهيام منها ماخذًا عظيماً وانشغلت عن الوجدان بمراجعة ما دار بينها وبين الفونس في ذلك الاجتماع وندمت لما فرط من اقوالها المهيجة له على طلب الملك . فمالت الى الخلوة للتفكر في وباقواله لعلها تهتدي الى ما يخفف هواجسها . فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج ويحجبها عن النهر شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت اغصانها وتشامخت حتى اصبحت فلورندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الاّ من خلال الاغصان وخصوصاً في ذلك الفصل وتلك الشجر جرداء تقريباً فجلست فلورندا على كرسي بجانب النافذة وارسلت بصرها من خلال تلك الاغصان العارية الى النهر وما وراءه فرأت القارب قد بعد عن المكان . فتذكرت انها رأت حبيبها فيه ثم ارسلت افكارها في فضاء الهواجس

اما العجوز فانها تركت فلورندا وهواجسها وتحولت الى ايقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة المسيح مصلوباً وجثت امام الصورة وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى المسيح ان يحفظ الفونس ويوفقه ويتم له الزواج بفلورندا . وبعد الفراغ من الصلاة قبلت الصورة وخرجت واغلقت الباب وراءها واوصت الخدم ان لا يقربوا من الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من

ذلك القصر حيث كانت فلورندا بل كانوا يقيمون في الطبقة السفلى فاذا ارادت حاجة بعثت اليهم مع العجوز

واستغرقت فلورندا في هواجسها امام تلك النافذة حتى نسيت نفسها وتعبت من التفكير فاحست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهي لا تزال في الحالة التي قابلت بها الفونس فرأت الفونس في منامها قادماً نحوها ووجهه يطفح نوراً واحبت ان تقبله فلم تستطع فانزعجت وافاقت وهي منقبضة النفس . وفيما هي تمسح عينيها لتحقق انها في المنام سمعت وقع خطوات فنظرت فاذا بالعجوز داخلة من الباب وفي وجهها علائم الدهشة فجلست فلورندا وقد بغتت وقالت « ما بالك ياخالة ما وراءك . . »

قالت « ما ورائي الا الخير . لا تضطربي » وسكتت

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها « ماذا جرى هل اصاب الفونس سوء . . ؟ »

قالت « معاذ الله . . ولكن الملك يدعوك اليه . . »

ولما سمعت ذلك اضطربت كل جوارحها ونسيت هواجسها بحبيبها وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت « اين هو . . . وما الذي يبغيه مني . . ؟ »

قالت « لا أدري يا سيدتي ولكني كنت في غرفتي اصلح بعض شأني فرأيت الملك نفسه داخلاً دخول السارق فبغتت لرؤيته فسألني عنك وطلب اليَّ ان ادعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر على ان تأتي حالاً بالحالة التي تكونين فيها فجئت للقيام بامره »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذي كانت تخافه . ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جاشها ودنت من الايقونة فقبلتها وصلت الى الله ان يشجعها وينقذها من مخالب الشرير . وطلبت الى خالتها ان تصلي عنها ايضاً ثم اتخذت الرداء كما كانت ومشت وهي تتوسل الى الله من اعماق قلبها ان ينجيها من هذه التجربة — ولا يرتاح المرء في مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل فلا غرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت ان تكون تلك الغرفة على مسافة اميال منها . على انها تشجعت باتكالها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات واذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها وقد خيل له ان مجرد ابتسامه يجعلها طوع ارادته وانه بمجرد ما يظهر ارتياحه لمجالستها تستهلك هي في ارضائه

الفصل الحادي عشر

العفة

اما هي فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها والغضب والخوف يتجليان في وجهها . وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه فقالت وامارات الحشمة والرزانة بادية في محياها « لا يليق بمثلي ان يجلس في حضرة الملك . . »

فقال وهو يضحك « اجلسي يافلورندا فاني لم ادعك اليَّ لاحملك مشاق التجمل ولكنني اردت ان الاقيك وانت في راحة وسعادة . . . اجلسي »

قالت « العفو يامولاي . . . »

فقطع كلامها وامسكها بيدها واجلسها فاحست لما لمست يدها يده كان شيطانًا يلمسها فاجفلت وجذبت يدها من يده وجلست وهي تحاذر ان يلمس ثوبها ثوبه فاحس رودريك باجتذاب يدها وقد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هي به . وشق عليه ما بدا من نفرتها ولكنه حمل ذلك منها محمل الحياء فابتسم وقال « لا الومك يافلورندا لما يبدو في وجهك من البغتة لانك تهيبين من موقفك بين يدي ملك الاسبان وهي اول مرة وقفت بها بين يديه ولكن اعلمي ياملكة الجمال اني لم آت اليك بنفسي الا لادعوك الى السعادة ولا اريد ان تخاطبيني كما تخاطبين الملك بل خاطبيني كما تخاطبين رجلاً يحبك ويهواك ويريد ان يجعلك اسعد فتاة في هذا العالم »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت قصده ولكنها أحبت التخلص منه بالحسنى فوقفت وهي تقول « حاشا لمثلي ان تكون غير خادمة حقيرة بين يدي ملك الاسبان الذي يتمثل الناس بشدة بطشه . . . »

فقطع كلامها وقال « وما يمنع ان تكوني حبيبتي ايضًا . . بل تكونين مولاتي ومالكة زمامي وزمام مملكتي . . . » قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناهُ ورجفت شفتاهُ وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه

فقالت « كلاَّ يا مولاي . . . لايمكن ان اكون كذلك . . . وارى جلالة الملك

قد فرّط بما توفق اليه في دنياه فان هذا الموقف لا يليق بمثلي ..»

فظنها لاتصدق عظم محبته لها وانها تخاف ان يكون عاملاً على مخادعتها فوقف هو ايضًا وقال «يظهر لي انك لم تصدقي قولي .... ويحق لك ان تستغربي ما يبدو من تفريطي .. ولكنني اعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبي وروحي وتسلطت على كل جوارحي فتعطفي عليّ وتلطفي بالقبول ..» قال ذلك وهو ينظر اليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج

اما هي فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فظلت على هدوها وثبات جاشها وقالت بصوت هادىء «اقبلُ بماذا ..؟»

فتوسم من سؤالها قرب قبولها فقال «بان تكوني شريكة حياتي فتعيشين معي عيش السعادة والرفاه وتكونين انت الآمرة الناهية ..»

فنظرت اليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت «وجلالة الملكة ؟»

وكانت تلك العبارة اشدّ وقعًا من الصاعقة على راسه ولم يكن يتوقع تلك الانفة من فلورندا لانه لم يكن يعرف قيمة العفة ولا يدرك قوة الحرية الشخصية. ولذلك كان يظن نفسهُ اذا ابتسم لفلورندا ابتسامة ترامت عند قدميه وسلمت نفسها له . وقد فاته ان العفة اثمن ما في خزائن الملوك واسمى ما على عروشهم وارقى ما تبلغ اليه مدنيتهم — بل هي سيف قاطع تقف به الفتاة امام الملوك وتحسب انها اقوى منهم سلطانًا واعز شانًا . ولذلك كان موقف فلورندا بين يدي رودريك موقف الملك امام الملك. ولم يكن تواضعها في اول الامر الاّ رغبة في التخلص بالحسنى فلما رأت استرسالهُ في القول اجابتهُ بكلمة اضطربت لها كل جوارحه — كلمة ذكرتهُ بارتباطه مع زوجته الرباط المقدس الذي لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك

اما هو فساءه ان تخجلهُ بتلك العبارة لما تتضمنهُ من معاني التوبيخ والتعنيف ولكنهُ تجاهل مرادها وظلّ على اسلوبه بالملاطفة فقال «يا للعجب من جهالتك وغرورك ..! ادعوك الى السعادة والشرف واسهّل لك الطريق اليهما وانت تقيمين العقبات في طريقك.. ألا تعلمين يا فلورندا ان الامر الذي ادعوك اليه ليس في هذه المملكة ولا في غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ... تعقلي وارجعي الى رشدك واعلمي انك ترفضين سعادة لا ينالها الاّ نفر قليلون من خيرة الانام وشرفًا تتطاول اليه اعناق ربات الحجال. وهل تجهلين انك اذا اطعتني تنالين عزًّا لم يحلم به احد من اهلك وانك اذا ظللت على

غيك اسأت الى ابيك لانني اذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من اقرب المقربين من البلاط . . »

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب واحست بسلطان لها يفوق سلطانه فخاطبته بما لا يخاطب به الملوك وقالت وهي تشير باصبعها الى نفسها « ترعم يا رودريك انك تدعوني الى السعادة والشرف وانت انما تدعوني الى الشقاء والدناءة . وبخاطبتك اياي بهذا النزول وانواع التهديد اهنتني واستصغرتني بل انت بمجرد توهمك قبولي بذلك جعلتني ادنى خلق الله ويكفي توهمك فيَّ هذا الامر ان تامر برجمي . . . فاقلع عن ذلك ودعني وشاني فانك صاحب عرش وسلطان ولك الرقاب والاموال . واما انا فليس لي الا هذه الجوهرة افتسلبني اياها . . . ؟ وهل تظن انك اذا اردت ذلك تستطيعه . » وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة « كلا لا يستطيع احد ان يسلبني هذه الجوهرة فانها اثمن من خزائن العالم باسره . . وهي سلاحي وترسي ودرعي وهي سبيلي الى السعادة الابدية »

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته في صدره ولكن هيبة الحق وسلطان الدليل غلبا على غضبه فلم يجسر على اهانتها . على انه ما زال راجيًا قبولها فاراد مصالحتها بالكلام بان يخلط الجد بالهزل فقال « وهل ذلك العلام احق بك مني ؟ »

فلم تزدها قوله الا عزيمة وثباتًا وقد ادركت انه يريد الحط من قدر التونس فقالت « مهما يكن من امره فانه نصيبي في هذا العالم وهو خطيبي بشرع الله »

فازداد استغرابًا لجسارتها وحدثته نفسه ان يجفيها ويستخدم القسوة في معاملتها ولكنه اجل ذلك الى فراغ جعبة حيله من اقناعها بالملاطفة فقال لها « يظهر يا فلوريدا ان صغر سنك لا يزال غالبًا على عقلك . ولولا ذلك لم تفضلي غلامًا لا شأن له ولا مقام على ملك ملوك الاسبان . ولكنني اعذرك على طياشتك وابيح لك التفكر في امرك حتى ترجعي الى صوابك ولا ترفضي النعمة التي ابذلها لك . فلا تضيعي هذه الفرصة بما تتمسكين به من الاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة . . . وهذا آخر ما ابذله لك من النصيحة . . . فتدبري امرك » . فلما رأت التوبيخ لم يجد معه نفعًا عمدت الى اقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة « يقول جلالة الملك اني اتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة فما قوله اذا علم ان جلالة الملكة تراود شابًا عن نفسه وتطلب اليه أن يعيش معها و يكون شريك حياتها . . . ؟ »

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما في ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه ولاح له أن يستخدم العنف في اقناعها وهمّ أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوي عن تمسكها بالفونس — لانه ظنها لم ترفض طلبه الاّ لاغترارها بالفونس وتوهمها فيه القوة أو الثروة. وما زال يعتقد انها اذا تحققت فقر الفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفءة الراجحة فلا ترى أفضل لها من ملك الاسبان — وإنما توهم رودريك ذلك لانه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى ان القلبين اذا تعاقدا كانت السعادة كلها في ذلك التعاقد ولا دخل للغنى أو الشرف في أسباب تلك السعادة. وتوهم رودريك أيضًا انه اذا حقر الفونس في عيني فلورندا يزهدها فيه . فجاءها من هذا الباب وسكت عما سألته عنه من حيث امرأته فقال « ألا تعلمين يا فلورندا ان الفونس من بعض أتباعي وان زمامه في يدي افعل به ما شئت . . ؟ يظهر انكِ لا تعلمين ذلك . . ولعلكِ لا تزالين على ما كنتِ تعلمينه قبل خروج الملك من يده . . . »

الفصل الثاني عشر

الصلاة الحارّة

فلم يكن ذلك الطعن في الفونس الاّ ليزيدها تمسكًا به واستهلاكًا في محبته — والمحبة الطاهرة تزداد شدة بما تلاقيه من المقاومة كما تزداد الحرارة بالفرك . ولكن ساءها أن يكون لهذا الظالم سبيل الى هذا الكلام وخافت اذا أجابته جوابًا عنيفًا أن يغضب على الفونس ويعمل على أذيته . فأحبت أن تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت « اذا صحّ ان الانسان لا يجب أن يحب غير الذي يكسبه مالاً أو شرفًا فما الذي حبب جلالة الملك بهذه الفتاة الحقيرة حتى أراد أن يجعلها سيدة أهل قصره كافةً . واذا كانت القاعدة أن نهمل الفقراء وأن لا نحبهم فما أجدر مولاي الملك بأن يرذلني ويطردني من حضرته لاني لا أحدث شيئًا بجانب سلطانه ورفعة مقامه . . . فأرجو من مولاي أن يفعل ذلك فانه أولى بمصه وأحفظ لكرامته . . . » قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف .

ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين أناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك

أما هو فلما تبين رباطة جأشها وقوّة حجتها رأى أن يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى ما بعد فراغهِ من الحيل . وذلك انهُ نظرًا لما آنس من تمسكها بالعوس وتعلقها بهِ تبادر الى ذهنهِ أن ابعادهُ عنها يغيرها ويحملها على القبول بسواه . فتظاهر بأمرٍ طرأ على خاطرهِ بغتةً فقال « لا أزال أعتقد اغترارك بالوهم وقد طرأ عليَّ أمرٌ يستعجلني الى القصر الآن وما ذلك الاَّ من حسن حظك لاني تركت لكِ فرصةً تعملين الفكرة فيها لعلكِ ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعي بعد هذه الفرصة فلا تلومي الاَّ نفسك » قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلوريندا وحدها

أما هي فقد سرَّها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا الى النجاة . فلما خرج رودريك من الغرفة مشت نحو غرفتها وقد فاضت أشجانها وعاد اليها الخوف وتزايد اضطرابها . فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت سائرة حتى أقبلت على أيقونة المسيح فجثت امامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات وتحوّل تجلدها ورباطة جأشها بين يدي رودريك الى الحزن والكآبة ولم ترَ لها فرجًا بغير البكاء — كذلك يكون العمل المنعكس — فجعلت تتضرَّع الى صاحب تلك الايقونة بدموعٍ حارَّة وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى

فلما رأتها العجوز جاثية جثت هي الى جانبها وصلت معها وكلما قالت فلوريندا عبارة أمَّنت العجوز لها . وكان في جملة صلاتها قولها « ابعد عني أيها المخلص هذه التجربة وغير قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الامر الذي هو عازم على ارتكابهِ . . . ارشدني يا رب الى سبيلٍ أنجو بهِ من هذه الاشراك . . . واحفظ عبدك الفونس من كل شرٍ واحرسهُ وكن معهُ . . . واجمعنا أيها المخلص لنعيش معًا بتقوى الله ومرضاتهِ . . . تحنن على هذه المسكينة الغريبة . . . هذه الفتاة التعيسة التي ليس لها ملجأ سواك . . انت ملجأُ البائسين والضعفاء . . . . لا تسمح يا رب وقوع هذا الشرّ في تذكار ميلادك المجيد . . . . »

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها وخالتها تقول « آمين » وكلاهما تذرفان الدموع السخينة

فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ووجدت فلوريندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها وشعرت كأن الاخطار قد زالت عنها وقد ألقت متاعبها على الله — ومثل هذه راحة

لا يشعر بها غير أهل الايمان الوطيد . فان أحدهم اذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر واذهب آثارها بالصلاة . والبكاء من أقوى مذهبات الانقباض . فكثيرًا ما يشعر الانسان بضيق فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور في النساء اكثرمما في الرجال

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكر في سبيل نجاتها واستغرقت في الافكار والعجوز جالسة القرفصاء تنتظر ما يبدو منها

الفصل الثالث عشر

يعقوب

فلنترك فلورندا في تأملاتها ولنرجع الى الفونس لنرى ما كان من أمره بعد ذهابه الى منزله ولم يكن منزلهُ بعيدًا عن قصر الملك . فلما وصل باب المنزل ترجل وسلم الجواد الى بعض الخدم وهمّ بالدخول فأحسّ بشيء استوقفهُ فوقف لحظة ثم دخل حتى أتى غرفتهُ فرأى خادمهُ الخصوصي واقفًا ببابها ينتظر قدومهُ ليبلغ أوامرهُ الى من يريد

وكان ذلك الخادم كهلاً قصير القامة جاحظ العينين أعقف الانف بارز الذقن . لحيتهُ قصيرة منفصلة الى شعبتين مخروطتي الشكل بارزتين نحو الامام طرفاها رأسا المخروط وقد دبّ الشيب في ذينك الرأسين ولا تزال اصل اللحية عند الذقن سوداء أو هي كستنائية اللون . وكان اسمهُ يعقوب ولم يكن لهُ عناية في تسريح شعره فكان الاهمال ظاهرًا في لحيتهِ حتى لقد تحسبها جزازة نعجة تلبد صوفها وتشبك ثم نسلت اطرافها . على ان وجه الرجل كان على الاجمال مضحكًا لبروز الانف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجههُ ضاحكًا . وكان قد ربيَ في بيت غيطشة قبل تملكهِ فلما ملك قرّبهُ منهُ وكان يثق بهِ ويعهد اليهِ بأموره ويسرّ اليهِ كثيرًا من آرائهِ . واهل القصر يحسدون يعقوب على ذلك التقرب وخصوصًا لانهُ غير قوطي . ولم يكونوا يعرفون أصلهُ ولا كيفية وصولهِ الى ذلك المنصب وقد تجهلوا من أمره

أما غيطشة فقد كان يحبهُ ويقرّبهُ ولما دنى أجلهُ أوصى أولادهُ بهِ واوصاهُ بهم

وخصوصًا الفونس فقد أوصاهُ بالاعتماد على يعقوب بكل مهامهِ . وكان الفونس قد تعوَّد على احترامهِ والوثوق بهِ من عهد والده و يعقوب يستهلك في خدمتهِ . وقد لا يظهر لمن يراهُ لاول وهلة انهُ ذو رأي أو همة لما يبدو في وجههِ من ملامح المجون مع خفة الروح ولكنهُ كان في مقام الجد من اكثر الناس جدًّا وهمةً

فلما وصل الفونس الى غرفتهِ استقبلهُ يعقوب ضاحكًا وفتح لهُ باب الغرفة فدخل الفونس ولم يكلمهُ على خلاف عادتهِ من ممازحتهِ ومداعبتهِ . فادرك يعقوب انهُ في شاغل هام فوقف لا يخاطبهُ في شيء لئلاَّ يعترض مجاري أفكاره او يثقل كلامهُ عليهِ

أما الفونس فأول شيء فعلهُ عند دخولهِ الغرفة انهُ خلع قبعتهُ عن رأسهِ ونزع سيفهُ وعلقهُ بالحائط وجلس على كرسي من الخشب بجانب نافذة تطلُّ على مغارس طليطلة عن بعد وأرسل بصره في ذلك الفضاء والنهار لا يزال صاحيًا والجو صافيًا . لبث برهة لا يتكلم ثم التفت بغتةً وصاح « يعقوب » فاذا هو بين يديهِ . فقال لهُ « هل جاء عمي الى هنا في أثناء غيابي .. ؟ »

قال « كلاَّ يا مولاي انهُ لم يأت .. ألم تجدهُ في الكنيسة .. ؟ »

فتذكر الفونس الصلاة فتبادر الى ذهنهِ ان عمهُ كان في جملة المصلين لانهُ مطران (متروبوليت) ولكنهُ عاد فتذكر انهُ بالنظر لما بين عائلتهِ و بين الملك من التباعد ربما سار للصلاة في كنيسة اخرى . فقال ليعقوب « أتظنهُ سار الى الكنيسة ولماذا لم تذهب أنت للصلاة ايضًا .. ؟ »

قال « كنت مشتغلاً بامور البيت ... وقد صليت هنا ... الا يكفي ذلك ؟ .. »

قال الفونس وكانهُ تذكر امرًا كان قد ذهب عن خاطره « سامحني فاني نسيت وصية والدي ان لا اسألك عن الصلاة ... ما رايك بعمي المطران اني في حاجة اليهِ .. »

قال « قل وانا استقدمهُ على عجل ولو كان في رومية ... » قال ذلك وتبسم فادرك الفونس انهُ يلمح الى ما بينهم و بين رومية من التنافر ... فاستحسن منهُ هذا المجون وقال لهُ « لا اظنهُ بعيدًا بهذا المقدار ... اليَّ بهِ »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادمًا يفتش عن المطران في الكنيسة وآخر يفتش عنهُ في بيتهِ وآخر في مكان اخر من مظانهِ ورجع وهو في شاغل من امر الفونس ولكنهُ لم يتجاسر على استطلاع امره . فلما وصل الغرفة اخبر الفونس بما فعلهُ وظلَّ واقفًا وهو يلاعب اطراف لحيتهِ بين اصابعهِ و ينتظر امره . فلم ينتبه الفونس لهُ لاستغراقهِ في

هواجسهِ وقد تزاحمت الافكار في مخيلتهِ وأكثرها بروزًا امر الملك وكيف استبد رودريك فيهِ واستخف بهِ . وكيف انهُ بعد ان كان مطمح انظار وجهاء المملكة اصبح مثل أحقرهم ... وفكر في الوسيلة لاستخراج الملك منهُ فاذا هو قاصر من كل وجه لا مال عندهُ ولا رجال ولا شيء يقاوم بهِ . ثم تذكر فلورندا وانهُ عاهدها على اخراج الملك من رودريك فكيف يرجع عن عهدهِ عاجزًا مقهورًا . فتجسم لديهِ المصاب وثقل عليهِ الفشل وندم على ما فرط منهُ بين يدي حبيبتهِ من القسم . فضاق صدره وصغرت نفسهُ وغلب عليهِ اليأْس فتناثرت الدموع من عينيهِ بالرغم عنهُ — والدمع يفرج الكرب حيث لا يرى المرءُ مخرجًا من ضيقهِ

وكان يعقوب لا يزال واقفًا فسمع تنهد الفونس ثم لحظ من بعض الحركات انهُ يبكي . فأدرك انهُ يفعل ذلك وهو يحسب نفسهُ في خلوة فانسلَّ ولم يشعر بهِ الفونس حتى جلس على كرسيهِ بجانب الباب وقد اشتغل خاطرهُ بالفونس فعوَّل على استطلاع حالهِ من المطران بعد مجيئهِ وقد كانت لهُ عليهِ دالة كبرى

الفصل الرابع عشر

المطران اوباس

ولم تمض برهة حتى عاد أحد الرسل وانبأ يعقوب بقدوم المطران فتذرع بذلك لمخاطبة الفونس فدخل عليهِ واخبره بقدوم عمهِ . وكان الفونس قد فرغ من بكائهِ وذهب بعض انقباضهِ فلما علم بقدوم عمهِ لم يتمالك عن الابتسام لشدة ما كان لهُ من الثقة فيهِ لاشتهاره بسداد الرأْي والتعقل مع محبتهِ لالفونس

وكان اسمهُ أُوباس (عباس) وهو طبعًا مثل الفونس يعتبر رودريك مختلسًا وكان قد بذل جهدهُ في عدم انتخابهِ فلم يفلح لان حزب الاساقفة الرومانيين غلب على رأْيهِ ولانهُ هو المطران الوحيد من أمة القوط وسائر أساقفة طليطلة من الرومان أو الذين ينتمون لرومية . ولذلك غلب رأْيهم على رأْيهِ وكان أُوباس منذ تولى رودريك معتزلاً الاعمال الا عند الضرورة وكان في ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد في منزلهِ وخرج بعد

الصلاة الجلوس في حديقة المنزل لانه لم يكن يطيق ان يرى رودريك في ذلك الموكب بدلاً من ابن أخيهِ . فلما جاءه الرسول يدعوه الى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعاً

وكان أوباس عضلي المزاج طويل القامة طويل الاطراف عريض المنكبين عريض الجبهة بارز الوجنتين والفكين واسع الصدر أسمر اللون اسود الشعر غزيره . وخصوصاً شعر لحيتهِ فقد كان مرسلاً على صدره الى اسفل منطقتهِ وأصحاب هذا المزاج في الغالب قويو الارادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهيبة . وهم كبار في كل شيء أما في الحرب او في التجارة او في السياسة او في أي شيء تعاطوه [1] فهم يمتازون غالبًا عن أصحاب الامزجة الاخرى ويفوقونهم في كل شيء . وكان اوباس مع ذلك بطيء الخطوات كثير التفكر قليل الكلام جهوري الصوت وكان قولهُ سديدًا ورأيهُ صائبًا

ولم تمض برهة حتى سمع الفونس خطوات عمهِ وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقبالهِ فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليهِ وقبل يده فباركهُ ثم تقدم يعقوب فقبل يده فباركهُ وهو يبتسم لهُ وكان اوباس قلما يبتسم لاحد

دخل اوباس الغرفة مع الفونس فاسرع الفونس للحال واغلق الباب التماسًا للخلوة نزع المطران قلنسوتهُ فاسترسل شعر رأسهِ على كتفيهِ وكان غزيرًا جدًّا ولم يخطهُ الشيب مع انهُ في نحو الخمسين من عمرهِ . ونظر اوباس في وجه الفونس فرآه يبتسم ولكنهُ تبين الدمع في عينيهِ وأثر الانقباض في اسرتهِ فاثر منظرهُ في نفسهِ فقال لهُ « مالي أراك كاسف البال يا بنيّ . ؟ »

فلم يتمالك الفونس عن ارسال دمعتين أُخريين وهو لا يزال مبتسماً ولكنهُ تجلد وقد ارتاح برؤية عمهِ فقال « لا اظنني أشكو اليك أمرًا لا تعرفهُ . . . بل أظنك تشكو مثل شكواي أيضًا . . . »

فقال « فهمت مرادك يا ولدي . . . ولكن الامر الذي تشكو منهُ قد اصبح قديمًا فلا بد من أمر حدث لك وجدد احزانك »

قال « صدقت يا عماه . . . واما ما جدد أحزاني فوقوفي بين يدي ذلك الوحش الكاسر في هذا الصباح وقفة خادم بين يدي سيده . . . وقفت وقد استصغرت نفسي حتى حسبتني ذرة حياء ولو طال وقوفي لا أدري ماذا كان يصيبني . . ولما خرجت من القصر

(١) علم الفراسة الحديث

رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمروري بعد ان كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدي ‥ »

فقال اوباس « وما الذي دعا الى وقوفك هذا الموقف وعهدي برودريك قلما يدعوك اليه ‥ »

فقال « لاني تأخرت عن موكبهِ في هذا الصباح فلم أدركهُ الاَّ وهو راجع من الكنيسة ‥‥ »

قال « ما كان أغناك عن هذا التاخير فلم تكن تسمع تعنيفًا ولا تتحمل ملامًا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً ‥ وما الذي أخرك عن الاحتفال ؟ ‥ »

فلم يخجل الفونس ان يقص على عمهِ سبب تاخرهِ لان عمهُ مطلع على ما بينهُ وبين فلورندا من المحبة المتبادلة وهو الذي وضع عربون الخطبة بينهما فقال لهُ « سبب تاخري اني زرت فلورندا في هذا الصباح بعد ان طال غيابي عنها وانت تعلم انقطاعي عن ذلك القصر وضواحيهِ منذ ابتليت بمصيبة ابي . وكنت احسب فلورندا تغيرت فزرتها لاتحقق امرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب فلم انتبه الاَّ وهم عائدون من الكنيسة فاسرعت للانضمام اليهم . ولم اكن اظن الملك يراقب حركاتي الى هذا الحد . فلما دخلت عليهِ استبقاني لبعد خروج المهنئين وعنفني تعنيفًا لم يكن شديدًا بحد ذاتهِ ولكنهُ وقع على رأسي وقوع الصاعقة ‥‥ »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعهِ ‥ فلم يبال اوباس بدموع الفونس لاستصغاره مثل هذه الظواهر — ظواهر الضعف البشري — فظل ساكتًا لاستتمام الحديث . اما الفونس فلما رأى عمهُ لا يزال مصغيًا لهُ استطرد الكلام فقال « ومما زاد قهري ان ذلك القسيس الهرم كان يحاول ايقاعي في الشرك حتى نبه رودريك الى علاقتي بفلورندا ‥‥ وكنت اقرأ سوء القصد من خلال عينيهِ الغائرتين ومن وراء الفاظهِ المختلطة ‥‥‥ »

قال « اراك يا الفونس متهيج العواطف كثيرًا ولا فائدة من ذلك ‥ ولا عبرة بلفظ تسمعهُ او اشارة تراها فانها حركات طائرة بالهواء وما هي من الحقيقة في شيء ‥ فخفف عنك وارجع الى صوابك وابحث في الامر بحثًا معقولاً ‥‥ »

الفصل الخامس عشر

رباطة الجأش

فتعجب الفونس لقول عمو وشعر بصغر نفسو وضعفو ولكنة لم يستطع امتلاك عواطفو فقال « كيف لا نعبأ بالاقوال . . . . كيف استطيع الصبر على الاهانة والاحتقار . . ؟ أترضى ياعماه ان نكون ارقاء لذلك المختلس . . . » قال ذلك والحدة بادية في صوتو

فاجابة اوباس بصوت هادىء « لا »

فقال « فكيف نقبل بهذه المعاملة ونقول انها حركات طائرة في الفضاء . . . . انني لا استطيع الصبر على ذلك . . . وإن الموت خيرٌ من الحياة مع هذه الاهانة »

فقال اوباس « لا اقول ان الاهانة حركات في الهواء ولكني أرى الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية اشبه بحركات طائرة في الهواء لا فائدة منها . . . »

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنهُ ما زال مندفعًا بتيار العواطف فقال « أتلومني يا عماهُ على غضبي وقد قتلوا أبي واختلسوا ملكي ثم ضيقوا عليَّ في ذهابي ومجيئي كأني بعض عبيدهم . . ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك . . ؟ »

قال وصوتهُ لم يرتفع « اريد أن تنظر في الامر بعين العقل وبالروية لان الحدة تذهب الرشد وتسوق الى الخطأ . . . وربما يخيل اليك اذا رأيت هدوئي وصبري اني اقلُّ منك استنكافًا من أحوال هؤلاء . ولكنني افكر كثيرًا واقول قليلاً . وسترى متى سكن جاشك ودار الحديث بيننا انني قضيت العامين الماضيين وانا أسعى في الامر الذي لم يخطر ببالك الاَّ اليوم . . . وانت انما ذكرتهُ على أثر انفعالك وغضبك بعد أن لاقيت خطيبتك وعنفتك على ضعفك . . . واما أنا فاني لا أندفع بالغضب ولا أغضب للكلام الفارغ ولكنني أنظر بعين الحقيقة . فقد كنت أتوقع منك هذه الحمية في أول يوم خرج فيهِ هذا الملك من يدك بقطع النظر عما قد يلحق بك من الاهانة أو ما قد تسمعهُ من التعريض أو التوبيخ . . . »

فلما سمع الفونس كلام عمهِ تهيب وانتبه لما آنسهُ فيهِ من الرزانة والجد وقوة العزيمة وشعر بصغر نفسهِ لما تحملهُ من الضغط في السنتين الماضيتين ولم يشك ضغطًا . فأراد أن يصلح ما بدر منهُ من دلائل الضعف فتحمس وقال « لقد أصبت يا عماه اني تهاونت في هذا الامر ولم اكن أحسبك على هذا العزم اما الآن فأشر عليَّ ... أشر عليَّ بالذي أفعلهُ لاسترجاع ما اختلسهُ هذا الرجل منا ... »

وكان اوباس منذ شرع في هذا الحديث قد أخذت علامات الانقباض تبدو في محياه فازداد هيبة وجلالاً واستغرق في الافكار وقد أرسل بصرهُ من النافذة الى الفضاء. والناظر الى وجههِ يتبين استغراقهُ في الهواجس من ثبات بصرهِ على لا شيء كأنهُ ينظر الى صوَر تمثلت في مخيلتهِ وفيها المخيف والمغضب والمفرح والمنشط . وكانت أظلال تلك العواطف تتجلى في عينيهِ البراقتين . ولو أحسن الفونس الفراسة لقرأ أفكار عمهِ في عينيهِ وأسرتهِ وكفى نفسهُ مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنهُ لم يكن على شيء من ذلك فلما فرغ من كلامهِ صبر لسماع ما يقولهُ عمهُ . فاذا هو مازال غارقًا في الهواجس وهو يلاعب أطراف جدائل شعرهِ بأناملهِ كأنهُ لم يسمع شيئًا من ابن أخيهِ . فتهيب الفونس من منظرهِ ولم يجسر على أن يشوش عليهِ مجاري افكارهِ فظلَّ صامتًا

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح اوباس الحديث فقال « هل ادركت يا الفونس المشروع العظيم الذي تعرض نفسك لهُ وما هو الامر الذي تطمح انظارك اليهِ .. ؟ »

قال « كيف لا .. ؟ اني ألتمس أمرًا هو حقٌّ لي لا ينازعني فيهِ أحد .. »

قال « فهمتُ ذلك ... ولكن هل دبرت الطريقة التي تستطيع التغلب بها للقبض على أزمة الاحكام ... ؟ »

قال « اعرض لديك رأيي وأنت صاحب الرأي »

قال « قل »



الفصل السادس عشر

فلسفة التاريخ

قال « لا يخفى على عمي العزيز ان القوة التي ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك انما هم الرومان وخصوصًا الاساقفة . واما رجال القوط أهلنا وأهل عشيرتنا فانهم لا يريدونهُ وهؤلاء جماعة كبيرة اذا اتحدوا هم ورجالهم واتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب على جند رودريك . فلا يصعب علينا اذ ذاك اخراج الحكم من يده — اما بالتنازل واما بالقتال ... »

فابتسم اوباس ابتسامة اغتصابية دلت على استخفافهِ برأي ذلك الشاب قليل الاختبار ثم قال « صدقت ياولدي ان القوط اكثرهم على دعوتنا ولكن هل تظنهم اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ... ؟ لا أظن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم وهم يخافون على أرواحهم واموالهم . على ان اكثرهم لا يرون بأسًا من بقاء رودريك وغيرهِ من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم في المذهب . فانهم جميعًا تابعون لكنيسة رومية وقد تغلب الاساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم ... حتى نسوا جنسيتهم ... »

وكان اوباس يتكلم بصوت هادىء وتأنٍ ولم يبد الهياج في عينيهِ الاَّ لما وصل الى هذا القول على ان الرزانة ظلت غالبة على حركاتهِ . ولكنهُ سكت هنيهة والفونس ينظر اليهِ ويتوقع اتمام الحديث فقال اوباس وهو يجدل شعر لحيتهِ بين أناملهِ على سبيل التشاغل « سامح الله ريكارد .. فانهُ هو الذي جرَّ علينا هذا البلاء »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الملام لان ريكارد ملكٌ من ملوك القوط حكم اسبانيا زمنًا طويلاً في اواخر القرن السادس للميلاد وكان من رجال الحرب والسياسة فقال الفونس « ما الذي ارتكبهُ ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام والذي أعلمهُ انهُ هو الذي حفظ لنا مملكة الاسبان ودفع الافرنج عنها (الفرنك) .. » (1)

قال « صدقت يا ولدي انهُ نجانا من الفرنك ولكنهُ ألقانا في ما هو أعظم خطرًا منهم ... »

---

(1) رومي ج ٢

قال « وما هو ذاك . . »

قال « ألا تعرفهُ . . . ؟ ألا تعرف ان ريكارد هو الذي أضاع جنسيتنا . . . وحلّ جامعتنا . . »

فلم يفهم الفونس مراده فقال « كلاّ يا مولاي اني لا أعرف ذلك . ما هو ؟ »

قال « ألا تدري يا الفونس ان ريكارد هو الذي جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة اسبانيا . . »

قال « نعم . . . ألا تظنهُ فعل حسنًا . . ؟ »

قال « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضًا وقد ربينا في حبها ولا بأس منها ولكنني أنظر في الامر من وجههِ السياسي . . . انظر فيهِ من حيث جامعتنا القومية . . . جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون . وكانت هذه البلاد في حوزة الرومان فاستخرجوها من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك ان مذهب اسلافنا الذي جاؤُا بهِ الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية بل هو المذهب الاريوسي نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية [1]. ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مئتي سنة ونحن على مذهب آريوس وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية

« ولا اخفي عليك ان ملوكنا الاقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة . ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين فجعلوا يتداخلون في مصالح الدولة رويدًا رويدًا ويبثون مذهبهم في الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن . فاستولوا على عقلهِ حتى نبذ ديانة أجداده واعتنق المذهب الكاثوليكي وجعلهُ مذهب الحكومة الاسبانية فاقتدى بهِ رجال دولتهِ وسائر أشراف المملكة فتمّ النفوذ لرومية حتى أصبح مجمع الاساقفة الذي يجتمع في هذه المدينة يدير أزمة الملك كما يشاء . وربما أتوا بالاوامر من رومية نفسها . ولا تزال الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ولم يبق للاريوسية اثر الاّ قليلاً جدًّا . ولا ريب عندي ان الذين استبدلوا مذهبهم في أول الامر انما استبدلوه مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان لان مذهب اريوس أقرب الى احكام العقل من سائر مذاهب النصرانية . . . »

---

(1) جبن — تاريخ المملكة الرومانيه

فلما وصل اوباس الى هنا أحسّ بانهُ فرّط في الكلام بين يدي ذلك الغلام وقد تحقق تفريطهُ مما بدا في وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس في ذهنهِ منذ طفوليتهِ من تقبيح الاريوسية حتى كثيرًا ما سمع تقبيحها من عمهِ نفسهِ . وادرك اوباس ما جال في خاطر ابن أخيهِ فاستدرك قائلاً « لا يغرب عن ذهنك يا ولدي اني لا احبب اليك الاريوسية دون سواها . فاننا لا نفضل مذهبًا على مذهبنا الحالي ولكنني اخاطبك بلسان السياسة لا الدين لأبين لك نتائج الخطا الذي ارتكبهُ ريكارد سامحهُ الله لانهُ باعتناقهِ المذهب الكاثوليكي أضاع الجنسية القوطية — لان الدين يا عزيزي اثبت الجامعات واشملها . اذ قد يجتمع القوطي والفندالي والروماني واليوناني والسكسوني والعربي وغيرهم في بلد واحد وهم اخلاط فاذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الاصلية بتوالي الازمان وصاروا امة واحدة

« وهناك جامعة اخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب اعني بها جامعة اللغة . فهذه أيضًا شاملة ولكنها في الغالب تابعة للدين ... الا ترى اننا بعد ان اعتنقنا المذهب الكاثوليكي أصبحت اللغة اللاتينية هي المتغلبة في كنائسنا ومجالسنا لانها لغة ذلك المذهب واخذت لغتنا القوطية في الانقراض أو الضياع ... ؟ فلو ظللنا على الاريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها في الشعب وحوّلنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكي الى مذهبنا الاريوسي لكانت لغتهم لغتنا ومذهبهم مذهبنا وصاروا من أنصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الامر واصبح اولئك الرومان بعد ان أخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما اكتسبهُ الاساقفة الرومانيون من النفوذ في امور الدولة حتى لا ترى في اوربا كلها مجمعًا دينياً لهُ على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة هذا على حكومة اسبانيا [1]

« واول من أحس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك نيح الله نفسهُ فانهُ سعى في انقاذ حكومتهِ من نفوذ رومية حتى كاني سمعتهُ يصرح برغبتهِ في الخروج من مذهبها او سلطانها الكنائسي وكان معظم أساقفة اسبانيا ممن تثقف في رومية وتشرب حبها وحب اسقفها الاكبر فاكبروا غرض والدك وما زالوا حتى افسدوا أغراضهم التي اتحاشى التصريح بها لانها تؤلمني كما تؤلمك ونصبوا رودريك هذا وهو روماني الغرض وان ادعى انهُ قوطي الاصل .. ففعلوا ذلك افسادًا لما كان المرحوم والدك قد أسسهُ .... »

---

(١) كيزو — تاريخ تمدن اوروبا

الفصل السابع عشر

رأي اوباس

وكان الفونس يسمع هذا الكلام باصغاء وقد التذ بسماعهِ لذة عظيمة لما آنسهُ فيهِ من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطر لهُ من قبل فلما بلغ الى خروج الملك من أبيهِ لم يتمالك ان سأل قائلاً « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وإنما غيطشة أحياء ٠٠٠٠٠؟

قال « حجتهم في ذلك ان حق الملك عندنا انتخابي وليس ارثيًا [1] اذ لو كان ارثياً لكنت أنت اولى الناس بهذا الامر ٠ على ان كونهُ انتخابياً لا يقضي بحرمانك منهُ وكان يجب ان ينتخبوك لانك ابن الملك وقد فعلوا ذلك غير مرة ثم لولا ما ظهر في خلال انتخابهم رودريك هذا من الاغراض القومية التي مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا ٠٠٠ »

ثم استأنف اوباس الحديث كانهُ أفاق من غفلة وقال « أراني خرجت من دائرة الموضوع الاصلي — وخلاصة ما قدمتهُ لك ان الذين تعدُّهم قوطًا وترجو ان ينصروك في قيامك على هذا الرجل قد ضاعت جامعتهم الجنسية في الجامعة الدينية واللغوية فربما كانوا أقرب الى نصرة اولئك مما الينا فمثل هؤلاء لا يعتمد باقوالهم ولا يعتمد على أحزابهم ٠٠٠٠»

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب املهُ لانهُ انما كان يتوقع شد ازره باهل عشيرتهِ فلما تحقق ضياع املهِ احس بضعف عزيمتهِ وظلَّ مطرقًا لا يبدي حراكًا ولسان حالهِ يقول « عجزت عن الحيلة »

فلما رآهُ اوباس مطرقًا ادرك ضعف عزيمتهِ فاراد ان يسبر غورهُ فقال لهُ « كأنك يئست من النجاح ٠٠ ؟ »

قال « كيف لا ايأس وقد فرغت يدي من الرجال فضلاً عن فروغها من المال ولم يكتف هولاء باختلاس الملك فانهم اخرجوني منهُ صفر اليدين فهل تعلم الى اين ذهبوا باموال والدي ٠٠ ؟ »

قال « ان اموال والدك اخذت بحقٍ لان الملك رسبسوبت الذي تولى هذا

---

(١) رومي — تاريخ اسبانيا ج ٢

العرش منذ نحو ستين سنة سن" قانوناً يقضي برجوع اموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزينة المملكة [1] فلا ينبغي لنا ان نبالغ في القاء التبعة على عدونا بالباطل . . . اما السبيل الى بلوغ منانا فاذا كنت قد فرغت يدك من الحبل اخبرني لابدي رأيي وارجو ان يكون سديداً . . »

فاستغرب الفونس تنازل عمه بهذه العبارة واشار بيديه وعينيه ما قد يعجز عنه لسانه من تفويض كل الامر الى عمه لانه اكبر عقلاً واوسع اختباراً . فاصلح اوباس مجلسه استعداداً لحديث طويل والتفت الى ما حوله كانه يحاذر ان يسمعه احد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجه كلامه الى الفونس قائلاً « اعلم يا بني" ان الانسان اذا عزم على امر لا بد له من النظر في عواقبه قبل الاقدام عليه والا" كانت العاقبة وخيمة عليه — انت تعلم ان الناس في اسبانيا طبقات منها (١) طبقة الاشراف وهم ارباب الاموال والمناصب ومنهم حكام الولايات وحكام المدن واصحاب العقارات وغيرهم (٢) رجال الاكليروس (٣) طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة (٤) اهل الحرف وهم اواسط الناس من سكان المدن (٥) الخدم والعبيد وهم كل ما بقي من اهل المملكة . ولا يخفى عليك ان هؤلاء هم القسم الاكبر ومنهم حراث الحقول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب

« فاذا شئنا ان ننهض لاستخراج الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث في ايها اقرب الينا . فالاشراف اما رومانيو الاصل او قوطيون فالرومان طبعاً ضدنا . وقد بينت لك حال القوط فهم قد اضاعوا قوتهم في مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا منهم وكذلك اهل البلاط اما الاكليروس فانت تعلم انهم علة هذا التغيير . واهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطيلة في المدن قد اضاعوا الحماسة اللازمة في مثل هذه النهضة . وزد على ذلك ان كلاً منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع امواله القليلة . اذ لا يخفى عليك ان بلاد اوروبا كلها تقريباً مؤلفة من المدن والحقول . فاهل المدن لا يكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم [2] وكل مدينة تهتم بنفسها ونحن لا يكفينا القيام باهل مدينة واحدة لان رودريك صاحب جند واعوان يستنجد علينا حكامه في الولايات فنذهب ضياعاً

« بقي علينا النظر في الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهي طبقة الخدم والعبيد

---

(١) رومي (٢) موتسكيو

فهؤلاء هم الجانب الاكبر ولا تستغني عنهم سائر الطبقات · ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبداداً عظيماً · ولا يخفى عليك ان معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا في الرق على اثر الحروب وهم رجال اشداء وخصوصاً بعد ان تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم في الحقول فان عقارات الاشراف وبيوتهم واموالهم كلها في قبضة هؤلاء العبيد · ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من اسيادهم عذاب الذل — وناهيك بعذاب الرق — وانت تعلم ان هؤلاء الارقاء لا ينقصون عن اسيادهم شيئاً من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من اسواطهم حتى اصبحوا اطوع لهم من ظلهم · فكل ما للعبد فهو لسيده لا يقدر ان يعمل عملاً الاّ بامره حتى الزواج · وكل ما اكتسبهُ العبد بالقصد او بالاتفاق او بالتجارة او الحرب حتى الاولاد التي تولد لهُ فانها كلها لسيده · وله ان يبيع العبد او امتعتهُ او اولاده بدون معارض

« على ان اولئك الاسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافئة على عمل عظيم صدر منهم غير ان هذه الحرية قلما تتميز عن الاستبعاد فان المعتق لا يزال تحت امر سيده فان عمل عملاً فلسيده نصف ما يكسبهُ من ذلك العمل · وان اراد ان ينتقل من خدمته وجب عليهِ ان يرد لهُ كل ما معهُ من الاسلحة او الاثاث ولا يعدُّ ذلك المعتق من زمرة الاحرار الاصليين الاّ في الجيل الرابع من اولاده [1] — والخلاصة فاني لا اطيل الكلام عليك لانك تعلم كثيراً من افعال هؤلاء الارقاء ولكنك قلما فكرت في ما يقاسونهُ من الخسف والظلم وربما لم يخطر لك انهم من جبلة مثل جبلتنا ولا لوم عليك لانك شببت وانت تراهم على هذه الحال »

الفصل الثامن عشر

الوسيلة

فلما بلغ اوباس الى هنا وقف وتنحنح وتفرس في الفونس ليرى اثر اقواله فيه فرآه منصباً بكل جوارحهِ لسماع ما يقولهُ عمهُ فعاد اوباس الى حديثهِ فقال « فالامر الذي

(1) رومي

اوجه التفاتك اليه يا ولدي ان اقوى طبقات الشعب هم اولئك الارقاء المظلومين وهم اكثر عددًا واقوى ابدانًا واصبر على الشقاء فاذا اتخذناهم اعوانًا لنا في هذه النهضة قلبوا المملكة رأسًا على عقب · وقد لا نحتاج الاَّ الى تظاهرهم بالقيام لانهم اذا انحدوا ارعبوا الملك وحكامهُ واشراف مملكتهِ فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء — ولكن ما الذي يجمعهم او كيف يمكننا ان نجعلهم حزبًا لنا ...؟ »

وكان القونس يتطاول بعنقهِ لسماع حديث عمهِ وقد رأى الصواب باديًا في كل كلمة من كلماتهِ · فلما وقف اوباس عند هذا الاستفهام ارتبك القونس في الجواب لانهُ لم يكن يتوقع هذا السؤَال اما عمهُ فلم يطرح هذا السؤَال عليهِ لاستماع الجواب فقال « اعلم يابنيَّ ان الوسيلة التي يجب ان نتخذها لجمع كلمة هؤُلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما هي من أفضل الوسائل واشرفها بل هي فضيلة تبقي لنا ذكرًا مدى الدهور و يحسدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانهُ وتعالى — أتعلم ما هي ·· ؟ »

فلم يهتم القونس بالجواب هذه المرة لان ملامح عمهِ كانت تشير الى ان الجواب اتٍ ثم قال اوباس « ان الوسيلة يا بنيَّ لجمع كلمة هؤُلاء انما هي ان نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقاً بنيل حريتهِ بعد أجل معين واذا نال تلك الحرية كان كسائر احاد الاحرار دفعة واحدة لا يقاسمهُ أحد في اتعابهِ او مكاسبهِ على ان يكون ذلك مرتهنًا برجوع السلطان اليك ولك متى توليت عرش اسبانيا هوَّنت الاعتاق وسهلت الطرق اليهِ على كيفية ترغب اولئك المظلومين في نصرتك ·· »

فانسحر القونس بما سمعهُ من عمهِ واحسَّ بما بينهما من التفاوت في المدارك والقوى وخيل لهُ ان الامر قد تمَّ لهُ على ما يروم حتى اصبح كانهُ يرى زمام الملك ويهمُّ بالقبض عليهِ — ولم يكن القونس بليد العقل الاَّ بين يدي عمهِ لما لهُ من السلطان على عقلهِ ورأْيهِ · فلم يتمالك القونس ان تناثرت من عينيهِ دمعتان من دموع الفرح وعكف على يد عمهِ ليقبلها فاجتذب اوباس يده وهو لا تهزه عاطفة فرح ولا غضب ولكنهُ اصطنع ضحكة اغتصابية والقى يده على كتف القونس وقبض عليها بقوة عضلهِ فاحس القونس بشدة تلك القبضة وتوقع ان يسمع شيئًا بعدها فاذا باوباس يقول « رأيتك اقتنعت بما سمعتهُ ولم تعمل فكرتك للبحث في ما يحول دون عملنا هذا من الحواجز »

فاجفل الفونس وخاف ضياع آمالهِ بعد ان اوشك يعتقد بنيل بغيتهِ وفكر في ماذا عسى ان تكون تلك الحواجز التي قد تقف في سبيل ذلك المشروع . ولكنهُ قبل ان يهم بالجواب سمع عمهُ يقول « لا أظنك تجهل ما يحتاج اليهِ مشروعنا هذا من الاموال للانفاق على الجند وابتياع الاحزاب وانشاء المعاقل واغراء الاعداء . . . »

الفصل التاسع عشر

سرٌّ جديد

فلما سمع الفونس ذلك عاد الى اليأس لعلمهِ بخلوّ يديهِ ويدي عمهِ وسائر اهلهِ من مال يكفي لهذا العمل . واستغرب اغتراره برأي عمهِ الاول وتخيلهُ وصولهُ الى الغرض المقصود مع ان مسألة المال لم تكن لتخفى عليهِ وقد كان قبل هنيهة يشكو الى عمهِ خروجه بعد موت ابيهِ صفر اليدين . على انهُ انما اغترَّ بذلك لشدة اعتقاده بسداد رأي اوباس وقد نشأ هذا الاعتقاد فيهِ من طفوليتهِ لانهُ ما برح منذ كان يدبُّ ويزحف يرى عمهُ يأتي الى بيت ابيهِ بلباس الكهنة والكل يحترمون رأيهُ ويهابونهُ فشبَّ على استسلامهِ لهُ فاذا قال اوباس قولاً سلم هو بهِ واعتقد صوابهُ بلا روية ولا تبصر — كذلك كان شأنهُ معهُ في ما دار بينهما في ذلك اليوم . فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق انهم يتداولون عبثًا ولم يتمالك ان بدا اثر القنوط في وجههِ فظل ساكتًا وفي سكوتهِ ما يغني عن الجواب

أما اوباس فلما رأى ابن اخيهِ قد أُسقط في يدهِ وضاقت المذاهب عليهِ ابتسم ابتسامة اخرى وقال « هل يئست يا الفونس ؟ . . ما أسرع ما ترجو وما اسرع ما تقنط . . . لا تيأس يا بنيَّ اني لا ادع ثقتك العمياء في عمك تذهب هدرًا — اني لم اقض هذين العامين نائمًا . . . نعم اني اخاطبك على سبيل المداولة ولكنني بالحقيقة اعرض عليك مشروعًا رتبتهُ وسبرت اغواره ودبرت كل شؤونهِ ولولا ذلك لم ارض بالخوض فيهِ معك . . . . »

قال ذلك ونهض فنهض الفونس معهُ وهو لا يدري معنى ذلك النهوض ولكنهُ اصبح شديد الميل الى استطلاع تتمة المشروع واصبح فكره مضطربًا لا يصبر عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبرهُ عمهُ من الوسائل للحصول على المال . على انهُ لم يجسر على سؤالهِ

فظلّ صامتًا في انتظار الجواب . اما اوباس فانهُ تناول قلنسوتهُ فوضعها على رأسهِ فظنهُ الفونس يهم بالخروج . ثم ما لبث ان سمعهُ ينادي « يعقوب » وما عتم ان رأى يعقوب داخلاً يهرول ولحيتهُ وانفهُ يسابقانهِ حتى وقف بين يدي اوباس وفي وجههِ ابتسامة تدلُّ على ما في نفسهِ من الاطمئنان فلما دخل جلس اوباس واشار الى الفونس ان يجلس ففعل ثم قال ليعقوب « اجلس . . »

فأظهر يعقوب البغتة وقال « حاشا لي يا مولاي ان اجلس بين يديك او يدي سيدي (واشار الى الفونس) وانما يكفيني ان تأذن لي بالوقوف »

فضحك اوباس ويندران يضحك لغير يعقوب — ومد يدهُ اليهِ حتى امسك باحدى شعرتي لحيتهِ وشدهُ بلطف حتى اقعدهُ على طنفسة في ارض الغرفة ثم تظاهر بالاجفال وارجع يدهُ ومسح اطراف انامله بمنديلهِ وهو يقول « اسيء متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ؟ . . اما آن لك ان تغتسل . . ؟ »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدَّلت سحنتهُ بغتةً وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد في عينيهِ وقال « سيادتكم اعلم مني . . . ولكنني ارجو ان يكون ذلك قريبًا »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب وخصوصًا بعد ان رأى ذلك التغير في وجه يعقوب ولكنهُ صبر ليرى ما يبدو منهُ فسمع عمهُ يقول « وانا ارجو ذلك ايضًا . . . ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة فهل تدفعها . . . . »

قال « نعم اني لا اذخر مالاً ولا ولدًا ولا نفسًا في سبيل غسلها . . . . كما تعلم . . »

فلم يزدد الامر لدى الفونس الاَّ غموضًا وابهامًا ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ولا لتلك الالغاز مغزى وشقَّ عليهِ ان يتحوَّل موضوع المداولة من الجد الى الهزل وهو لا يعرف عمهُ يميل الى المزاح الاَّ قليلاً واكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب . فحمل كلامهما محمل المزاح وظل ساكتًا يتوقع العود الى الموضوع الاصلي

اما اوباس فقال « اني اعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لي ان اسعى في غسل لحيتك فهل انت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ . . »

قال « نعم يا سيدي وانت تعلم ذلك . . . »

قال « قد كنت اعلمهُ ولكن هل حدث تغيير او تبديل . . . »

قال « كلاَّ يا مولاي نحن على ما نحن عليهِ . . . . »

فأطرق اوباس مدة طويلة لا يتكلم واستغرق في الافكار كأنهُ يحلُّ معضلة او

يفكر في امر طرق ذهنهُ في تلك الساعة ثم وقف فوقف يعقوب والفونس فقال للاول « احب ان اراك الليلة في منزلي »

فأشار بيديهِ وعينيهِ وشفتيهِ ان « سمعًا وطاعة » وخرج واغلق الباب وراءهُ

الفصل العشرون

كتاب فلورندا

فتوقع الفونس بعد خروج يعقوب ان يسمع من عمهِ ما يزيل ذلك القلق عنهُ فلما رآه جلس جلس هو واصاخ بسمعهِ وهو ينظر اليهِ كأنهُ ينصت لما يقولهُ فسمعهُ يقول « طب نفسًا يا الفونس ان المال تحت يدي عند الطلب ولا بد من جلسة اخرى اشرح لك فيها التفاصيل وارتب الخطة التي يجب ان نسير عليها في هذا العمل الخطير »

فقال « ولكنني لم افهم علاقة ذلك بخادمنا هذا و بلحيتهِ »

قال « ستطلع على سرّ ذلك في هذه الليلة ان شاء الله . . هل تأتي معي منذ الآن الى منزلي فنتناول الطعام معًا ؟ . . لا بل الافضل ان تبقى هنا واسير انا وحدي لاخلو بنفسي وارسم الخطة التي يجب اتباعها في هذا المشروع » قال ذلك ونهض وتحوّل نحو الباب وهو يمشي الهوينا على عادتهِ والفونس يقتفي اثره ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعًا عليهِ ثم دخل يعقوب وفي يده كيس صغير من الحرير الارجواني مسطح الشكل كأن فيهِ كتابًا وقد عقد بشريط من الحرير الازرق . فلما رأى الفونس الكيس خفق قلبهُ لعلمهِ انهُ من فلورندا وكثيرًا ما كانت ترسل اليهِ الكتب فيهِ فاسرع الى الكيس وتناولهُ وسأل يعقوب عمن حملهُ اليهِ فقال « احد خدم القصر الملوكي »

وكان قد شرع في فضهِ قبل سماع الجواب فلما فتحهُ استخرج منهُ صفيحة من الخشب مربعة الشكل قد كسي سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرًا بقلم من حديد (وهي من جملة وسائل المكاتبة في تلك الايام قبل اختراع الورق باجيال) [1] فتناول الصفيحة وتحول نحو النافذة وقد نسي وداع عمهِ واخذ يتلوها بنفسهِ ولم يكد يصل الى

(١) الانسكلوبيديا البريطانية (مادة عراف)

آخرها حتى ارتعشت انامله وتغيرت سحنته · وكان اوباس لما رأى الكتاب توسم فيه شيئًا جديدًا فتغافل عن حركات الفونس ريثما يقرأ مكتوبه لكنه ما لبث ان رآه يقلب تلك الصفيحة ويعيد تلاوتها وهو يوجهها نحو النور الداخل من النافذة ويتفرس في الكتابة بعينيه كأنه يشك في قراءتها وقد امتقع لونه وارتعدت أنامله وبان الغضب في اسرته · فظل اوباس ينظر اليه ثم أغلق الباب ليخلو بالفونس ثانية · فشعر الفونس بحركة اغلاق الباب فانتبه ونظر فاذا عمه يمشي نحوه بكل هدوء وسكينة وكأن نظره اليه خفف شيئًا مما قام في نفسه على أثر تلاوة ذلك الكتاب · وقد حاول التجلد تشبهًا بما كان عليه عمه من سعة الصدر ولكن التأثير كان غالبًا على منظره وتقدم نحو عمه وبيده تلك الصفيحة فقدمها له وهو يقول « ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع بأشر منه وكل مصائبنا من ذلك المختلس الساقط · · »

فمد اوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة وقرأه فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بالفاظ قوطية [1] حفرًا في الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبي الفونس

« ان الامر الذي خفته من انتقالي الى هذا القصر قد أوشكتُ الوقوع فيه · فانا في خطر من براثن الاسد الا اذا أسرعتَ الى انقاذي · أنت تزعم انك تحب فلورندا فاسرع الى انقاذها قبل ان تفوت الفرصة · · · والا فان ما بقي من حياتها لا يتجاوز ساعات قليلة اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر · · · فاذا لم يكن لي نصيب من النجاة فاني استودعك الله واطمئنك اني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر · · · اذكرني بين يدي أهلي · · وموعدنا الامجاد السماوية في احضان الآباء القديسين

« كتبته فلورندا المسكينة »

فلم يكن اوباس أقلّ تأثرًا لما قرأه من كتاب الفونس ولكنه كان أثبت منه جأشًا واصبر على الطوارىء وقد أحس انه مسئول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذي وضع عرمون الخطبة بينها وبين الفونس · فظل بعد تلاوة الكتاب صامتًا يحاول التجلد · اما الفونس فلم يعد يستطيع صبرًا على عواطفه فقال « اعذرني يا عماه فقد نفد صبري ونسيت كرسي الملك وانت الذي باركت عربون الخطبة بيننا فانت مطالب باتمام العقد فضلاً عما أنت مكلف به من ذلك بواجب القرابة · · · ومهما يكن من الامر دبرني برأيك »

---

(١) رومى ج ٣

فالتفت اليهِ بهدوء ورزانة ويده على لحيتهِ يسرحها باصابعهِ وقال « طب نفساً يا ولدي اني مخرج فلورندا من قصر الملك وهي في خيران شــاء الله ٠٠٠ » ثم أطرق واعمل فكرتهُ وهو يصعد بحاجبيهِ ثم يقطبهما بما يدل على استغرابهِ وحيرتهِ ثم قال « اني لاعجب من أمر هذا الرجل واشتغالهِ عن أمور رعيتهِ بما لا يرضي الله ولا عبيده ولكن ذلك من الادلة القاطعة على قرب سقوطهِ وذهاب ملكهِ . لان الله لا يؤيد ملكاً يخالف وصاياه ٠٠٠ » وكان الفونس غارقاً في بحار الهواجس وقلبهُ يتقد غيرة على فلورندا وكان لما تشاغل عمهُ عنهُ بمناجاة نفسهِ قد اعاد النظر في كتاب فلورندا فوقف بصره خصوصاً على قولها « اني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر » وفكر في ما ينطوي تحت هذه العبارة من المعاني المثيرة للغيرة . ثم سمع عمهُ ينادي « يعقوب » فدخل وقبعتهُ في يده وقال « لبيك يا مولاي »

قال « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا الوثوق من امانتهما اذا كلفناهما في مهمة ولو كانت ضد هذا الطاغية صاحب كرسي طليطلة اليوم ٠٠٠٠ »

قال « انا يا سيدي ٠٠٠ »

قال « إنا اذخرناك لمهمة أُخرى ولكننا نحتاج الى شابين او ثلاثة انت تثق بامانتهما ونشاطهما و بسالتهما لان الامر الذي سنكلفهما بهِ يحتاج الى الاقدام والشجاعة والامانة ٠٠٠ »

فاطرق يعقوب وقد أمسك طرف لحيتهِ باناملهِ وجعل يفتلهُ بين السبابة والابهام حتى اصبح مثل طرف الحبل لما تخلل الشعر من الاوساخ — فعل ذلك وهو مستغرق في الافكار ثم حرك انامله بغتة فاعاد اللحية الى ما كانت عليهِ والتفت الى اوباس وفي وجههِ امارات البشر وقال « فلما اثق باحد من هؤلاء وأن يكن معظمهم نشأوا في بيت مولاي وعاشوا على مائدتهِ لان الانسان اضعف من ان يضحي نفسهُ في سبيل صدق ضميره ٠٠٠ ولكنني أعرف اثنين فقط أظنهما أهلاً لهذه الثقة ٠٠٠٠ »

قال « ومن هما »

قال « هما أجيلا وشنتيلا »

فقال اوباس « وكيف اخترت هذين وليس هما ممن ربي في بيت الملك ٠٠ »

قال « اخترتهما لاعتقادي باقتدارهما على هذه المهمة ولانهما لا يزالان طامعين في العلى . اذ لا يخفى على مولاي انهما كانا من طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم اخوك والحقهما بحاشيتهِ لما آنسهُ فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لي بعد تخلصهما من العبودية انهما طامعان في

الارتقاء شأن من يذوق طعامًا لا يعرفهُ فاذا استطابهُ زاد في اشتهائهِ فيطلب المزيد منهُ . واما من تعود طعامًا حلواً فقلما يستزيد منهُ . وهذان الشابان ولدا في مهد العبودية ونفساها من انفس الاحرار فرأى الملك المرحوم عظم نفسيهما في حديث يطول سرده فمنحهما الحرية والحقهما بحاشيتهِ فهما الآن يتطلبان العلى فاذا كان في المهمة التي تندبهما اليها ما يطمع في ذلك استهلكا في سبيلها والاَّ اعتذرا عنها ولا يخونان ... »

قال « اراك بارعًا في فلسفة الاخلاق ! .. فاذا كان الغروب تعالَ الى منزلي وهما معك »

قال ذلك وحوّل وجههُ الى الفونس ففهم يعقوب انهُ يطالب خروجه فخرج اما الفونس فكان قد عاد الى هواجسهِ فلما اقبل ثمة اليهِ قال لهُ « ماذا نجيب على هذا الكتاب .. »

قال « اكتب اليها ان تكون على أهبة السفر في الساعة الثانية بعد الغروب وانك تلاقيها في القارب بجانب القصر .. »

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليهِ ايضًا [1] وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا

« لبيك يا حبيبتي اني موافٍ القصر في الساعة الثانية من الليل القادم فتهيإي للخروج بما تستطيعين حملهُ واشرفي من النافذة المطلة على النهر فاذا رأيت نورًا مثلثًا اعلمي اني في انتظارك هناك ... تشددي وقوي قلبك ولا تخافي

« كتبهُ محبك الذي يفديك بروحهِ »

وطوى الكتاب وخاطهُ وجعلهُ في الكيس الارجواني وختمهُ ودفعهُ الى يعقوب على ان يرجعهُ الى الرسول الذي جاء بهِ وبوصيهِ بالاحتفاظ بهِ لئلاَّ يطلع عليهِ أحد فتناول يعقوب الكتاب وخرج



---

(١) الانسيكلو بيديا البريطانية

الفصل الحادي والعشرون

كتاب آخر

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل فاخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه الى منزله للمفاوضة هناك بما يفعلونه ومع شدة ما اصاب الفونس من البغتة ما زال مستغرباً ما سمعه عن يعقوب من الاسرار المكتومة وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد فلبس الفونس قباء من الفرو الثخين وعمه التف برداء الاكليريكي وكان البرد قلما يؤثر فيه . وفيما هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر في أمر على حدة فتح الباب بغتة ودخل يعقوب وفي يده اسطوانة من جلد بلون القرمز فعلم اوباس ان فيها كتاباً من رودريك فقد كانت كتبه الى عماله وامرائه تكتب على الجلد وتلف وتدخل في اسطوانة من جلد العجول مدبوغ بلون القرمز فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لاستلامها فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب « من جاء بها ؟ »

قال « جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألني رئيسهم عن سيدي الفونس هل هو هنا فاردت استمهاله لاعود اليه بالجواب فابتدرني قائلا اخبرني حالاً فاني مأمور بايصال هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان . فقلت هو هنا فدفع اليّ الكتاب وقال انه ينتظر . . . »

فنظر اوباس في ختم الاسطوانة فاذا هو ختم الملك نفسه ففض الختم واستخرج الكتاب فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الاوامر وكانت الرسالة ملفوفة على نفسها فنشرها وقرأ ما فيها والفونس واقف على يساره يتطاول لقراءتها فاذا هي امر رسمي من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك القوط

« بسم الآب والابن والروح القدس

« الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس سلامٌ . . وبعد فقد بلغنا ايها العزيز ان بعض العبيد والموالي في كونتية . . . . قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك فاذا اتاك كتابي هذا اسرع الى مقر جنودنا في طليطلة فان فرقة من الجند في انتظارك تذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاخماد الثورة ولا بد من العجلة . وبذلك على استحقاقنا

اما كتبنا هذا الامر في يوم العيد الذي لا يجوز العمل فيهِ — فان كنت واقفاً لا تجلس وان كنت ماشياً لا تقف قبل انفاذ امرنا هذا والسلام

كتب في قصر طليطلة في الخامس والعشرين من شهر دسمبر سنة ٧١٠ »

وما جاء الفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا في عينيهِ وصاح لشدة هياجه « لا اذهب الى مكان .... لا اذهب ... »

فالتفت اوباس اليهِ لفتة الاستصغار وقال لهُ « كيف لا تذهب ... ؟ وهل تستطيع ذلك ... ألا ترى انهُ كتب اليك هذا الكتاب وفيهِ ما فيهِ من الملاطفة فاذا عصيت امره جررت على نفسك البلاء ... »

قال « وايُّ بلاء اجرُّهُ على نفسي .. ؟ »

قال « اذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وامر بالقبض عليك فهل عندك من الرجال ما تدفع بهِ قوة الحكومة الآن فلا تكون النتيجة الاَّ ايقاع الاذى بك وبنا كلنا اذ يرى المجمع المقدس مسوغاً لذلك بعصيانك ... فالحكمة تقضي علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضي الله امرًا كان مفعولاً ... »

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبهُ لفلورندا ولخروجهِ من طليطلة وهي في ذلك الضنك اغلق ذهنهُ فلما سمع كلام عمهِ قال لهُ « ولكن ما العمل ... كيف اجتمع بفلورندا ... »

قال « اترك امرها اليَّ ... فاني اتولى انفاذها الليلة واخفيها في مكان ثم اكتب اليك حيثما تكون ونرى ما تاتي بهِ الحوادث . ولا تجزع بل ابشر بما نرجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا — اتكل على الله ولا تكرهوا شيئاً لعلهُ خير لكم »

فالتفت الفونس الى يعقوب وقال له « اخبر حامل الرسالة انني ذاهب بعد قليل .. »

قال « قلت لك يا مولاي انهم كوكبة من الفرسان وقد علمت انهم مامورون ان لا يعودوا الاَّ بك »

فقطع اوباس كلام يعقوب وقال لالفونس « اذهب يا بنيَّ ... اذهب الآن وانا اتولى كل شيء بغيابك ولكن انصح لك ان تصطحب يعقوب وتعتمد عليهِ وسوف يطلعك على امور تهمك ... »

فنهض يعقوب « سريعاً بطاعة واسرع الى اثوابهِ فلبس منها ما يصلح للسفر وكذلك فعل الفونس وخرجا والفونس يتجلد ولكنهُ القى كل حملهِ على عمهِ

الفصل الثاني والعشرون

عودٌ الى القصر

فلندع الفونس يتأهب للسفر ولنعد الى قصر رودريك حيث تركنا فلورندا في غرفتها تفكر في أمرها بعد الفراغ من الصلاة والقاء حملها على الله . وكان رودريك قد خرج من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل . وكان اول شيء باشرهُ انهُ لقي الاب مرتين في غرفتهِ يتلو بعض الصلوات وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا وتحقق انهُ لا يعود من هناك الاَّ وهو مقتنع بوجوب الخلاص من الفونس او ابعاده . فلما لقيهُ عائدًا آنس الغضب والانفعال في عينيهِ وجبينهِ حتى لقد يعجب الذي يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو اذا غضب لا يبالي بقتل المئآت — ولكن الحب ... الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل . . . الحب يذلل الاسود ويستأسر الجبابرة وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو . فاذا رأيت رجلاً في خلقهِ جفاء وخشونة فاعلم ان الحب لم يستولِ على قلبهِ بعد — نعم ان حب رودريك لم يكن خالصًا من شوائب المنكر ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير لان سبب الحب واحد ولكنهُ يظهر في الناس مختلفًا باختلاف اخلاقهم واحوالهم — ولا يبعد ان يكون رودريك قد همَّ بقتل فلورندا وهي تعنفهُ وتقاومهُ ولكنهُ امسك نفسهُ طمعًا باسترضائها واستبقاء لها . فتحمل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره في وجههِ حتى خيل لمرتين لما رآه انهُ في اعلى درجات الغضب فاستقبلهُ ضاحكًا . فتجلد رودريك وحياهُ وهو يحاول اخفاء انفعالهِ عبثًا فلم يرَ خيرًا من ان يشاغل الاب بالحديث فقال لهُ وهو يظهر الاستخفاف « يظهر ان لذلك الغلام مأربًا ببعض اهل هذا القصر »

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج عن تسرُّع على جاري عادتهِ « كأني بالملك لم يفهم اشارتي الى ذلك في هذا الصباح ... »

قال « بلى فهمت ... ولكنني .. » وسكت

فأدرك القسيس انهُ يضمر شيئًا فظلَّ ساكتًا وهو ينقر بسبابتهِ على شفتهِ الغائرة وعيناه تنظران الى الملك كأنهُ يتوقع تتمة حديثهِ . اما رودريك فلم يرَ بأسًا من

اطلاع مرتين على قصده وهو مستودع اسراره . الاَّ حبة فلورندا فانهُ نوى البقاء على كتمانهِ حياء من الناس وخوفًا من امرأتهِ وهو يعلم تسلط القسوس على النساء . فخاف ان يقع حبهُ لدى القسيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة على ذلك فتقف في سبيلهِ — على انهُ اراد اطلاع مرتين على ما بقي من عزمهِ فقال « ارى ان اسعى في ابعاد هذا الشاب من هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر واهلهِ . . »

فطأطأ الشيخ رأسهُ استصوابًا كأنهُ رأى الجواب بتلك الاشارة اهون عليهِ من التكلم . . . ثم قال « واذا أبعدتهُ فقد ننتفع بخدمتهِ وننتخلص . . . ولكن لا تموت الحية اذا ظلَّ رأسها سالمًا . »

فعلم رودريك انهُ يشير الى اوباس ويود ابعاده . . . فقال « ان بقاء رأس الحية بين ايدينا اسلم عاقبة لنا وخصوصًا اذا كان الذنب بعيدًا » ففهم مرتين اشارتهُ وسكت

فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث بهِ الى الفونس كما تقدم وصبر حتى انبأُوه بنفاذ امره وان الفونس جاء المعسكر وتهيأ للسفر . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق واقبل الظلام وكأن اقبالهُ زاد ذلك الملك تعاميًا عن فظاعة ما نواه ولم يعد يستطيع صبرًا الى اليوم التالي فتناول طعام المساء مع امرأتهِ واكثر من تعاطي الخمر على تلك المائدة تشاغلاً عما ثار في نفسهِ من النيران الشيطانية فهان عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا « السكر رأس المعاصي »

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفهُ ودارت الخمر في رأسهِ وتحوَّل توًّا الى غرفتهِ والقسيس لا يزال على المائدة مع امرأتهِ . فدخل رودريك الغرفة واغلق الباب وراءهُ وفتح الباب الآخر وسار في الدهليز نحو غرفة فلورندا

أما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكرة قد كتبت ذلك الكتاب الى الفونس ودفعتهُ الى العجوز فأرسلتهُ مع خادم تعتقد باخلاصهِ وعادت ولبثت تنتظر الجواب فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر . فقضت في الانتظار ساعة ظنتها شهرًا او سنة فكانت تارةً تطل من الباب واخرى من النافذة المشرفة على النهر وآونة تدعو خالتها وتستفتيها في سبب التأخير وهي تهوّن عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورًا واول شيء فعلتهُ انها قبلت الايقونة وشكرتها على اجابة صلواتها . واخذت تجمع ما خفَّ حملهُ من الحلي ونحوهِ والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس . فعند ذلك تركت فلورندا كل شيء وتحوّلت الى النافذة وجلست اليها وارسلت بصرها الى مجرى النهر تنتظر ظهور النور

المثلث مع علمها ان الاجل المضروب لا يزال بعيدًا . ولكن القلق اوهمها قربهُ . وكان الطقس قد برد وتلبدت الغيوم فاغبرت السماء وعصفت الرّياح واومض البرق وقصف الرعد ولم يمض قليل حتى تساقطت الامطار . ولكن ذلك كلهُ لم يشغلها عن التفرُّس في النهر وركبتاها ترتعدان وجلاً وفرحًا . وكانت كلما لاح برقٌ ظنتهُ مشعال حبيبها . وقد تنفرج الغيوم فيقع ظل بعض الكواكب في مجرى النهر فتحسبها نورًا مثلثًا وربما كانت عشرين كوكبًا فتظن تعددها ناتجًا عن تكسر سطح النهر بالامواج . او تتوهم السبب في ذلك اعتراض بعض اغصان الحديقة بينها وبين النهر وخصوصًا الاغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة

الفصل الثالث والعشرون

تجربة أُخرى

وفيما هي تعلل نفسها بقرب الفرج وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر انتبهت بغتة فسمعت وقع اقدام رودريك في الدهليز فخارت قواها وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها واحست من تلك الساعة بما يحدق بها وكانت في غفلة عنهُ فجلست على البساط وجعلت تتضرَّع الى الله ان يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد تعزية الاَّ خالتها فقالت لها « أَليست هذه خطوات الملك . . . ؟ » ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهي تقول « الملك يدعوك الى تلك الغرفة . . . »

فصاحت فلورندا « ويلاه ما هذا المصاب يا الهي . . » ولطمت وجهها واخذت في البكاء.

فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفف عنها وهي لا تدري بماذا تعزيها هذه المرة . على انها لم ترَ خيرًا من الرجوع الى المعزي الاكبر — وهو الدين — فقالت « اتكلي على الله وهو الذي انقذك في المرة الماضية ينقذك الآن وما عليهِ امر عسير »

وكانت فلورندا من اهل الايمان الوطيد كما رأَيت فتضرَّعت الى الله ان يساعدها

هذه المرة ايضاً والتفتت الى خالتها وقالت لها « اتوسل اليك يا خالة ان تصلي من اجلي وتطلبي الى الله ان ينقذني من هذه التجربة »

فقالت « ها اني باقية هنا جاثية امام هذه الايقونة الى حين رجوعك لاني لو صحبتك ما نفعتك ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده »

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة المساقة الى الذبح وهي تتقدم قدماً وتؤخر اخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالساً في صدرها جلوس من لا يهمهُ النهوض ورأت في وجههِ من دلائل الغضب مالم تره في المرة الماضية وقد احمرت عيناه واكمد لون وجههِ من السكر واسرع تنفسهُ واشتدَّ حتى اصبح شخيراً . فظنت فلورندا لاول وهلة انها ترى هذه الملامح في وجههِ بسبب نور المصباح . على انها لم تقع عيناها عليهِ حتى اسرع قلبها بالخفقان . ولكنها استعانت بالله وتجلدت وتقدمت حتى وقفت على بضعة اذرع منهُ واطرقت . وكانت قد ضفرت شعرها ولمتهُ وغيرت ثوبها تأهباً للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفهُ بها وتضاعف ذلك الشغف لتنبه عواطفهِ بالمسكر فخاطبها وهو لا يزال جالساً وقد مدَّ رجليهِ وبسط ذراعيهِ على الوسائد في الجانبين فقال « هل حدثتك نفسك بشيءٍ جديد . . . ؟ »

فظلت ساكتة ولكنها بالغت في الاطراق

فاعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيهِ كأنهُ يتحفز للنهوض فقال « أجيبي يا فلورندا . . . يظهر انك أدركت السعادة التي أدعوك اليها . . . وخصوصاً اذا علمت اني أنقذتك من يدي ذلك الغلام الذي كان يغريك على حبهِ وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك . . . »

فلما سمعت ذلك خافت أن يكون قد دبر شرًّا لالفونس فرفعت بصرها اليهِ وتفرست فيهِ كأنها تستطلع صدق ظنها . فلم تتمالك ان ردت بصرها عنهُ لانها توسمت في عينيهِ معنى ارتعدت لهُ فرائصها ـ رأت شيئاً لو سئلت تسميتهُ ما استطاعت التعبير عنهُ بغير لفظ « الشرّ » على انها عادت الى الاطراق وفي خاطرها ان تسمع منهُ ما يجلي الحقيقة . فاذا هو وقف بسرعة يمازحها عربدة وقال وهو يلاعب شاربهِ بين الابهام والسبابة ثم يسرح لحيتهُ باصابعهِ « لماذا لا تجيبينني . . . كأنك تخجلين من الندم بين يدي الملك . . . فاني سامحتك على ما مضى » قال ذلك وخطا نحوها ويداه مرفوعة كأنهُ يهم ان يلقيها على كتفيها تحبباً

اما فلورندا فلما رأتهُ يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما ونفرت منهُ كأنهُ

ذئب كاسر بهم بافتراسها . فتراجع رودريك واظهر الاستغراب وهو يقول « ما بالك تنفرين كأنك تخافين اذية وانا انما أُريد تطييب خاطرك وابغي رضاك .... »

وكانت فلورندا لا تزال في ريب من امر الفونس فأرادت ان تتحقق ظنها وكانت الامطار قد تعاظم تساقطها واختلطت اصواتها باصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود وفلورندا في غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام في نفسها من الخوف . على انها لما عوّلت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض واذن رودريك من الاصوات المختلطة فقالت بصوت عال لكنهُ مرتعش « قد قلت لمولاي الملك ان هذا الموقف ليس بموقفي وان الله قد جعل نصيبي سواه ... »

فقال لها « كأنك لم تنهمي كلامي ... قلت لك ان الغلام الذي تسمينهُ نصيبك قد مضى ولا سبيل اليهِ .. »

فلما سمعت قولهُ توهمت انهُ قتلهُ فصاحت وقد قفّ شعرها وارتعشت اطرافها واحست كأنك صببت ماء غاليًا على بدنها وقالت « ماذا تقول .. ؟ ماذا فعلت بالفونس .. ماذا ... ماذا ؟ ... هل قتلتهُ ... ؟ »

الفصل الرابع والعشرون

الاستنجاد

فلما رأى رودريك ما أصابها خاف ان يقضى عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسهِ ولو ساعة فقال « ما هذه البغتة يا فلورندا ... ماذا فعلت بالفونس ... لا .. لم اقتلهُ ولكنهُ بين يدي وحياتهُ طوع ارادتي اذا شئت قتلتهُ بكلمة ولا أتكلف لذلك خطوة واحدة ... يظهر انك لا تزالين تجهلين من هو الذي يخاطبك ومن هو ذاك الذي تسمينهُ نصيبك . نعم اني لم اقتلهُ بل اكتفيت بابعاده ولكن اذا بقيتِ على اصرارك اقتلهُ ... واذا ظللت على غيك بعد قتلهِ اقتلك أنت .. وانا الآن لا استرضيك ولا

استعطفك بعد ما رأيتهُ من وقاحتك ٠٠٠٠ واعلمي ان هذه الساعة هي الحد الفاصل بين تمنعك و بين ما أُ ريد٠٠٠٠ » قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعًا الى باب الغرفة واغلقهُ ورجع وهو يقول « فاختاري الحائط الذي تريدينهُ واخرجي منهُ ٠٠٠» ثم القى نفسهُ على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنهُ ثور يخور وقد زادت عيناه احمرارًا واوداجهُ انتفاخًا

أما فلورندا فلما سمعت تصريحهُ بالمكر وتحققت دنو الخطر التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع او تستنجد رفيقًا — فعلت ذلك وهي لا تعلم لماذا فعلتهُ وهمت بالجواب فقطع رودريك كلامها قائلاً « عمن تبحثين ٠٠٠؟ اننا في غرفة ليس معنا ثالث ٠٠ وليس على وجه البسيطـة من يستطيع ان يحول دون مرادي ٠٠٠٠ فاقبلي طائعة ٠٠٠ انهُ احفظ لحياتك وادعى الى سعادتك ٠ »

وكانت فلورندا لما سمعت قولهُ « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تقرأهُ وتسمعهُ من مواعيد الكتاب المقدس وان من يتكل على الله لا يفشل وان الله موجود في كل مكان ٠ وقد تقدم ان فلورندا كانت من أقوى الناس ايمانًا فاحست للحال باطمئنان كانها محاطة بطغمة من الملائكة يحرسونها وتشجعت ونظرت الى رودريك وهي تتفرّس فيهِ وقالت « تزعم اننا منفردان وان الجوّ خالٍ لك وقد فاتك ان الله موجود في كل مكان لا يدع لاحد سلطانًا يغلب سلطانهُ ٠٠٠ ثم اني سمعتك تتهددني بالقتل ٠٠ فاقتل ثم اقتل ثم اقتل ٠٠٠ اقتلني اني لا ابالي بحياتي ٠٠٠ ولكن أتوسل اليك ان لا تمس الفونس بسوءِ ٠٠٠٠ آه يا الفونس ٠٠٠ » قالت ذلك وخنقتها العبرات واطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكي لم يزدد الاّ حنقًا وخصوصًا بعد ان سمع ذكر الفونس ٠على انهُ لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغمها في بقائهِ تراءى لهُ ان يعرض عليها استبقاءه فقال « اذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار فاني اكرامًا لعيونك ابقيهِ وأرقيهِ واجعلهُ من أسعد أهل طليطلة ٠٠٠ ولا يكلفك ذلك الاّ ان تقلعي عن عنادك ٠٠٠٠»

فابتسمت استخفافًا بذلك الراي وقالت « ان الامر الذي يرضيك مني بذلهُ انما هو أثمن ما لديّ في هذا العالم ٠٠ اثمن من حياتي ٠٠٠ بل هو اثمن من الفونس ٠٠٠ الفونس نفسه ٠٠٠ لاني بدون ذلك الاكليل المجيد ٠٠٠ بدون تلك الجوهرة الثمينة

لا استحق نظرة من الفونس ولا من سواه ... بل انا لا اساوي شيئًا .. وهل تظنني لولا ذلك استطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة ؟ ... »

فرأى رودريك انها تطيل الجدال ولا يرى ما يدفع به حجتها ولا هو يريد الاقتناع بقولها لان اميالهُ البهيمية غلبت على عقله وارادته وقد يكون — وهو يجادلها و يراودها — مقتنعًا انهُ يلتمس امرًا منكرًا وانها مصيبة بتوبيخه . ولكنهُ لا يملك عنان شهواته — وفي هذا الموقف الحدُّ الفاصل بين الفضيلة والرذيلة . لان الناس يتشابهون في اميالهم البدنية وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة وانما يتفاضلون بقوة الارادة على كبح الشهوات والعمل بما يقتضيهِ الضمير — في مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس . واقربهم الى الفضيلة اقواهم ارادةً ... فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل اكثر مما يفهم سواهم . ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم برهة قد لا تزيد على بضع دقائق . فاذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر وعاشوا في راحة وسعادة — يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ويستسلمون لاهوائهم لا يلبثون ان يندموا حين لا ينفع الندم

الفصل الخامس والعشرون

اليأس

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة فلما سمع تقريع فلورندا ادرك خطأه ولكنهُ تجاهل وتعامى وتصامَّ وعاد الى المغالطة فاظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها « أراكِ تحبين المدافعة بلا فائدة ولم يبق لي صبر على اقوالك ... ألا تشعرين بما تعرضين نفسك لهُ من الخطر ؟ .. ومع ذلك فما لا يمكن ان يكون برضاك لا بد منهُ رغم انفك » قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويدهُ ترتعش فاقشعرَّ بدن فلورندا واحست كانهُ ممسكًا ذراعها بقبضة من حديد فصاحت « ويلك يا ظالم ...

تباً لك يا فاسق... ألا تخاف يوم الحساب ... ؟ ألا تخاف الله ... قبح الله ملكاً يتولى انصاف المظلومين وهو اكبر الظالمين . ولعن الله رجلاً يزعم انهُ اقيم لكبح جماح المتمردين وهو لا يقوى على كبح شهواتهِ ... » ثم ارسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الاخرى وقالت « اليك اتوسل ايها المخلص الحبيب ... واعوذ بك من هذا الظالم الخائن .... »

وكان رودريك في اثناء ذلك يحاول القبض على يدها الأُخرى وهي تحاول التخلص منهُ فوقع نفَسهُ في وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمَّت ان تقول شيئاً فاعترض قولها رعودٌ قاصفة توالت بضع ثوانٍ عقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان فارتجَّ القصر من اساساتهِ ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنهُ حراب من نار . فكان لتلك الحركة تأْثير شديد على نفس رودريك شغلهُ لحظة عن فلورندا وتولاه الرعب لانهُ توهم لاول وهلة ان القضاء يتهدده — كما يفعل بعض الذين يربون في مهد الدين فيعتقدون ان الاقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم وان الطبيعة لا تعمل عملاً الاَّ وهي تتعمد بهِ خيرهم او شرهم — اما ثواباً على حسنة او عقاباً على سيئة . وربما اعتبر بعضهم العمل الواحد من اعمالها تارة ثواباً وطوراً عقاباً تبعاً لما يوحيهِ اليهِ ضميره . والضمير يندر ان يخدع الاَّ ان يكون قد مات بتوالي المنكرات او غلب عليهِ تيار الشهوات كما اصاب رودريك لما سمع قصف الرعد وانقضاض الصاعقة فانهُ تهيب لاوَّل وهلة وامتقع لونهُ واختلج قلبهُ وربما ندم وعوَّل على الرجوع عن قصده — على ان ذلك الخاطر لم يمرّ في ذهنهِ الاَّ مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليهِ

واما هي فانها اغتنمت تلك الفرصة واستخرجت يدها من يدهِ وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيراً لها عليهِ اجابة لصوت دعائها . فالتفتت اليهِ وهي تقول « ألا تعلم ان في الكون من ينتصر للضعيف على القوي .... ألا يستطيع ذلك الجبار ان ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الموت العاجل ؟ .. »

فالجم رودريك لما رأى الاقدار تزيد حجة فلورندا عليهِ ولكنهُ اعتبر نفسهُ في موقف انتقام ولم يزدد الاَّ تمادياً في غرضهِ فتقدم اليها وقبض باحدى يديهِ على كتفها ومد يده الأُخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجلهِ . فتشددت هي وانتثرت من بين يديهِ فافلتها بالرغم عنهُ لانهُ لم يكن ممسكاً بكل قوتهِ . فلما افلتت منهُ تعاظم غضبهُ فهجم عليها هجوم الثور وهو لا يبالي بما يكون من امرها

فلما رأته فلورندا هاجماً والشرر يكاد يتطاير من عينيهِ لفرط غضبهِ ايقنت بالخطر العاجل فعولت على الانتحار قبل وصولهِ الى مراده فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث وهي لا تزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لا تتخلى عنها · ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها اسرعت هي فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت ان تخنق نفسها وهي تقول « الموت · · · الموت خير من العار · · · اليك اسلم روحي يا مخلصي الحبيب · · » قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم في وجهها وجحظت عيناها · فانشغل رودريك برفع الضغط فأمسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها وكانت قد خارت قواها فسقطت وقد ارتخت عزائمها واستلقت على ظهرها لاحراك بها

الفصل السادس والعشرون

رشوها بالماء

فلما شاهدها رودريك في تلك الحالة تنبهت فيهِ الحاسة البشرية لحظة وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها وامسك يدها ونهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها · فاذا هي لا تزال مغمضة العينين مسترخية الاعضاء فخفق قلبهُ وتحرَّك ضميرهُ وتوهم انها ماتت او كادت تموت فتركها واسرع الى الباب لعلهُ يجد ماء فيرشها بهِ · ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلتهُ العجوز وهي خارجة من الحجرة وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لانها كانت لا تزال الى تلك اللحظة جاثية تصلي وهي مطمئنة الخاطر لا شك عندها في نجاة فلورندا من هذا الخطر · وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئاً مما حولها وقد اقفلت النافذة المطلة على النهر حجباً للعواصف فلم تنتبه لقصف الرعد وهبوب الرياح الاَّ كما يشعر الراقد بصوت يسمعهُ بين اليقظه والمنام · ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها استيقظت من ذلك الرقاد وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجههِ وقال « اليَّ بكوبة من الماء · · · اسرعي حالاً · · · » قال ذلك وعاد الى الغرفة فتبعتهُ العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا · فدخل رودريك وهو يقول للعجوز

« رشيها بالماء » فلما رأت العجوز حال فلورندا صاحت « فلورندا ... فلورندا ... ! ما الذي اصابكِ .. » واسرعت فرشتها فاستيقظت وجلست للحال وهي تنظر الى ما حولها فلما رأت رودريك صاحت « ويلاه اني لا ازال حية ولا يزال هذا الشرير امام عينيّ ... كنت احسب اني نجوت منهُ بالموت ... »

أما رودريك فاغضى عن ذلك ووجه خطابهُ الى العجوز وقال « أرأيت ما الذي فعلتهُ فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها .. ؟ اعرضُ عليها السعادة فترفضها .... »

فلم تجد العجوز جوابًا غير البكاء لانها توهمت نجاة فلورندا مستحيلة . على انها لم تجد سبيلاً غير التزلف فجثت امام رودريك وقالت ودموعها تتساقط « أتقدم الى مولاي ان يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها فان في قصره وتحت امره مئات مثلها ... »

فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجلهِ وهو يقول « عني يا عجوز النحس ... وانت أيضًا ؟ .. » فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذي جاءها من الفونس فقالت في نفسها لعل مع الفونس رجالاً يصعدون الينا فينقذونها من بين يديهِ بالقوة . فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة فتحًا قليلاً فعصفت الريح في وجهها وبللها الماء ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورًا مثلثًا ولا غير مثلث فاقفلتها وعادت الى الصلاة

أما رودريك فاقفل الباب وعاد الى فلورندا وهي لا تزال جالسة على البساط في الغرفة وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها برد الفعل فعاد الاشراق اليهِ ولكن الكآبة ما زالت غالبة على منظرها . فدنا رودريك منها وهو يمد يدهُ الى منطقتهِ ثم اخرجها وهو قابض بها على خنجر ابرق فرندهُ كأنهُ يقطر سماً وبيده الاخرى شيءٌ كالخاتم يلمع ثم مد يديهِ اليها وهو يقول « لقد نفد صبري يا فلورندا فها اني عارض عليك السعادة لآخر مرة — فاما ان تقبليها وهذا خاتم رعون على ذلك واما ان اغمد هذا الخنجر في صدرك في هذه اللحظة ... اجيبي حالاً .... »

فنهضت للحال وتصدرت لهُ وهي تقول « اغمده ... اغمد خنجرك في صدري وارحني من هذه الحياة .. ويا حبذا الموت الذي القى بهِ وجه ربي بريئة طاهرة ..... اقتل يا رودريك ... اقتل ... »

فقال لها « امدحي الكر ولا تظني اني اتوسل ذلك لمجرد التهديد ... بل فاعلهُ حالاً ... وان عقلتِ واجبت سؤلي اخذت هذا الخاتم عربون محبتي لك وكنت اسعد بنات طليطلة ... »

قالت « وانت لا تحسبني اقول ما أقوله مزاحاً ... فاني لا ارهب الموت فداء عن العفاف والطهر .. بل الموت خيرٌ لي ... الاَّ اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة — لانك نادم في اي حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لا ينفعك ندمك شيئاً ... واذا قتلتني فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الاَّ اصرارها على العمل بوصية الله ..... » ثم حوّلت وجهها نحو السماء وقالت « يا أيها المخلص المجيد .. ربي والهي .. الا كشفت لهذا الرجل فظاعة ما هو مقدم عليهِ .... اقشع غشاوة الجهل عن عينيهِ .... »

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال « اظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جواباً على كلامك كالمرة الماضية ... فما نحن في عصر المعجزات ... »

الفصل السابع والعشرون

خطوات غريبة

وفيما هو يريد اتمام كلامهِ والخنجر مشهر بيمينهِ كأنهُ يهمُّ بأن يطعنها بهِ سمع وقع اقدام غريبة في دهليز القصر . فانصت فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهي تسرع فخفق قلبهُ واقشعر بدنهُ وعاد اليهِ الاحساس الديني الذي ربي فيهِ . فخيل لهُ ان الله استجاب دعاء فلورندا فأرسل بعض ملائكتهِ لانقاذها — لانهُ يعتقد ان البشر لا يستطيعون الدخول الى قصرهِ في تلك الساعة واذا دخلوهُ فلا يتجاسر احد على الوصول الى هذه الغرفة والابواب موصدة والاوامر صارمة

فضى رودريك وفلورندا ثواني قليلة في حيرة وهما واقفان وابصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون وفلورندا ترتعش تخشعاً وبغتة . واما رودريك فانهُ ارجع الخنجر الى مكانهِ ومشى الى الباب وهو لا يزال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل الوصول الى الباب سمع قارعاً يقرعهُ قرعاً عنيفاً ارتجت لهُ جوانب القصر وارتعدت فرائص رودريك ولم يتمالك ان اسرع الى فتحهِ . ولا تسل عن دهشتهِ واضطرابهِ لما رأى اوباس داخلاً وهو في ما يعرفهُ فيهِ من الهيبة والرزانة ورباطة الجأْش والماء يقطر من اردانهِ

أما فلورندا فتوهمت لما رأتهُ انهُ ملاك لابس ثوب اوباس وظلت واقفة والبغتة قد ملكت كل جوارحها حتى علق ريقها في حلقها وامسكت تنفسها

اما رودريك فلم يسعهُ عند رؤية اوباس عن اظهار استغرابهِ من جسارتهِ الى هذا الحد فقال لهُ « ما الذي جاء بك الى هنا في هذه الساعة ؟ ... وكيف دخلت هذا القصر بغير استئذان .... »

فاجابهُ اوباس وهو لا يبالي كانهُ يخاطب غلامًا وقال « اما الذي جاء بي فهو امر يهم المملكة ساعرضهُ عليكم . واما دخولي بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان امثالنا لا يستأذنون في الدخول على الملوك او مخاطبتهم وهم يخاطبون الله بلا استئذان ... »

ففهم رودريك انهُ يعرض بسلطة الاكليروس وخصوصًا الاساقفة فانهم هم الذين اجلسوه على الكرسي . ولكن اوباس لم يكن منهم للاسباب التي قدمناها . فساءهُ ذلك التعريض ولكنهُ كان مشعرًا بارتكابهِ ذنبًا عظيمًا والمذنب يغلب عليهِ الضعف والارتباك ولو كان ملكًا وخصوصًا بين يدي رجل مهيب مثل اوباس . فعمد رودريك الى تغطية ذنبهِ بالمغالطة وقد عوّل على ان يصرف اوباس ثم يعود الى فلورندا فقال لهُ « انتظرني في الدار العامة ريثما آتيك .. »

قال « لو كان الامر الذي جئت بهِ يحتمل الانتظار ما جئتك في هذا الليل تحت سيول الامطار ... » قال ذلك ومدَّ يده نحو فلورندا وهو يظهر انهُ يخاطب الملك وقال « واذا فتحتَ النافذة المطلة على النهر تحققت الامر الذي قلتهُ لك ... ورأيت الامطار بل الثلوج تتساقط .... فلو لم يكن مجيئي لأمر ذي بال ما عكرت على الملك راحتهُ ....اني لا اخرج من هذا المكان الاّ معك .... »

وكانت فلورندا كلها مسامع ولواحظ لما يقولهُ اوباس او يشير اليهِ فلما سمعت ما ذكره عن النافذة ادركت انهُ يشير الى الوعد المضروب لانقاذها ففرحت

اما رودريك فالتفت الى فلورندا واشار اليها ان « اذهبي الى غرفتك ريثما اعود » وخرج مهرولاً واوباس لا يغير مشيتهُ ولا يكترث بانهماك الملك واستعجالهِ . فلما وصل رودريك الى آخر الدهليز تامل الباب فرآه مفتوحًا فتذكر انهُ نسيهُ بدون اقفال . فلما خرج اوباس عاد الملك واقفل الباب وراءه كأنهُ يحاذر ان يختطفوا فلورندا من بين يديهِ ومشى واوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلوا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة . فجلس الملك ودعا اوباس الى الجلوس فقال « ان الامر الذي جئت

من اجلهِ لا يصح ذكره في هذه القاعة ٠٠»

فاستغرب رودريك جوابهُ وقال «وأين اذًا ؟ ٠٠٠»

قال «في غرفة منفردة على حدة»

فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعنت ومشى معهُ الى غرفة منفردة فيها مصباح نورهُ ضئيل ٠ فجلس وجلس اوباس بين يديهِ ورودريك لا يستطيع صبرًا عن سماع كلامهِ فقال «قل يا حضرة الميتر وبوليت ٠٠٠»

فقال «جئتك بامر دعاني الله الى تبليغك اياه ٠٠٠»

فانصت رودريك وتطاول بعنقهِ لسماع ما يقولهُ ٠ فقال اوباس بصوت هادىء على جاري عادتهِ «ان الله خولك سلطانًا على الناس تحكم فيهم وتنصف مظلومهم وتضرب على ايدي الظالمين فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبهُ ٠٠٠٠»

فبغت رودريك لما في خطاب اوباس من التوبيخ واقطب حاجبيهِ اشارة الى استهجانهِ تلك الجسارة وقال «هل عندك كلام في غير هذه الشؤون ٠٠ ؟»

فادرك اوباس انفعالهُ وانهُ انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليهِ فلم يقبل منهُ ذلك فقال «العلك تظن ما اقولهُ وهمًا او ليس هو بالامر الهام ٠٠٠»

فقال رودريك وقد ظهر الغضب في وجههِ «لا أرى ما يسوغ لك الاعتراض على اعمالي في داخل قصري — فاذا كنت تعلم امرًا يتعلق بالاحكام بين الناس او بالامن العام او بسياسة البلاد تكلم»

فابتسم اوباس باستخفاف وقال «الا تعلم ايها الملك انك مطالب بكل حركة تجريها في منازلك وفي الخارج ٠٠٠ ؟ وان الصعاليك اقرب الى الحرية في تصرفاتهم من الملوك ٠٠ ؟ انك مؤتمن على ارواح الناس واموالهم واعراضهم ٠ وانما اعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها ٠ افتتخذه وسيلة لسلبها ثم تتولى سلبها بنفسك واذا جاءك ناصح انتهرتهُ واحتقرتهُ ؟ ٠٠٠ ما هذه اخلاق الملوك المؤمنين ٠٠»

فاعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقًا لرزانة اوباس ورباطة جاشهِ وقال «هل كان اخوك المرحوم اقرب الى تلك الاخلاق مني ٠٠٠»

الفصل الثامن والعشرون

التتمة

ففهم اوباس انهُ يعرض بخروج الملك من ايديهم تحذيرًا لهُ فلم يصبر على ذلك فقال وقد ارتفع صوتهُ ولكنهُ ما زال هادئًا « دعنا من ذكر الاموات فلهم من يحاسبهم وانما نحن نحاسب الاحياء ... على اني ما اظن غيطشة اذا كان حياً يفعل مثل فعلتك .... بل انا اجلهُ عن الاقدام على مثل هذا المنكر ... »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال « دع عنك ذلك كلهُ فما هو من متعلقاتك لاني اعلم بواجباتي منك ... » قال ذلك وتحول عنهُ اشارة الى رغبتهِ في اقفال الحديث

فظل اوباس جالسًا وقال « لو كنت تعرف واجباتك ما اردت السوء بفتاة طاهرة وانت ذو امرأة ... وبدلاً من ان تغتفر عن هذه الفظيعة فانك تدافع عنها ... »

ثم وقف واتم كلامهُ قائلاً « واعلم يا رودريك ان اشتغالك في هذه الامور واهمالك كلمة الله ووصاياه من اول الادلة على قرب انقضاء هذه الدولة .... »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولتهِ التفت اليهِ وهو يقول « اراك تهددني بخروج هذا الملك من يدي .. انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات السماء والارض »

قال « اذا كان لنا مطمع في هذا الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك ... »

ولم يتم اوباس كلامهُ حتى رأى باب الحجرة فُتح ودخل الاب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كانهُ يريد التكلم ويمنعهُ التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامهُ مقطعًا موصلاً مختلطًا يشبه قولهُ « ت ... ت .... ت . يهدد جلالة الملك ! .. ! .. باخراج الملك ... من يدهِ ... يا للوقاحة وق .. ق .. قلة الادب . » ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلأت لحيتهُ باللعاب المتطاير من فمهِ . فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيتهِ وجعل يخطر في ارض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم

فادرك اوباس انهُ يتهمهُ زورًا ليوقع الشبهة عليهِ فسكت استخفافًا

واما رودريك فانهُ سر لهذه التهمة وتظاهر بالغضب والانتصار وقال « لا بأس يكفي الآن ماقد سمعناه من خير وشر . . » قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعهُ الاب مرتين . فنهض اوباس وهو لا يبالي بما رآه وانما همهُ فوزه بانقاذ فلورندا من بين يديهِ

وكان السبب في مجيء اوباس الى القصر وكيفية دخولهِ انهُ لما دنت الساعة المعينة جاء اجيلا وشنتيلا الى منزل اوباس فامرهما باعداد قارب للنزول بهِ في النهر فنزلوا بهِ فتساقطت الامطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدُّوهُ في بادىء الراي مساعدًا لهم على اخفاء خطواتهم . فوصلوا تحت القصر وفلورندا في الغرفة مع رودريك وخادمتها في الحجرة تصلي وقد اغلقت النافذة . فصعد الشابان ومعهما اوباس لا يبالون بالامطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء ولم ينتبه لهم احد من الحرس ولا الحاشية . فأشار اوباس الى شنتيلا ان يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلق حتى وقف على الغصن المقابل للنافذة فقرعها بطرف حسامهِ قرعًا خفيفًا ثم قوى القرع فلم يجبهُ احد لان العجوز كانت قد خرجت بكاس الماء لترش فلورندا . فنزل شنتيلا واخبر اوباس بانهُ لم يسمع جوابًا

فوقف اوباس برهة يتأمل وقال في نفسهِ لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن يشغلها عن هذه النافذة شاغل — فلا بد من ان تكون في ضيق ولا بأس عليها الاَّ من رودريك . فتخيل انها في أشد الخطر وانهُ ان تأخر عنها قد يقضي عليها فأمر الرجلين ان يربطا القارب بجانب القصر ويكثا تحت القصر وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العمومي وسأل الخفر عن الملك فقالوا انهُ في القصر فدخل ولم يعترضهُ أحد لان الاساقفة كثيرًا ما كانوا يدخلون على الملوك لمهام خصوصية وخصوصًا ملك طليطلة لان الاكليروس كانوا اكثر تداخلاً في شؤون اسبانيا مما في سائر ممالك اوربا تقريبًا وعلى الاخص على عهد رودريك لانهُ انما تنصب بمساعدتهم نعم ان اوباس لم يكن من الذين انتخبوهُ ولكن الحرس الواقفين بالباب لا يهمهم التمييز بين اسقف وآخر وانما يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكي والقيافة على الاجمال . على ان هيبة اوباس تكفي وحدها لاحترامهِ وطاعة اوامره وخصوصًا في تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالاً ووقارًا

دخل اوباس من ابواب القصر الواحد بعد الآخر لا يعترضهُ احدٌ حتى اتى غرفة الملك وكان يعرفها جيدًا لانها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد . فسأل الحراس عنهُ فقالوا «انهُ دخل غرفتهُ ولا يدخل عليهِ احد فيها»

فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم يرَ فيها احدًا ورأى باب الدهليز المؤدي الى قصر فلورندا مفتوحًا فدخل وما في الدار احد من الخدم فمشي مشية من لا يهاب ملكًا وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطًا . فلم يتمالك ان ضرب الباب ثم دخل . وهو انما ضرب الباب قبل دخولهِ مخافة ان يكون رودريك وفلورندا في حالة يقشعر لها بدنهُ فلا يستطيع امساك غضبهِ — والحر أبيُّ النفس يأنف من التجسس ومباغتة الناس في اماكن اسرارهم ولو كان في استطلاع ذلك مصلحة لهُ

فلما دخل الغرفة ادرك من مجرد النظر الى وجه فلورندا انها مصونة سالمة . فلم يبق لهُ الاَّ ان يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم لغرضين : اولاً لاطلاق سراح فلورندا والثاني لتوبيخهِ على ذلك الامر العظيم وهو لا يبالي اغضبهُ ذلك ام ارضاه . ففعل وكان ما كان من غضب رودريك وخروجه على تلك الصورة وهو ينوي الانتقام وخصوصًا بعد ان عاد الى قصر فلورندا فلم يجد لها ولا للعجوز اثرًا

الفصل التاسع والعشرون

الانتقام

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منهُ مأخذًا عظيماً والاب مرتين يتبعهُ وهو يتمتم ويهز رأسهُ على مرأى من الملك استغرابًا من (وقاحة) اوباس . وكان يظن الملك لا يفارقهُ تلك الليلة حتى يتآمروا على الايقاع بأوباس ولكنهُ ما لبث ان رأى رودريك تحوَّل عنهُ راجعًا الى غرفتهِ فجلس هو على مقعد في احدى طرقات القصر لا بدَّ للملك اذا عاد من المرور بهِ فلما أبطأ الملك سار مرتين الى غرفتهِ

واما رودريك فانهُ انما رجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقًا وكيدًا ولا تسل عن حالهِ لما لم يجد احدًا في كل ذلك القصر ورأى حجرة فلورندا مشوشة بما حمل منها من الادوات الخفيفة الحمل والغالية الثمن

رجع رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظًا و بعث الى قيم قصره في تلك الساعة فجاءه . فابتدره الملك بالسؤال عمن خرج من ذلك القصر في تلك الليلة . فاهتم القيم بالامر واستفهم الخدم فقالوا انهم يقيمون في الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود الى فوق مطلقًا وهم على ثقة ان باب القصر لم يفتح في تلك الليلة وانهم لم يروا أحدًا خارجًا من مكان آخر لان الظلام كان مخيماً وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجًا . فسألوا الخفراء فكان عذرهم انشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل . واخيرًا بحثوا في الطريقة التي يمكن الفرار بها فاذا هي من النافذة المطلة على النهر ورأوا على نواتئ الاغصان اليابسة نتفًا من الفرو تناثر من اهداب قباء فلورندا

فتحقق رودريك عندئذ ان اوباس مشارك لها في ذلك الفرار . فحمي غضبه عليه وعوّل على الايقاع به فعاد وقد انهكه التعب واثر الفشل في عزائمه فأحس كأنه أفاق من سكرة فأحب الخلوة فذهب الى فراشه فتقلب على مثل الجمر ولم يستطع رقادًا وقلبه يتقد حنقًا من اوباس فلم يرما يفرج كربته الا باستدعاء مرتين وهو مستودع أسراره . فنهض من الفراش حتى لقي أحد الحراس الواقفين ببابه فأمره ان يستقدم الاب مرتين على عجل ولو كان في فراشه

فذهب الحارس حتى قرع باب مرتين . وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس في الفراش وبدأ بصلاة النوم . فوقف الرجل خارجًا حتى فرغ الاب من الصلاة ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملك باستقدامه . ففرح لعلمه انه لم يدعه الا للايقاع باوباس فنهض للحال وهو لا يزال بذلك اللباس وتزمل فوقه بقباء واسع من الفرو . ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشًا ابيض كأنه كتلة من القطن فوق رأسه . ومشى حتى دخل على الملك وكان رودريك أيضًا في نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه في الفراش وقد اختلطت ضفائر رأسه بشعر لحيته وشاربيه واثر الغضب والفشل في سحنته . فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته فنهض لاستقباله وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول « ارجوان يكون جلالة الملك قد دعاني لامر يسره »

قال « لا أظنك تجهل السبب الذي دعونك من اجله . . . وقد كنت في هذا المساء ناظرًا سامعًا لما كان من اوباس . . . »

فرأى مرتين من باب التمليق ان يقطع كلام الملك ويقول « انها وقاحة غريبة ولبس أغرب منها الا صبر جلالة الملك عليها . . . . »

فقال رودريك «انها بالحقيقة وقاحة لم اكن اتوقعها من قوم قد أذقناهم الذل واخذنا الحكم من أيديهم ... الا يخاف اوباس غضبي ..؟».

فقال مرتين «اظن جلالة الملك لم ينتبه لمحوى اقواله . واوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر واذا قال كلمة يجب التمعن في فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يلقي الكلام جزافًا .. الم تسمع قوله لجلالتكم : اذا كان لنا مطمع في الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك — انها جسارة غريبة تدل على ما يعده من الشراك والمكايد ... ولا اظنه الاّ يعقد المجالس السرية ويعاقد الاعداء على خلع الملك ... ولكنه خائب لا محالة ...»

واحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لانه اكتشف بابًا لاتهام اوباس والقبض عليه وعلى من في منزله لعله يجد فلورندا بينهم وقد غلب على خاطره انها فرّت الى هناك اذ ليس لها من الاقارب احد . وخصوصًا بعد ما عاينه من القرائن الكثيرة فقال « ما الرأي يا حضرة الاب في هذا الخائن ؟ .. »

قال « الراي ان نقبض عليه حالاً في هذه الساعة قبل ان يتأهب اوبدس الدسائس .. لانه خرج من قصرك وهو يتهددك .. فلا تكن هينًا .. والحلم في هذا المقام ضعفٌ .. »

ولم يكن رودريك في حاجة الى هذا التحريض وهو اكثر رغبة في ذلك . ولكنه زاد على راي مرتين ان يقبض على اهل بيته ايضًا ويسوقهم الى السجن لعلهم يكتشفون على دسيسة جديدة فقال الحيّ « بقائد الحرس الملكي »

فخرج مرتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد وعاد الى غرفة الملك

الفصل الثلاثون

اوباس في قصره

اما اوباس فانه لما خرج الملك من بين يديه نهض هو وسار على عجل الى منزله لموافاة فلورنداً والخادمين وتدبير وسيلة لاخراجها تلك الليلة من طليطلة فوصل منزله وسأل

الخدم هل جاء احد للسؤال عنهُ . فقالوا كلاّ . فانشغل خاطره لاعتقاده إنهم كان يجب ان يسبقوه الى هناك لو لم يكن اصابهم سوء او اعاقهم امرٌ هام . فاعمل فكرتهُ وعلل نفسهُ بقرب وصولهم حتى ملّ الانتظار فعول على الخروج بنفسهِ للبحث عنهم في الطريق الذي كان يتوقع ان يجيئوا فيهِ لكنهُ ما ابث ان سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول امام القصر فظنهم جاؤُا على افراس فنهض للحال واطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكاً فرأى جماعة على افراس دنوا من القصر واحدقوا بهِ عن بعد ولم يخاطبوا احداً من اهلهِ . ولم يستطع لشدة الظلام ان يتبين الوجوه ولكنهُ ادرك بفراستهِ انهم من رجال رودريك وقد جاؤُوا لامر يوجب قلقاً . على انهُ لم يخف على نفسهِ لرباطة جاشهِ ولاعتقاده ببراءة ساحتهِ واعتماده على عزيمتهِ وقوة حجتهِ ولكنهُ خاف على فلورندا ورفاقها اذا جاؤُا في تلك الساعة فانهم يقعون في الشراك لا محالة

واعمل فكرتهُ هنيئة فرأى المبادرة الى العمل اولى فتحول الى غرفتهِ فتزمل بالقباء وخرج الى الباب ونادى اقرب فارس اليهِ . فجاءهُ وترجل وحياه باحترام . فقال لهُ اوباس « ما الذي تفعلونهُ هنا »

قال « انبا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح »

قال « ومن امركم بذلك ؟ . . »

فسكت الرجل وحول وجههُ الى جهة اخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة فجاء الاخر وترجل وحيا اوباس وهم بتقبيل يدهِ . فاجتذب اوباس يدهُ بعنف وقال « من امركم بالوقوف هنا وما الغرض منهُ ؟ »

قال « امرنا بهِ من ينوب عن الملك . . ولماذا اقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك . . . ؟ ثم مستريحًا »

قال بنغمتهِ الهادئة الاعتيادية « افصح ياجدي عن الغرض من وقوفكم هنا او ارجعوا من حيث اتيتم »

فقال وهو يخفض صوتهُ تهيبًا من اوباس « اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمون بالخروج من هذا المنزل . . »

فاستشاط اوباس غضبًا ولكنهُ ظل هادئًا وقال « مأمورون بالقبض عليّ . ومن امركم بذلك ؟ . . »

قال « يعذرني مولاي فاني مامور لا يسعني الاّ الطاعة . . اننا مأمورون من

قائدنا الاكبر بناء على امر جلالة الملك فهل نستطيع مخالفة الامر ؟ ٠٠»

قال « كلاَّ ٠ بل انا أحرضكم على الطاعة دائمًا ٠٠» قال ذلك واعمل فكرتهُ للمسارعة في الامر خوفًا من وصول فلورندا في تلك الساعة فقال « اني خارج الساعة معكم ولا حاجة بكم الى انتظار الصباح »

قال الرجل « وما في الامر يامولاي ما يدعو الى هذا القلق ٠ فلو مكثت في منزلك شهرًا ما مسساك »

قال « بل أنا خارج الساعة ٠٠٠ هلمَّ بنا »

فاشار الضابط الى فرسانهِ اشارة يفهمونها فتجمهروا وانوا بجواد ركب اوباس عليهِ وساروا بهِ وهو في وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم في حضرتهِ

اما هو فكان في أثناء الطريق يفكر في الامر الذي ساقوهُ لاجلهِ وقد عزم على الثبات والتعقل ٠ غير ان ذهنهُ ما زال مشتغلاً بفلورندا وخاف ان يلتقوا بها في ذلك الطريق لكنهم بلغوا القصر ولم يروا أحدًا

فلما وصل اوباس الى قصر الملك عوَّل ان يترجل فاشار اليهِ الضابط انهم مأمورون بسوقهِ الى مخفر بقرب القصر الى الصباح — قال الضابط « ولهذا السبب قلت لقدسكم ان تبقى في منزلكم الى الصباح اردنا بذلك المحافظة على راحتكم ٠٠ »

فاقتنع رودريك باخلاء الطريق لفلورندا ولو ألحق بنفسهِ بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منهُ ٠ فدخل غرفة في بيت بجانب القصر وظل الحرس بالباب

قضى اوباس بقية ذلك الليل وهو يخطر في تلك الغرفة ذهابًا وإيابًا ويفكر في ماذا عسى ان يكون غرض الملك من تلك الدعوة على هذه الصورة ٠ وخطرت لهُ خواطر كثيرة وتهمُّهُ شتى ربما يتهمهُ رودريك بها ٠ ولكنهُ سرَّ بما توهمهُ من نجاة فلورندا واما هو فلم يكن ليخاف موقفًا ولا يهاب خطرًا في سبيل الحق والحرية — والرجل الحرُّ لا يهولهُ موقف ولا يتهيب من سؤَال وهو محترم حتى من اعدائه الاَّ انهُ قد يكون في خطر من دسائس المدلسين او استبداد الظالمين

الفصل الحادي والثلاثون

البلاغ

وما صدق اوباس بطلوع الفجر وتبدد جوش الظلام رغبةً منهُ في الاطلاع على سرّ هذه الدعوة . فمضى بعض النهار ولم يطلبهُ أحد فازداد قلقهُ فاستدعى رئيس الخفراء وهو الضابط المعهود فمثل بين يديهِ فقال لهُ اوباس « وماذا عسى ان يكون آخر هذا الامر ... »

فقال « لا ادري يا مولاي فعسى ان يكون آيلاً الى الخير ... ولو عرفت سر ذلك ما اخفيتهُ عن سيادتكم »

قال « اني في حاجة الى منزلي فاذا لم يكن ثمة سرعة في المقابلة فليطلقوا سبيلي الى منزلي ثم اذا أراد الملك مني أمرًا جئتهُ ... »

فنظر الضابط الى اوباس وفي عينيهِ خبرٌ يتردد بين كتمانهِ واظهارهِ . فادرك اوباس ذلك فيهِ فقال « ما الذي تضمره قل ... »

فقال « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيهِ احدًا ... »

فبغت اوباس وقال « وكيف ذلك ... »

قال « لانهم قبضوا على كل من حواه ذلك المنزل من الخدم والعبيد وهم في السجن الآن وابواب المنزل مقفلة . »

فلما سمع اوباس قولهُ تحقق عزم الملك على الفتك بهِ جهارًا ولولا رزانتهُ وتعقلهُ لبدت البغتة على وجههِ . ومما زاد قلقهُ خوفهُ على فلورندا وقد تبادر الى ذهنهِ انهم لم يقبضوا على اهل منزلهِ الاَّ لانهم رأوا فيهِ فلورندا — على انهُ لم يبالِ بتفاصيل الحكاية ولكنهُ نظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل « لا ينفعهم ذلك شيئًا ... » ثم تحوّل الى الداخل . فخرج الضابط الى مكانهِ

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل اوباس وعائلتهِ ولكنهُ كان ككثر رجال الدولة مسابقين مع التيار الاكبر يرون الحق ويقولونهُ ولكنهم لا يفعلون بهِ — شأن الدول في ادوار انحلالها وتقهقرها فانها لا تخلو في اثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء

يشعرون بما اصاب دولتهم من الخلل وينتقدون اعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ويزعمون انهم لو أتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لادخلوا في الحكومة اصلاحًا كبيرًا . فاذا تولى احدهم رأى نفسه مضطرًا الى مجاراة تيار الاحوال العامة كما فعل اسلافه واذا حاول مقاومة ذلك التيار عرض نفسه للخطر . ويندر ان يطول بقاؤهُ على عزمه القديم وهو في منصبه لعجزه وهو فردٌ عن مقاومة مجاري الاحوال — وهي انما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالي الاجيال — والبدن اذا بلي الضعف من الهرم لا يرجى عودهُ الى الشباب . الاَّ ان يكون المصلح في اكبر المناصب فقد يأتي باصلاح ذي بال ولكنهُ يذهب بذهابه

وقد كان في طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المتطرق الى الدولة ولكنهم لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . واما صغار المستخدمين فليس لهم الاَّ التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط

رجع اوباس الى مقعد في تلك الغرفة فقعد عليه واستغرق في الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيًا اليه بالطعام تحقق ان مكثهُ سيطول هناك وتزايد قلقهُ فأبى الطعام ورد المائدة واستقدم الضابط وقال لهُ « اني لا استطيع طعامًا قبل ان اعرف سبب هذه المعاملة فهل لك ان تستطلع ذلك من احد ؟ »

فقال « أرى يا مولاي ان تكتب كتابًا احملهُ الى مجلس الملك لعلي آتيك بالجواب الشافي . . »

فاستخرج اوباس من جيبه لوحًا مشمعًا كتب عليه بالمسمار ما معناهُ « حملني جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفتهُ والملك يعلم ان رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة وانما هم تحت سيطرة الكنيسة فلا ادري سبب هذا السجن . . . الاَّ ان يكون ذلك من جملة ما تطرق الى حياة هذه الدولة . . . »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر . ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول « ان الاب مرتين داخل لمقابلة قدسكم »

فلم يسرَّ اوباس لذلك الخبر الاَّ على رجاء ان يستطلع منهُ سبب ذلك الامر وقد علم انهُ آتٍ بأمر الملك بهذا الشأن . فظلَّ اوباس جالسًا فدخل مرتين مهرولاً وهو يتمتم كأنهُ يتلو بعض الادعية حتى وقف بين يدي اوباس فحياه وهمَّ كأنهُ يريد تقبيل يده باعتبار رتبته الكهنوتية . فلم يبال اوباس بكل ذلك بل ظلَّ ساكتًا . فجاس

مرتين على كرسي تجاه المقعد وهو يبتسم ووجهه يتهلل فرحًا — ولا يفرح الانسان بشيء اكثر من فرحهِ بفوزه على عدوّه حتى قالوا — ان السعادة في النصر

وبعد ان تنحنح الاب مرارًا ومسح وجههُ ولحيتهُ غير مرة استعدادًا للكلام كأنهُ يهمُّ بالتلفظ وتحول عقدة لسانهِ دون الافصاح الى ان فتح عليهِ فقال وهو يقطع الكلام قطعًا « قد بعثني جلالة الملك لابلغ قدسكم انهُ يعلم امتيازات الكهنة وانهُ لا يجوز سجنهم او محاكمتهم الاَّ في مجالس كهنوتية ولكنهُ انما امر بالقبض عليك موقتًا ريثما يلتئم مجلس الاساقفة وهم ينظرون في امرك ... »

فلما سمع اوباس قولهُ زاد استغرابًا ولم يفهم المراد تمامًا لان مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة في السنة او مرتين[1] ولا يجتمع غير اجتماعاتهِ المعينة الاَّ للنظر في امور في غاية الاهمية كانتخاب الملك او البحث في خطر يتهدد المملكة او غير ذلك . واجتماع هذا المجمع يقتضي مكاتبة اساقفة الاقاليم والمطارنة مما يستغرق اياما عديدة . فأطرق اوباس واعمل فكرتهُ في هذا الامر ولم يجب

وكان الاب مرتين لما فرغ من قولهِ ثبت بصره في اوباس ليستطلع ما يبدو منهُ وكان يتوقع استياءهُ وغضبهُ ليشفي ما في نفسهِ — لان من يتعمد اهانتك اذا لم يرَ قولهُ اغضبك ترجع تلك الاهانة اليهِ ويشق ذلك عليهِ . فلما رأى مرتين ان اوباس لا يزال كما كان ولم تظهر عليهِ علامات الاضطراب ولا احتد ولا اجاب باعتراض ولا استفهام توهم ان ذلك ناتج عن عدم ادراكهِ خطر الامر الذي يترتب على ذلك الاجتماع فقال « ولا يخفى على قدسكم ان جمع الاساقفة يقتضي زمنًا طويلاً واما الآن فبالنظر الى مجيء اكثرهم الى طليطلة لتهنئة جلالة الملك بعيد الميلاد لا يطول الانتظار في جمع المجمع ... فلا تضجر .. »

فظل اوباس هادئًا ولم يقل شيئًا لانهُ كان قد ادرك ذلك من تلقاء نفسهِ

ولما رآه مرتين لا يزال ساكنًا رابط الجأش جاشت قدور صدره واشتد غيظهُ فأراد ان يلمح لهُ بالتهمة الموجهة نحوه فقال « ويسؤني يا حضرة المنير والوليت ان يفرط منكم أقوال تدعو الى اساءة ظن الملك كما فعلتم في مساء الامس .... وهل يليق بمثلكم ان يهدد جلالة الملك بالخلع .... ؟ ولولا وجودي وسماعي ذلك القول باذني لم اصدقهُ ... ثم انكم لمحتم بمثل ذلك ايضًا في كتابكم اليهِ الآن »

---

(١) تاريخ اسبانيا لروبي ج ٢

الفصل الثاني والثلاثون

توقع المصيبة شرٌّ من وقوعها

فادرك اوباس انهم بريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك . فاستعظم التهمة ولكن باله ارتاح لاستقراره على حقيقة الخبر — والانسان اكثر قلقًا في اثناء انتظار الخبر ما هو بعد سماعه ولذلك قالوا « توقع المصيبة شرٌّ من وقوعها » — فلما وقف اوباس على سرّ الامر لم ير فائدة من الكلام مع مرتين في هذا الشأن فضلاً عن انه يشفي غلة بذلك الكلام . فوقف بهدو ورزانة وقال « صبرًا الى يوم الاجتماع ... وكأن رودريك لا يريد ان يبقى عندي شك بقرب سقوط دولته فزادني بعمله يقينًا بدنو اجلها .. » قال ذلك ومشى ولم يترك للاب مرتين فرصة للجواب

اما مرتين فانه نهض بنهوض اوباس وقال وهو يظهر الشفقة عليه « لا تزال تقول ذلك ... يا للعجب ... كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته وانتم تعلمون ان الكنيسة هي التي نصبته باجماع أساقفتها ... »

فادرك اوباس انه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله فتركه يتكلم وتحوّل عنه وولى وجهه نافذة تطل على الحديقة

فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعًا نحو الباب وهو ينادي الضابط فلما حضر بين يديه قال له « يأمرك الملك ان تحتفظ بهذا السجين لان امره ذو شأن واحذر ان يفلت منك ... » !

فاشار الضابط برأسه ان « حاضر » وخرج الاب مرتين ظافرًا منتصرًا لولا ما ساءه من رباطة جاش أوباس وتأنيه وصبره . وكان يود ان يرى منه حدة او غضبًا ليوسعه تانيبًا ويشفي غليلة منه

اما اوباس فانه عاد الى اعمال الفكرة وباله لا يزال مشغولا على فلورندا فتذكر الكونت وخروجه بالامس لقيادة الجند فاراد الاستفهام عن مقره فعاد الى الباب واستدعى الضابط فوقف بين يديه فقال له « هل علمت بخروج الامير الكونت من طليطلة .. ؟ »

قال « علمت ان فرقة خرجت من طليطلة بالامس ولا ادري اذا كان الامير معها »

فترجح لاوباس ان الفونس سافر مع تلك الفرقة ولكنهُ ظلّ منشغل الخاطر بفلورندا لا يدري ما آل اليهِ امرها وخاف ان تكون وقعت في الاسر في جملة اهل منزلهِ وانهم انما قبضوا عليهم من اجلها — وودّ لو استطاع استطلاع امرها من احد وحدثتهُ نفسهُ ان يستفهم الضابط ولكنهُ خاف عاقبة ذلك بالنظر لتوجيهِ تلك التهمة ايهِ . ولم يغرهِ ما بدا من انس الضابط وحسن ظنهِ لعلمهِ ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون واقل منهم الذين يثبتون على عزمهم في ما يدعوهم اليهِ ضميرهم — فخاف اوباس اذا كاشف الضابط بحديث فلورندا او تظاهر لديهِ بالاهتمام بها ان يبوح بذلك لدى احد فيتخذوه حجة عليهِ مع اعتقاده ان الضابط مخلص لهُ ولكنهُ عول على سوء الظن وعدّ الناس كلهم جواسيس عليهِ

قضى اوباس في محبسهِ بضعة ايام وهو ينتظر التآم المجمع ولم يتوفق الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ولا اتفق لهُ سماع شيء عنها فترجح لديهِ انهم قبضوا عليها وعادوا بها الى قصر الملك . فلما تصوّر ذلك اقشعرّ بدنهُ ونسي الخطر الذي يهدد حياتهُ

الفصل الثالث والثلاثون

الموكب

أصبح اهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع وخصوصاً الشارع الكبير المؤدي من قصر الملك الى الكنيسة الكبرى . واشتغل العبيد بكنس الشوارع وتنظيفها ووقف الحرس صفين بين القصر والكنيسة وفي ايديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التي يلبسونها في الاحتفالات الكبرى . فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير وتطاولوا من النوافذ واشرفوا عن السطوح يتوقعون مشهداً جميلاً او منظراً ذات بال وكان يوماً صاحياً تجلت بهِ الشمس على ابنية طليطلة ونهرها وبساتينها

وفي الضحى عج الشارع بالضوضاء فالتفت الناس فاذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملوكي باللباس الجديد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة باخلاء السبيل

لموكب الملك وعلى بضعة عشر مترًا وراءهم زمرة من الشمامسة بالالبسة الزاهية يتخللها الوشي المذهب بعضهم يحملون صلبانًا قائمة على عمد والبعض الآخر يحملون الشموع وقلما يظهر نورها لطلوع الشمس على ان اكثرها طفيء بهبوب الرياح — لان طقس الشتاء في طليطلة وإن كان صافيًا فانهُ لايخلو من الريح الهابة لوقوعها على جبل · وبعضهم كان يحمل اغصانًا من الزيتون وآخرون في ايديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية · وبعد حملة الشموع فرسٌ عليهِ رودريك بتاجه وحوله الاساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس · ووراء ذلك كوكبة من الفرسان · فلما رأى اهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قادمون للاجتماع ولكنهم استغربوا اجتماعهم في ذلك الحين وما هو وقت الاجتماع · لانهم كانوا يجتمعون اجتماعهم السنوي في وقت معين من العام · فانشغلت الخواطر واضطرب الناس لان المجمع لا يجتمع في غير ميعاده الاَّ لامر مهم جدًّا · ومضي عليهِ زمن لا يجتمع الاَّ لغرض مهم

وكانت المجامع الدينية في اسبانيا ثلاث درجات (١) المجامع الكبري (٢) المجامع الاقليمية (٣) المجامع الابرشية [(١)] · فالاولى تجتمع بأمر الملك في طليطلة للنظر في الامور الهامة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك او المصادقة على قانون او نحو ذلك مثل اجتماعه في ذلك اليوم للنظر في التهمة الموجهة الى اوباس · والمجامع الاقليمية تجتمع في الاقاليم بأمر الاساقفة مرة او مرتين في السنة · والمجامع الابرشية يحضرها رؤساء الديور والقسوس والشمامسة ونحوهم · فلما رأى أهل طليطلة الاهتمام بجمع هذا المجمع خافوا ان يكون هناك ما يتعلق في حرب او عزل او تولية

أما الموكب فظلَّ سائرًا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى كل من الجانبين ثم انقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسمين دخل كل قسم من باب جانبي وترجل الملك والاساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الاوسط

وكان خدمة الكنيسة قد نهضوا مع طلوع الشمس واشتغلوا في التنظيف ووضعوا المقاعد والكراسي في الترتيب اللازم في هذا الاجتماع · وانارول الشموع وفتحوا الابواب ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من اراد الدخول من العامة او من سواهم اذا لم يكونوا ممن يخوَّل لهم حضور المجامع والذين يجوز لهم حضورها هم : (١) اساقفة طليطلة

---

(١) روبي ج ٢

والاقاليم المشتركة معها (٢) المطارنة الميترو بوليت (٣) روساء الدبور (٤) الشمامسة والخوارنة (٥) بعض رجال البلاط الملوكي (٦) الملك

فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسهُ . وكانت المقاعد قد ترتبت صفوفًا متعاقبة جلس الاساقفة على الاولى منها وترتبوا عليها باعتبار الاعمار . ووراءهم الاساقفة الصغار وهؤلاء جلسوا بحسب الاعمار ايضًا وجلس وراءهم القسوس — والشمامسة وقوف بين ايديهم . وفي وسط القاعة امام تلك المقاعد كرسي خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف اعدوهُ للملك وبين يدي العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك . اما الاب مرتين فكان يجب باعتبار كونهِ قسيسًا ان يجلس بين القسوس وربما كان في مقدمتهم جميعًا لكبر سنهِ ولكنهُ فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى على القارىء

الفصل الرابع والثلاثون

الجلسة

فلما استقر كل واحد في مجلسهِ اقفلت ابواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى . وظل السكوت سائدًا برهة لا ينطق أحد بكلمة . ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة من على كرسي بجانب الهيكل فقال باللاتينية (Oremus) أي « فلنصلِّ » وكان لقولهِ صدى قويٌّ . ولم يكد ينطق بتلك اللفظة حتى انتصب الجمع سجدًا على ركبهم واخذ كل منهم يصلي لنفسهِ بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم اكبر الاساقفة سنًّا بصلاة قالها بأعلى صوتهِ فاصغوا لهُ ولما فرغ منها صاح الجميع « آمين » ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية (Surgite fratres) أي « انهضوا ايها الاخوة » فنهضوا وعاد كل الى مجلسهِ . وبعد ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن باله واحد الخ) على ما تقرر في مجامع القسطنطينية وختم التلاوة بعبارة تدل على الاعتراف بالمجامع المسكونية الاربعة [1]

[1] روميح ٣

ثم وقف شماس عليهِ ثوب أبيض ناصع وبين يديهِ كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب في مكانٍ اختاره . وكان الأساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منهُ موضوع الاجتماع — لان ذلك الكتاب قانون المملكة وعادتهم اذا التأم المجمع ان يتلو الشماس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من أجلهِ — فاذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى في افساد نيات الشعب عليهِ أو يتعمد خلعهُ ونحو ذلك . فأدرك الجميع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب

ولما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابهُ الى الحضور وقال « ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما يتراءى لكم هادئة ولكنني أبلغ قدسكم اننا اجتمعنا للنظر في تهمة موجهة الى أخ من اخوتنا — وللاسف انهُ اسقف من الاساقفة . وربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انهُ مقيم في طليطلة — لاشك انكم عرفتموه . . » فلما قال الكاتب ذلك ضج الاساقفة وتهامسوا في شأن اوباس واكثرهم لم يستغرب اتهامهُ بخلع رودريك لما يعلمونهُ من علاقتهِ بالملك السابق وطمعهِ بالملك لابنائهِ — ثم قال الكاتب « وسنستقدمهُ ويقف بين ايديكم وقفة المتهم فاما ان يبرئ نفسهُ أو يجري عليهِ القصاص »

فلما فرغ الكاتب من كلامهِ تكلم أحد الاساقفة الجالسين في المقعد الاول وقال « لابد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليهِ . فقد علمنا ان المتهم هو اخونا المترو بوليت اوباس ولكننا لم نعلم من يتهمهُ بذلك . . . »

فأجاب الكاتب « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم اوباس وسماع محاكمتهِ . فانفرد أحد الشمامسة ومشى الى غرفة تستطرق الى باب سري فتوجهت انظار الاساقفة الى تلك الجهة ثم مالبثوا ان رأوا اوباس داخلاً بمشيتهِ المعهودة وقامتهِ المعتدلة وجلال محياه وهيبتهِ وليس على وجههِ شيء من دلائل الاضطراب او الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى امام مجالس الاساقفة اجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الاب مرتين انتباههُ كأنهُ لم يكن موجوداً هناك

الفصل الخامس والثلاثون

المحاكمة

وقف اوباس هناك وقفة قاض وليس وقفة متهم . وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى اناس ضعفاء. ولم يهمه عددهم ولا ما في أيديهم من السلطة النافذة وخصوصاً الملك فان اوباس كان يعده غلاماً غرًّا وزاد احتقارًا له بعد ما عاينه من أمره مع فلورندا — والرجل الحرُّ يقدّر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم وان كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ولكنهم لا يزالون في باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة ولا يعدون احترامهم لغيرهم الا مظاهرة خوفًا من الظلم أو التماسًا للنفع . على ان منهم من يبالغ في اطراء أهل النفوذ حتى ينخدعوا بانفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر اولئك المملقين في بلاط ملك ضعيف اغترَّ بنفسهِ وانقاد لاهوائهِ وعمل بشوراتهم — والمملقون لا يصلحون للشورى — فتنحلُّ الامور ويسود أهل الفساد وتأول الاحوال الى الدمار والعياذ بالله

وكان اوباس ممن لا يذعنون الا للحقيقة ولا يخيفه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حيٌّ لنفسهِ رغبة في الحياة الدنيا او طمعًا بمناصبها او ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل العالم وانتظم في سلك الكهنة انه انما يعيش عبدًا لمبداء يراه مجسماً في مخيلتهِ ويستغرب تغافل الناس عنه — كان يرى نفسه اسيرًا للحق عبدًا للحقيقة وحرية الفكر لا يعرف المداهنة ولا المراوغة — فلا تعجب اذا رأيته واقفًا في ذلك المجلس غير هياب وهو يرى الحق أعظم منهم واشد هيبةً

فلما وقف اوباس وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلاً «ابلغ سيادتكم اننا استقدمناكم الى هذا المجمع بحضرة الميتروبوليت لتهمة موجهة اليكم وكل واحد منا يتمنى ان تكون باطلة وتتبرأ ساحتكم . . . انكم متهمون بالمؤامرة على خلع جلالة الملك . . ولا يخفى على سيادتكم ان مثل هذه التهمة لا تمس جلالة الملك فقط بل هي تتناول هذا المجلس كله — لانه هو الذي انتخبه واقره . . . »

وكان الاب مرتين في اثناء كلام الكاتب شاخصاً بعينيهِ متطاولاً بعنقهِ . فلما سمعه

يقول ذلك أشار باطباق جفنيهِ وهز رأسهُ ان « احسنت » لانهُ حسب ذلك يزيد نقمة الاساقفة وسائر أعضاء المجمع عليهِ

أما اوباس فلم يكن يعبأ بما يبدو من أحد فلما فرغ الكاتب من كلامهِ استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الاعناق لسماع ما يقولهُ اوباس فاذا هو يقول بصوت هادئ « سمعت كلامك وما تقولهُ من أمر اتهامي ولكنني لا أجيب عليهِ قبل ان اعرف الرجل الذي يتهمني ... »

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسهُ كأنهُ يقول « جلالة الملك نفسهُ .. »

فقال اوباس « وما هي أدلتهُ على ثبوت هذه التهمة » فاراد الاب مرتين ان يقلد اوباس برباطة جاشهِ وتأنيهِ فظل جالسًا والتفت الى الاساقفة لفتة الاستخفاف والتهكم واخرج شفتيهِ من غورها وزمها واصعد حاجبيهِ وهز رأسهُ كأنهُ يقول لهم « اسمعوا قول هذا الغبي كيف يطلب من الملك شاهدًا على قولهِ .. »

اما الكاتب فلم يسعهُ الاَّ الالتفات الى رودريك كانهُ ينتظر جوابهُ على قول اوباس . فاشار الملك الى الاب مرتين ان يجيبهُ . فوقف مرتين وقد نسي التأني ورباطة الجاش وعاد الى فطرتهِ العجولة . فلما رآه الاساقفة يهم بالكلام اصاخوا باسماعهم لما يقولهُ لئلا تفوتهم اللفظة بالتمتمة فلا يفهمون مراده — وعلى جوابهِ سيبنون حكمهم . اما هو فقال « انطلب الادلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها . يكفي انكم منذ كان الملك السابق حيًّا لا تزالون تسعون في خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الاريوسية وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعًا . فاخذتم تبذلون كل مرتخص وغالٍ في مقاومتهِ ولكنهُ مؤيد من الله والكنيسة . ومن عجيب امرك انك تطلب الشهادة على صدق قول جلالتهِ .. » ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامهِ المتقطع — فالتفت اوباس الى الحضور وهو يبتسم وقال « بل من الغرائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو اسقف يحمل جسد الله بين يديهِ ... تهمة اقل ما يقال فيها انها مختلقة — نعم مختلقة ولو قالها جلالة الملك لان الحق فوق الملوك والاساقفة — ثم لا ادري ما الذي يسوغ هذه التهمة ... كيف يقال اني تآمرت على خلع هذا الملك ... فمع من تآمرت واين وكيف — وهل تكون المؤامرة او التواطؤ الا بين جماعة .. فمن هم رفقائي في التهمة .. ؟ انهُ قول غير معقول ... لا اقول ذلك فرارًا من العقاب لان العقاب لا يهمني .. »

الفصل السادس والثلاثون

التصريح

فلم يصبر الملك عن جوابهِ بنفسهِ فقال وقد حملق عينيهِ واقطب حاجبيهِ « يا للعجب من هذه الوقاحة كيف تنكر هذا الامر وقد سمعتك باذني هذه وانت تهددني بقرب انقضاء هذه الدولة وانهُ يهون عليكم اخراج هذا الامر من يدي ... هل تنكر ذلك ... ؟ وقد سمعهُ الاب مرتين ايضاً .. فهل من دليل اوضح من هذا ... ؟ »

وكان الاساقفة وهم يسمعون الاقوال ميالين الى التصديق لاسبابٍ منها ان اكثرهم يكرهون او باس لحرية ضميرهِ وشدتهِ في الحق ولانهُ قوطي . ناهيك بالقرائن التي تساعد على ثبوت التهمة لان اهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة اجمعين لرودريك وكل من يقول بقولهِ وخصوصاً الاساقفة لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسهِ وشهادة قسيسهِ مالوا الى الحكم على اوباس وزد على ذلك انهم كان يمكنهم الحكم عليهِ بدون محاكمة ولكنهم اجتمعوا ذلك الاجتماع ليقضوا بهِ شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامهِ وجهوا ابصارهم نحو اوباس ليسمعوا قولهُ . فرأوهُ لا يزال على ثباتهِ ورباطة جأشهِ . وقبل ان يشرع في الجواب اعترضهُ احد الاساقفة قائلاً « اني لاعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك وتنصيبهُ انما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدَّعون الحق لابناء غيطشة او غيره من اعضاء عائلتهِ في الملك انما هم مخطئون . لان الملك في اسبانيا الآن انتخابيٌّ كما لا يخفى على سيادتكم . ولا يجلس على هذا العرش الاَّ الذي ينتخبهُ هذا المجمع المقدس .. فهل تنكرون ان جلالة الملك منتخب على هذه الصورة .. ؟ »

فلما سمع اوباس ذلك ادرك انهم يحاولون ايقاعه فلم يبال وعوَّل على الجولان في الموضوع الى آخره فقال — وقد وجه خطابهُ نحو ذلك الاسقف « ان هذا السؤال يا حضرة الاسقف خارج عن موضوع التهمة ومع ذلك فاني اجيبك عليهِ . نعم ان هذه المملكة اكثر ممالك اوربا خضوعاً للكنيسة واساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت . ولا انكر ان جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابهُ كان قانونياً وان كنت لا اعتقد ان المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم اليهِ مما

لا اخوض فيهِ الآن . ولكنني لا اخفي عنكم ايها السادة انني ارى الكنيسة قد تمادت بسلطتها في هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدَّها — اقول ذلك وانا من اعضاء الكنيسة ولا اظن احداً منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقدهُ لانهُ يغاير مصلحتهُ . . . »

وكان الاب مرتين لما سمع تعريض اوباس بالمجمع في الانتخاب اشار الى الكاتب ان يدون ذلك القول امامهُ ليطالبهُ بهِ . . فعل

اما الاسقف الذي كان الكلام موجهاً اليهِ فأجاب قائلاً « يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة وهل يخفى عليك ان الكنيسة الكاثوليكية هي التي حفظت النظام والتمدن في هذه القارة . وقد جاء اجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم واكثرهم وثنيون فتغلبوا على المملكة الرومانية ونشأوا في مدنها قبائل رحلاً لا علم عندهم ولا تمدن فجمعتهم الكنيسة الى احضانها وهذبت اخلاقهم وجعلتهم امماً وممالك . وهي التي حفظت لهم العلم والحكمة وهي دربتهم في كل شؤونهم السياسية والادارية وكل شيء ولولاها لكانت اوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام [1] »

فهمَّ اوباس في الجواب فدق الكاتب جرساً امامهُ اشارة الى الناس السكوت فسكتوا والتفتوا فرأوا الملك يهمُّ بالكلام فاصغوا . فقال الملك وهو جالس على عرشهِ وصدره يتقدمهُ وشعره مرسل الى كتفيهِ من تحت تاجه « لا حاجة بنا الى الخوض في مسائل لا علاقة لها في الموضوع . . . يكفي ما قد سمعتموه من كلامهِ الآن من استهجان اعمال المجمع في انتخاب الملك وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية . . فمن يصرح بمثل ذلك في مجلس القضاء هل يستغرب اتهامهُ بالمؤامرة . . . . »

فالتفت اوباس الى رودريك قائلا « لا علاقة أيها الملك بين استحساني الانتخاب او استقباحهِ و بين مؤامرة ترعمون اني عقدتها بخلعكم — نعم اني أشك في الطرق القانونية التي اتخذت في هذا الانتخاب ولكنني لم ابن عليها مؤامرة . او على الاقل ان السبب في سوقي الى هذا المجلس ليس هو اعتقادكم اني فعلت شيئاً من ذلك . . . »

فاعترضهُ الاب مرتين قائلاً « وكيف لا يعتقد جلالتهُ ذلك وقد سمعهُ من فيك كما سمعتهُ انا . . . يا للعجب . . . » قال ذلك والتفت الى الملك وقال « يظهر ان امر المجادلة طال والتهمة صريحة واضحة . . . »

---

(١) كيزو : تاريخ تمدن اوربا

الفصل السابع والثلاثون

التحامل

فالتفت الملك الى الاساقفة وقال « قد سمعتم ما قالهُ هذا - فاما ان يكون الملك رودريك تنصب على طليطلة بغير حق او ان اوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق ... » قال ذلك وقد أخذ الغضب منهُ مأخذًا عظيماً حتى نزل من عرشهِ ومشى وهو لا يفقهُ ثم عاد الى كرسيهِ وجلس بعنف

ففهم اوباس انهُ يعرض بتجريدهِ من رتبتهِ الكهنوتية قصاصًا لهُ فقال « لا تظن هذا التهديد يضعف عزمي في قول الحق لاني لست أسقفًا بهذه البدلة ولا أنت ملك بهذا التاج وإنما الاعمال بالنيات ومهما أردتم بي من القصاص فذلك لا يقال شيئًا من اعتقادي . ولكنهُ يزيد ذنبك يا رودريك امام الديان العظيم لأ نهُ سبحانهُ وتعالى يعلم السبب الذي من أجلهِ نقمت عليَّ وسقتني الى هذا المجمع — وانت تعلم وهذا الاب المحترم ايضًا يعلم السبب الذي نقمتما من أجلهِ حتى سقتماني الى هذا الموقف وما أنا هائبٌ موقفًا أراني فيهِ محقاً ولو لم ينصفني الناس فان الله نصيري وهو فاحص القلوب .. »

فلما سمع الملك تعريضهُ بحديث فلورندا خاف ان يحرجوه فيصرح بهِ ويذكر اسمها وحكايتها . فتظاهر الملك بالغضب ووثب من مجلسهِ وصاح فيهِ « ويلك .. ! أبمثل هذا الكلام تخاطب ملك الاسبان ... » ثم التفت الى المجمع وقال لهم اذا كنتم صابرين على اقوالهِ فها اني أخلع نفسي او هو مخلوع من ساعتهِ ... » قال ذلك وتشاغل باصلاح منطقتهِ المذهبة

فقال أوباس وهو لا يزال رابط الجاش « لا بأس ايها الملك اذا انا خلعت هذا الثوب غير ان ذلك لا يغسلك من الرجس الذي تعمدت الانغماس فيهِ ومن أجلهِ سمعت توبيخي فساءك الحق وثقل عليك فأردت الانتقام مني ولكن الله ولي النقمة ... »

فقاطعهُ رئيس الاساقفة قائلاً « ادعوك يا حضرة الميتروبوليت باسم الكنيسة ان تسكت » فلم يسع اوباس غير الاذعان

واستولى على الجلسة السكوت برهةً والكل مطرقون وربما تهامس بعضهم بكلام لا يسمع

لهُ طنين — وكان الاب مرتين في اثناء ذلك يجيل عينيهِ في الاساقفة يتفحص ما يبدو في وجوههم فاذا وقعت عينهُ على عين احدهم اشار بحاجبيهِ وشفتيهِ اشارة الاستهجان وهو يومئ الى اوباس كأنهُ يقول « انظروا ما اوقح هذا الرجل وما هذه الجسارة التي ارتكبها في مثل هذا الموقف المقدس »

اما اوباس فكان واقفًا وقوف رجل بريء الساحة واسع الصدر يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ولكن يظهر من سكون جأشهِ وما يتجلى في وجههِ من الهيبة والانبساط انهُ غير مبالٍ بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة لاعتقادهِ انهُ سيق اليها زورًا وبهتانًا — على انهُ تذكر ما دار بينهُ وبين الفونس قبل سفره وما تواطأا عليهِ من امر الملك ونحوهِ فرأى التهمة تصدق عليهِ من هذا الوجه ولكنهُ راجع ما صدر من اقوالهِ في تلك الجلسة فلم يرَ فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك — وفيما هو يفكر في ذلك وقعت عينهُ على صورة كبيرة معلقة في بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفًا بين يدي بيلاطس للمحاكمة فتذكر قبولهُ الصلب دفاعًا عن الحق فزاد استمساكًا بعروتهِ

اما رودريك فكان قد عاد الى كرسيهِ ولما رأى المجمع ساكتًا خاف ان يعودوا الى البحث في ما وجههُ اوباس من التهمة اليهِ فالتفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن لهُ سلطان ان يدير آراء المجمع كما يشاء « لقد كفانا ما سمعناه واذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظرٍ بعد كل ما بدا لكم من الادلة الصريحة فاني احلُّ هذه الجلسة ونؤَجل البحث الى جلسة اخرى »

فوقف الاب مرتين وقال بلهجتهِ المعلومة ووجه خطابهُ الى رودريك « لا يتبادر الى ذهن مولاي من سكوت سيادتهم انهم يشكون في نطق جلالة الملك او يخامرهم ادنى ريب من ثبوت التهمة على اخينا المتروبوليت بعد الشهادة الصريحة التي نطق بها مولاي ولم ينكرها هو . بل هو ايدها بما فرط منهُ من العبارات الصريحة التي تدلُّ على غضبهِ من هيأة الحكومة الحاضرة وممن كان السبب فيها كأنهُ قال بصريح العبارة ان هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابهِ جلالة الملك . . . » قال ذلك وهو يمضغ الكلام مضغًا ثم يقذفهُ من فيهِ كأنهُ يتثر تبنًا يتطاير على غير نظام فيقع على الثياب والوجوه والناس يطبقون اجفانهم لئلاَّ يقع على عيونهم فيؤْذيها

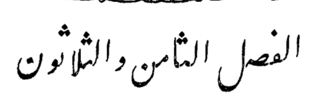
أما اوباس فلما سمع قولهُ وما فيهِ من اثارة الخواطر عليهِ وجه خطابهُ الى رئيس

الاساقفة وقال « قد سمعتم ما قالهُ الاب مرتين — ولا اضمن انكم فهمتموهُ — وكأني بكم تتوقعون انكاري ذلك خوفًا من العقاب. كلاَّ . اني اشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ولو خُيرت ربما اخترت سواه — واما الدعوى التي ستتهموني من اجلها الى هنا فما هي في شيء من ذلك ... ان رودريك هذا الذي تسمونهُ ملكًا انما جمعكم لمحاكمتي واتهمني هذه التهمة لاني نصحت لهُ ان يرجع عن فظيعة همَّ بارتكابها . ولولا خوفي من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها — ولو فعلتُ ذلك وانصفتموني لباشرتم رجم هذا الجاني بأيديكم ... »

فضج المجمع وهاج غضب الملك وخاف زيادة التصريح فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول فانقذه الاب مرتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة « يرى جلالة الملك ان اخانا المتروبوليت قد تهوَّر في اقوالهِ وخرج عن طوره الى الخلط والهذر كانهُ لفرط ما خافهُ من سوء العاقبة لم يفقه ما يقول . ولذلك فجلالة الملك يأمر باقفال الجلسة حالاً وتأْجيل المحاكمة الى جلسة اخرى. ولا يجوز بعد صدور هذا الامر ان يفوه احد في هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية ... »

ونزل كلام الاب مرتين بردًا وسلامًا على رودريك ولم يسع الكاتب الاَّ العمل بالاشارة لان للملك الحق بفتح الجلسة واقفالها دون سواه . ولم يكترث اوباس بذلك بعد ان قال ماقالهُ ولو بالتلميح — ثم وقف رئيس الاساقفة فتلا الصلاة الختامية

وانفضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الاَّ اوباس فانهم ساقوه تحت الحفظ الى مخفر آخر واوصوا الخفراء ان يحتفظوا بهِ



الفصل الثامن والثلاثون

الفونس ويعقوب

فلنتركهُ وشانهُ ولنعد الى الفونس وما كان من امره بعد ذهابهِ بامر الملك . فقد خرج من منزلهِ ومعهُ يعقوب وسارا الى مقر العسكر في بناء كبير بضواحي طليطلة وحولها الفرسان الذين جاؤُا بامر الملك فاوصلوهما الى المعسكر وعادوا

فلما دخل الفونس استقبلهُ الجند بالاحترام فترجل ومشى ويعقوب يسير بين يديهِ وليس معهُ من الخدم سواه وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من اهمالهِ لحيتهُ واثوابهُ حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير فاذا هو بخادم واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجي انهُ من الملك فخفق قلبهُ لفرط ما غاظهُ الكتاب الماضي فدخل ولم يطالبهُ حتى جلس في صدر الحجرة فاستاذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستاذن لهُ فقال لا حاجة الى دخولهِ هات الكتاب منهُ فاخذهُ منهُ وجاء بهِ الى الفونس وهو يقول لا تغضب يامولاي . لعل فيهِ امرًا بالرجوع الى منزلك

فتناول الفونس الكتاب ولم يتكلم ففضهُ فاذا هو من الملك يقول فيهِ :

من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل الفونس

بسم الاب والابن والروح القدس

اما بعد فقد سبق وكتبنا اليك بالذهاب الى كونتية . . ولم نعين لك المدينة التي تنزل فيها فانزل مدينة استجة (Astigia) من كونتية بتيكة واقم برجالك في احدى القلاع ريثما اكتب اليك في الجهة التي تذهب اليها — وقد ارسلت اليك مع هذا كتابًا تدفعهُ الى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام

كتب في قصر طليطلة

فلما فرغ الفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب ان يأتيهُ من الرسول بالكتاب الآخر فجاءه بهِ ودخل عليهِ واغلق الباب وراءه وقدم لهُ الكتاب وهو يتفرس في وجههِ . فلما رأى ما فيهِ من الانقباض واليأس أراد التخفيف عنهُ فعطس عطسة ارتجَّ لها ذلك البناء فانتبه الفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليهِ ويضحك ويهز رأسهُ ويحك ذقنهُ بأنملهِ . فاستغرب الفونس ذلك منهُ وكاد ينتهرهُ لو لم يسبق الى ذهنهِ ما آنسهُ من احترام عمهِ اوباس لهُ واعتمادهِ على أقوالهِ . وتذكر السر الذي توسمهُ في سيرتهِ فابتسم لهُ وقال « ما الذي يضحكك يا يعقوب هنيئًا لقلبك » قال ذلك وتنهد

فتنهد يعقوب تنهدًا سمع لهُ صفير وقال لهُ « بل هنيئًا لك انت كيف تخدمك السعود على اهون سبيل »

فهز الفونس رأسهُ وقال « تبًا لهذه السعود . . . دعني وشأني . . . » قال ذلك ونهض وهو يقول « لا يليق بنا الاستتار هنا ونحن مأمورون بالذهاب الليلة ولا بد لي

قبل كل شيء من استدعاء القواد وابلاغهم الامر بالاستعداد .. فامض الى قائد الخمسمئة واستقدمه اليَّ .. »

وكان الجند الاسباني في عهد القوط مؤلفًا من فرق كل فرقة الف جندي يسمى قائدها رئيس المعسكر (Prœpositus Ostis) تحته قائدان كل منهما برأس خمسمئة واسمه (Quingentenarus) وتقسم الخمسمئة الى مئات اسم قائد كل مئة (Centenarus) اي قائد المئة · وكل مئة تقسم الى عشرات اسم قائدها (decanus) اي قائد العشرة [1] فالقائد العام يبلغ اوامره الى قائدي الخمسمئة وهما يتوليان تدبير الجند

فخرج يعقوب ثم عاد واخبر الفونس ان القائدين قادمان ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على اكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم في قيافتهما · فلما دخلا سلما على الفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان ابوه حيًّا ويحترمانه من اجل ذلك · وقد سرهما توليه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من سهولة اخلاقه وطيب عنصره · وكانا من اهل الغيرة على عصبية القوط لم يرضيا برودريك الاَّ مع الجماعة فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحول النفوذ الى العنصر الروماني بعد تولي رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدي احد حتى ولا الفونس نفسه لانه اصبح مثلهم في ذلك

فلما رآهما الفونس تذكر انه شاهدهما من قبل ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل ان يصدر لهما الامر بذلك فقال « اراكما بلباس السفر ... ؟ »

الفصل التاسع والثلاثون

ومبا

فتكلم احدهما واسمه « ومبا » وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر وقال « لقد وردت الينا الاوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلاً للرحيل فالجند الآن كله على أهبة السفر انما يحتاج الى أمر من مولاي الفونس »

(١) رومي ج ٢

فلما سمعهُ يذكر اسمهُ استأنس به وشعر براحة اليه وقال « نقلع من هذا المعسكر الآن فارجو أن تتوليا تدبير الجند في قيامهِ وقعوده الى ان نبلغ مقصدنا .. »

فاشارا باحناء الرأس ان « سنفعل » ثم تكلم ومبا وكانت له جسارة وتقدمٌ على رفيقهِ وقال « الا ينبئنا مولاي عن الجهة التي نحن ذاهبون فيها .. »

قال « اننا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل في كونتية سيكة فهل تعرف الطريق اليها ... ؟ »

قال اعرفها جيدًا فان الطريق اليها نحو الشمال والغرب الى مريدة على نهر اناس فنقطعهُ ونسير شمالاً شرقيًا الى قرطبة ثم نحدر شمالاً شرقياً الى استجة على نهر السنجيل وقد عرفت هذه المدينة وصليت في كنيستها واقمت في قلعتها وعبرت على جسرها وعرفت دبورها واسواقها ... »

قال الفونس « بورك فيك . لقد القيت الامر اليكما في تدبير هذه الحملة في اثناء المسير ولكنني اوصيكما بامر يهمني كثيرًا وذلك انني لا اريد ان يتعدى الجند في اثناء الطريق على أحد من الفلاحين ولا يأخذوا لاحد مالاً او زرعًا ولا يسؤوا احدًا في معاملة . فاذا فعل احد ذلك كان جزاؤه عندي الجلد او القتل واذا كان من ارباب الرتب جردتهُ من رتبهِ واملاكهِ واهنتهُ فانني اريد ان يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة .. »

فلما سمع ومبا ذلك ظهر الاعجاب في عينيهِ البراقتين وقال « بورك فيك وفي اصلٍ انت فرعهُ لقد عودنا المرحوم ابوك مثل هذا العدل والرأفة ... »

فلما سمع قولهُ عض على شفتهِ واطرق كأنهُ يقول له « ليس هذا وقت التصريح » ثم اتمّ كلامهُ قائلاً « وأمر الكهنة المرافقين لهذه الحملة ان يوصوا الجند بهذه الوصايا ولا يخفى عليكم ان جندنا اكثر ما يحسنون الحرب مشاة فلا تتعجلوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم احمالاً ثقيلة — ويكفيهم ما يحملونهُ من الادراع والاسلحة من السهام والحراب [1] »

فلما فرغ الفونس من كلامهِ لم يزد ومبا على اشارة الطاعة ثم قال « الا يأمر مولاي بحاشية من الاعوان والموالي تسير في خدمتهِ الخصوصية ... »

فاراد الفونس ان يصرح له بالتخفيف عن الموالي فوقعت عينهُ على يعقوب فرآه يشير اليهِ

(١) رومي ج ٢

اشارة خفية ان لا يفعل فانتبه وقال « لااحتاج الآن الى احد فان معي خادمي هذا وهو يدبر لي ما احتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت ٠٠ »

فخرج القائدان فرحين برافقة الفونس. اما هو فلما خلا بيعقوب قال له « رأيتك تشير اليّ في اثناء الكلام ٠٠٠ »

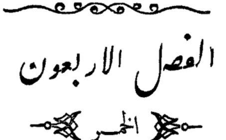
قال « خفت ان يسبق لسانك الى لفظ تؤاخذ عليه ونحن بين يدي الاعداء فاحتفظ بكل ما دار بينك وبين مولانا ونبراسنا اوباس انرى ما يكون ٠٠ واسمح لي ان اتمم ما كنت بدأت به من قبل — اعلم يا مولاي انك موفق باذن الله لان الامر الذي كنت لا تستغني في الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوًا ٠٠٠ »

قال « وماذا تعني ٠٠ »

قال « اعني ان المشروع الذي اسسته مع مولاي المتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد اوتيت الشروع فيه وتسهل عليك العمل به منذ الآن. هذه فرقة من الجند الآن تحت امرك فقربها منك وحببها اليك ببذل المال ٠٠٠ المال ٠٠٠ » قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهي

فقطع الفونس كلامه وقال « ومن ابن لنا المال يا يعقوب ٠٠ ما اهون ابداء الرأي فيه وما اصعب العمل به ٠٠٠ »

فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى رأسه واطبق جفنيه ولسان حاله يقول « المال عندي وعليّ احضاره »



الفصل الاربعون

الخمر

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدي اوباس في ذلك الصباح فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال « لقد أذكرتني وعدك السابق ولا يخفى عليك اني شديد الميل الى معرفة حقيقة امرك ٠٠٠ »

فتحول وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض « وقال « يأذن لي مولاي بتأجيل

ذلك الى وقت آخر . واما المال فانيساً بين لهُ سبيل الحصول عليهِ بعد وصولنا الى استجة والامور مرهونة باوقاتها .. طب نفساً وقر عيناً وكن على يقين اني على قبح خلقتي وقذارة ظواهري لا اخلو من حسنات نافعة ... والآن لا بد لنا من الركوب لأني اسمع قرع الطبول ايذاناً بالمسير ..»

قال « اليَّ بالفرس فاركبهُ وتولَّ انت امر الخدم وتدبير ما قد نحتاج اليهِ من الاطعمة ونحوها واجعل انك نائب عني في كل ذلك ولا تدع احداً ياتي اليَّ من الخدم فاذا احتجت الى شيء فيتصل بي بواسطتك ... »

فخرج يعقوب واحضر فرساً من احسن افراس الحملة وعليهِ سرج ثمين وكان هو بلباس القواد وقد زينهُ شبابهُ وجمالهُ . وقبل الغروب اذن بالرحيل فاقلعت الحملة فمرت بطريقها قبل خروجها من ضواحي طليطلة بمرتفع مطلٌ على طليطلة . فالتفت الفونس الى المدينة وهي على مرتفع ايضاً وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى فوجه نظره الى قصر رودريك على ضفاف التاج ولما وقعت عينهُ على قصر فلورندا خفق قلبهُ خفوقاً سريعاً وهاج بهِ الوجد وتذكر ما كان من لقائهِ اياها في ذلك الصباح وما آلت اليهِ حالهُ في ذلك المساء ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد اشبه بما يتكاثف على قلبهِ من سحب الهيام والشوق وخيل لهُ ان الطبيعة تشاركهُ في ذلك الشعور — والمرء مفطور على تطبيق حوادث الطبيعة على ما يوافق شعوره وتفسيرها بما يلائم اعتقاداتهِ واوهامهُ . ويغلب فيهِ ان يراها مسخرةً لهُ لا تأتي حركة الاَّ لخيره او شره وانها تفعل ذلك عمداً بعناية خصوصية . فاذا امطرت السماءُ وهو مسافر توهم انها تفعل ذلك لتعيقهُ واذا كان يرجو الغيث لزرع او نحوهِ قال انها تمطر خدمة لهُ — فلا غرو اذا توهم الفونس ان السماء تعبس وتنقطب غيومها شعوراً بفراق حبيبتهِ والمحب كثير الاوهام سهل التصديق لكل ما يطابق احساسهُ من جهة حبيبه ولو كان ذلك مخالفاً للنواميس الطبيعية

ولم تغب الشمس حتى اظلمت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكناً لهم . فأمر الفونس في النزول هناك فنصبوا الخيام وفي جملتها خيمة لهُ نصبوها حالاً وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معهُ . وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول الوحشة والشوق مثل ما قاستهُ فلورندا في تلك الليلة من العذاب والفونس غافل عن حالها لاعتقادهِ انها على موعد منهُ ليأتي لانقاذها في ذلك المساء وقد وكل بذلك عمهُ او باس

فلما دنا الوقت المعين لانقاد فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع اجيلا وشنتيلا في القارب الى منزل اوباس وتوهم انها اصبحت في ما من هناك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون . ثم تذكر بغتة ان اوباس لا يعلم بالمكان الذي هم ذاهبون اليه فانتبه للسبب الذي من اجله غير الملك خطة مسيره والتفت الى يعقوب وكان جالساً في بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد والرياح تهب والرعود تقصف وقال له ولم يحاذر أن يعلو صوته لعلمه باشتغال الآذان بقصيف الرعد عن سماع حديثهما « هل علمت السبب الذي من أجله غير الملك خطة مسيرنا ... »

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد « اظنني عرفت ... وعرفت اشياء اخرى لولا البرد الشديد لكنت اقصها عليك ... »

قال « وما ذا عرفت ... قل لي واذا كنت تشكو البرد اليك بقدح من الخمر فاشربه فيدفئك ... » قال ذلك واشار الى خرج كان في الخيمة ويعقوب يعرفه ثم قال « واعطني قدحاً فاشربه أنا فان مثل هذا الليل لا يذهب وحشته و برده الا الخمر ... »

فتشدد يعقوب و وقف ولسانه تتكتك ويكاد يسمع الفونس صوتها . ومشى حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر في قدح من الفضة كان هناك ودفعه الى الفونس فشربه وتناول قدحاً آخر صب فيه لنفسه وشرب ثم صب قدحاً آخر للفونس وآخر لنفسه حتى اذا دبت الخمر في عروقه فاذهبت الارتعاش ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدي الفونس ورفع يده والقدح فيها وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر أن يراه أحد وقال « اشرب هذه الكأس تذكاراً للسر الذي بيننا ونرجو أن ينجح سعينا فيه .. وتذكاراً للامنية التي هي في خاطر مولاي الفونس ويظن يعقوب غافلاً عنها — وإن كان لا بد له من أن يكاشفه بسرها — اذ لا غنى له عن خدمته في الحصول عليها ... » قال ذلك وشرب وهو يبتسم والفونس ينظر اليه وقد استغرب تعريضه بالسر الآخر وما هو الا سر حبه فلورندا فاراد أن يتحقق ظنه فقال « واية امنية تعني يا يعقوب ... »

فضحك يعقوب وقال « لقد لعبت الخمر في رأسي فاعذرني اذا حسرت حجاب التهيب ونطقت بالواقع ... الامنية يا مولاي في قصر رودريك وهي التي جعلت ذلك الظالم يبعث بك في هذه المهمة ولكن لابد من الانتقام والرجوع بالنصر المبين .. » قال ذلك وضحك وهو يمسح لحيته من آثار الخمر وكانت قد تلوثت بنقط تساقطت عليها

وهو يشرب القدح الاخير . ثم خطا خطوة الى الفونس وانحنى نحوهُ وهو يقول « وقد توهم رودريك انهُ خدم غرضهُ بارسالنا الى استجة وفاتهُ انهُ يخدم غرضنا اذ لا بدَّ لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذي نحن عازمون عليهِ »

فاستغرب الفونس قولهُ وضجر من الاحجية والالغاز وقال لهُ « لقد اضجرتني يا يعقوب من اشاراتك والغازك لماذا لا تصرّح لي بما في نفسك ؟ . »

فانقلب وجه يعقوب الى الانقباض وقال « قلت لمولاي ان موعدنا في ذلك قريب ان شاء الله وارجو أن لا يلح عليَّ في الامر فان الالحاح مضرٌّ . . اصبر يا مولاي وسأُطلعك على كل شيء قريباً . . . واعلم ان رودريك هو الذي عجّل كشف هذا السر بارسالنا الى هذه المدينة . . . »

فندم الفونس على الحاحهِ وضجرهِ واصبح ليعقوب عنده منزلة رفيعة لما آنسهُ فيهِ من الغيرة والحمية فاراد ان يصرف عنهُ ذلك الانقباض فقال لهُ « ما رأيك في المهمة التي انفذنا رودريك في قضائها . . . »

قال « أظنها ثورة انشبت في بعض المدن من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا اخفي عن مولاي بعد ما تعاقدنا عليهِ ان أهل هذه البلاد في غاية الضنك من استبداد حكامهم وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فاذا هم تحت النيرين معاً . . . وقد أصبحوا أرقاء لا حرّية لهم ولا منزلة ولا عقار ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمرّدهم وهياجهم[1] وقد سهل هذا الامر عليهم خطأ ارتكبهُ ملوك القوط المتأخرين مع جماعة اليهود فاكرهوهم على نبذ ديانتهم واعتناق النصرانية فاصبح اليهود عوناً عليهم . . . »

فقطع الفونس كلامهُ قائلاً « ولكن اليهود قد انقرضوا من اسبانيا الآن ولم يبق فيها يهوديٌّ كما لا يخفى عليك . . . »

قال « أعلم ذلك يا مولاي واعلم أيضاً ان ملوك القوط قبل المرحوم والدك شددوا في اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل أو النصرانية أو المهاجرة فهاجر بعضهم وتنصر الباقون واختفت اليهودية ولكنها لم تندثر . وهب انها اندثرت فاليهود لا يزالون . . . » ثم التفَّ بعباءتهِ لفاً شديداً وهو يقول « أرانا خرجنا عن الموضوع قبل الاوان وخلاصة الامر

(١) دوزي ج ١

ان المهمة التي نحن ذاهبون فيها مهما يكن من امرها فاني ضامن اخمادها بدون أن نجرّد سيفاً أو نرمي نبلاً ... طب نفساً واصبر حتى نصل استجة فينكشف لك كل شيء ...» ثم تحوّل الى مجلسه الاوّل وهو يقول « وقد آن وقت الرقاد ... ألا يرغب مولاي في ذلك ؟ »

فابتدره الفونس قائلاً « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأساً أخرى واشرب مثلها وهي خاتمة الحديث »

فصبّ له قدحاً وشرب مثله وتوسدا والفونس يعد نفسه بالاطلاع على أسرارٍ كثيرة بعد وصوله الى استجة

الفصل الحادي والاربعون

الفلاّحون

ناما تلك الليلة نوماً عميقاً على اثر ما عانياهُ من التعب رغم ما تساقط من الصواعق وهبّ من الرّياح . وافاق يعقوب باكرًا وخرج لاعداد ما يحتاج اليه الفونس ولم تشرق الشمس حتى كانوا على اهبة الرحيل فقوضوا الخيام وركبوا على نظامهم والفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان وخصوصاً الفونس فقد كان يمشي ويلتفت الى طليطلة وكانت لا يزال بعضها ظاهرًا وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج وكان عبورهم آخر عهد الفونس برأى تلك المدينة لانها توارت وراء التلال

سارت الحملة باثقالها واحمالها جنوباً غربياً وقد صحا الجو واشرقت الشمس وارسلت اشعتها على البساتين والغياض والاودية والتلال والفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع الخصبة وفيها اصناف الاشجار والمغارس ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس ولم يكن يتوقع ان يرى فيها غير العبيد او من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين وكان الاشراف واصحاب الضياع يعاملونهم معاملة الارقاء وهم يقيمون في المدن ويندر من يقيم منهم في المغارس . وكانت اوربا في ذلك العصر مؤلفة من المدن والضياع . فالمدن مقر الحكام والاشراف اما الضياع فكانت عبارة عن المغارس يقيم فيها

الفلاحون ويعملون في الارض — وهم والارض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للاشراف [1]

وكان الفونس قلما يخرج من المدن ولم يكن يهمه الالتفات الى حال اولئك الفلاحين واما بعد ما دار بينه وبين اوباس بشأن الملك وما عوّلوا عليه من تحرير اولئك الارقاء والاعتماد عليهم في تحرير المملكة اصبح همه الالتفات الى البلاد واهلها . فاذا هم يمرون في ارض لا يظهر لاهلها عناية في غرسها واستثمارها وقلما شاهدوا فيها أحدًا من الناس فلما تكرّر ذلك المنظر لديه التفت الى يعقوب وكان راكبًا جوادًا وراء جواد الفونس فلما رأى الفونس يلتفت اليه ساق جواده حتى حاذاه ونظر اليه نظرة مستفهم . فقال الفونس بصوت منخفض «كنت أتوقع أن أرى المزارع مأهولة بالناس وقد قطعنا مسافة طويلة في ارض عامرة ولم اشاهد احدًا . .»

فقال «ان الناس كثيرون ولكنهم تعوّدوا اذا رأوا جندًا مارًّا بهم ان يختفوا من وجوههم فرارًا مما يكلفونهم من الاعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها . ولم يخطر لهم ان يشيروا بهم مثل سيرهم هذا لا يتعرّضون لاحد منهم في شيء . والجند لم يسر بهذا الهدوء الا بناء على امر مولاي . . .»

فتأثر الفونس لذلك القول وتمثل له الخطأ الذي ترتكبه الحكومات الظالمة في تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم

فضى الفونس وحملته في الطريق بضعة ايام قطعوا في اثنائها سهولاً خصبة وجبالاً فيها كثير من مناجم الفضة والذهب واودية يسيل فيها الماء فيسقي الغياض والبساتين وارض الاندلس من احسن البلاد خصبًا وعمرانًا وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس و يظللها بالعدل فضلاً عما كان فيها من المدن العامرة . وكان اول مدينة كبرى مروا بها مريدة فقطعوا نهر اناس وساروا بضعة ايام اخرى الى قرطبة فعبروا نهرها وساروا الى استجة



(١) كيرو . تاريخ عدن اوربا

الفصل الثاني والاربعون

استجة

وكانت استجة مدينة آهلة على الضفة اليسرى لنهر سنجيل حولها سور متين عليه الابراج من صنع الرومان · ولا بد للقادم اليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر ولما دنوا من المدينة في الضحى بعث الفونس رسولاً بكتاب رودريك الى حاكمها فعاد الرسول ومعهُ نفر من جند المدينة وبيد كبيرهم امرٌ بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه والنهر بينهم وبين المدينة · وهي قلعة كبيرة انما بنيت لاقامة الجند · فاحتلوها وسار الفونس الى غرفة فيها هي احسن غرفها واوسعها ولها نافذة مطلة على النهر والمدينة وعلى ما وراءها وبين يديها من البساتين والمزارع

صعد الفونس الى غرفته وكان يعقوب قد سبقهُ اليها واعدَّ لهُ ما قد يحتاج اليه من لوازم الراحة وامر بعض الخدم فاعدوا طعاماً حملهُ هو اليه فوضعهُ على مائدة في تلك الغرفة ودعاه اليها

وكان الفونس منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبيبته وعمهُ ومجيئهُ الى تلك المدينة رغم ارادته وليس هناك ما يدعو الى قدومه الا سعي رودريك في ابعاده عن حبيبته · ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورندا فاقشعر بدنهُ وأحس كأن ماء غالياً ينسكب عنهُ · ثم تذكر الاحتياطات التي اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعهُ

وفيما هو في هذه الهواجس سمع وطء اقدام في الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفاً ويداه متقاطعتان على صدره كأنهُ يسمع الصلاة · فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول « ألا يأمر مولاي بتناول الغداء »

فلم يتمالك الفونس عن الابتسام وقد انشرح صدره فوقف وأسرع الى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائرٌ في أثره فجلس الفونس وظل يعقوب واقفاً وقوف الخدم فأشار اليه الفونس ان يجلس فابى واعتذر · فقال الفونس « لم يعد يليق بي ان أعدك خادماً بعد ما علمتهُ من علو همتك واستهلاكك في نصرة الحق · · »

فقال يعقوب « العفو يا مولاي انك لم تعلم عني شيئًا بعد وما هي الا أقوال سمعتها فاذا رأيت مني عملاً كبيرًا ورأيت بعد ذلك اني استحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت ٠٠٠ »

فتذكر الفونس وعده بكشف السر بعد وصوله اسنجة فلم يشا أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفًا فتجلد حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ولكنه قال له « انك الخيار يا يعقوب في ما تفعل ٠٠٠ ثم اني فهمت من بعض أقوالك انك عالم بفلورندا وحديثها ٠٠٠ »

فاشار يعقوب بانحناء رأسه ان « نعم »

فقال الفونس « فما رأيك بشأنها وشأننا وهي لا تعلم مقرنا ولا عمي يعلمه الا ترى ان نبعث اليهم بالخبر ليقدموا الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ٠٠ »

فقال « لا تقل بعيدون ٠٠٠ اتظن رودريك أبعدك عن قصره واغفل أمرك ٠٠ ؟ ألا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك يراقبون حركاتك لعلهم يتقربون باذيتك الى البلاط الملوكي — واذا هرمت الدولة واختلت شؤونها كثر فيها الجواسيس وتعددت اسباب الوشاية وفسدت النيات واصبح الاخ عينًا على أخيه والابن على أبيه — يساعدهم على ذلك انغماس الملك في الترف وانشغاله به عن سياسة رعيته مع ما يحول من اهل التمليق بينه وبين المتظلمين — فلا تثق بأحد ولا تأتمن أحدًا الا اذا رأيت له ببقائك منفعة او كانت مصلحتك ومصلحته سواء ٠٠ حتى يعقوب هذا ٠٠٠ » قال ذلك وأشار بسبابته الى صدره

فعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئًا من شؤون الناس ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية فسكت وعاد الى الاكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب لا يزال واقفًا بين يديه

فلما نهض الفونس عن المائدة قال له يعقوب استرح يا مولاي الآن وأذن لي بالنزول الى المدينة ثم أعود اليك قبل الغروب وفي الغد ننزل اليها معًا لنرى أسواقها وساحتها ٠٠ »

فانتبه الفونس بغتة الى ان غدًا يوم الاحد فقال « ونسمع القداس أيضًا ٠٠ »

فقال يعقوب « نسمعه يا سيدي ٠٠ وسنبحث في الامر غدًا ٠٠ هل يسمح لي مولاي بالانصراف ٠٠ ؟ »

قال « انصرف وقبل انصرافك ابعث اليَّ القائد ومبا لأخاطبهُ في امر الجند ٠٠ »

قال « سمعًا وطاعة » وخرج

وعاد الفونس الى مجلسهِ بجانب النافذة وهو لا يزال بلباس السفر وعاد الى التفكير بفلورندا واوباس ورودريك حتى انتبه الى اقوال يعقوب فانبسطت نفسهُ لدنو موعد المكاشفة ٠ ثم سمع وقع اقدام بالباب فتحول للملاقاة ومبا فدخل والقى التحية ووجههُ منبسط اشارة الى ما يبطنهُ من الاحترام لالفونس والغيرة عليهِ فرد الفونس التحية وسألهُ عن حال الجند فقال « انهم في نظام وسلام يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر »

قال « هل سمعتم شيئًا عن احوال الاهالي هنا »

قال « سمعنا انهم مستكنون لا يبدون حراكًا ولعلهم اركنوا الى السكينة على أثر سماعهم بقدومنا ٠٠٠ »

قال « ارجو في كل حال ان تسهروا على هذه الاحوال وتواصلوا استطلاع الاخبار ولي في فطنتكم ودرايتكم ما يضمن الراحة »

ففهم ومبا من غنة كلام الفونس واشارتهِ انهُ فرغ مما يريده فحياه وتحول من الغرفة

ولما خلا الفونس بنفسهِ نهض فبدل ثيابهُ وعوَّل على البقاء بقية ذلك اليوم في الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

الفصل الثالث والاربعون

يوم الاحد

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطأهُ الفونس وانشغل خاطرهُ عليهِ وجلس الى النافذة المطلة على الجسر — ولا بدَّ لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هذا الجسر ٠ ولم تمض برهة حتى رأى يعقوب قادمًا وقدتأبط صرة فظنهُ الفونس قد جاءهُ بشيء من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخولهُ عليه فأبطأ يعقوب ثم سمع خطواتهِ وبعد قليل دخل وحيي ويداهُ فارغتان

فقال الفونس « ما الذي حملتهُ الينا من المدينة »

قال « لم أحمل منها شيئًا لاننا ذاهبون اليها غدًا »

قال « رأيتك مناً نطًا شيئًا وما هو ؟ »

فضحك يعقوب وقال « ذلك ليس شيئًا ... »

فاشتدت رغبة الفونس في استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال « هل فيهِ ما يمنع اطلاعي عليهِ »

قال « الى الصباح يامولاي ولا بد من اطلاعك عليهِ »

وفي الصباح التالي نهض الفونس وفيهِ شوق شديد الى معرفة ما في الصرة ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجههُ وسرّح شعره ولبس ثوبهُ استعدادًا للنزول الى المدينة وهو يتظاهر بالصبر عن استطلاع ما في الصرة حتى يأتيهُ بها يعقوب من تلقاء نفسهِ. فلما فرغ الفونس من كل شيء ولم يبق الا الخروج دخل يعقوب والصرة في يده واقفل باب الغرفة وراءهُ . فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئًا من نسيج اسود نحو اقبية الكهنة واذا هما ثوبان اسودان كل منهما جلباب طويل يغطي الرجل الى اسفل القدم . فتناول يعقوب احدهما وبسطهُ وقدمهُ الى الفونس وهو يقول « البس هذا الجلباب يامولاي »فوضعهُ الفونس على كتفيهِ والتف بهِ فغطي كل اثوابهِ ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف بهِ ثم مد يدهُ الى طوق ذلك الجلباب من قفا العنق فاستخرج منهُ شيئًا كالكيس معلقًا من بعض جوانبهِ بالطوق من الوراء وارسل ما بقي منهُ على رأسهِ حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعًا . وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحًا اسود. وتقدم الى الفونس فاستخرج الكيس من قفا عنقهِ وألبسهُ اياه حتى صار مثلهُ وكان يعقوب يفعل ذلك والفونس صابر ليرى نهاية هذه العملية . فلما فرغ يعقوب من اللبس قال « هذا الذي أتيتك بهِ من اسجة فانزعهُ الآن الى حين الحاجة »

فاستغرب الفونس عملهُ هذا وقال « ومتى نحتاج اليهِ »

قال « قريبًا ان شاء الله .. لا تكن لجوجًا » قال ذلك ونزع جلبابهُ والجلباب الآخر عن الفونس وطوى كلاً منهما على حدة وجعل احدهما تحت دراعتهِ من جهة الصدر وارخى الدراعة عليهِ حتى اختفى تحتها واتى بالجلباب الآخر وطواه وطلب الى الفونس ان يخفيهُ تحت دراعتهِ ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب « هلم بنا الى الكنيسة .. »

خرج يعقوب والفونس من القلعة وفيما هما في الباب التقيا يوماً فوقف للتحية فقال الفونس « اني ذاهب الى الكنيسة فاحفظ بما عندك . . » فأشار يوما برأسه ويديه بالسمع والطاعة

مشى الفونس ويعقوب يتبعهُ وليس معهُ من الخدم والاعوان سواه حتى مرَّا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لا يتكلمان لان يعقوب لا يقدم على الكلام الا جواباً على خطاب جرياً على عادتهم في معاملة الملوك . وكان الفونس غارقاً في الهواجس لا ينتبهُ لوجداني لما اجتذب خاطره من امر فلورندا وردريك وحديث يعقوب وذلك الثوب الاسود . ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الاسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة . وبعد هنيهة افضى بهما المسير الى ساحة كبيرة في وسط المدينة هي ملتقى الناس كيفما كانت جهة مسيرهم . ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفي خطوات يعقوب او اشاراتهِ . وبعد أن قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخيم تزاحمت عنده الاقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال « هذا باب الشارع الاعظم وهذه هي الكنيسة » وأشار بيده الى باب كبير بجانب ذلك . فتحوَّلا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين والناس لا يعلمون من هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسهِ انهُ من الاشراف واصحاب المناصب

فقضيا فروض الصلاة في تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين . فلما انقضت الصلاة وخرج الناس خرجا والفونس لا يدري الى أين يذهب فتأخر حتى مشى يعقوب فتبعهُ وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الاخرى . فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت الى يعقوب وقال لهُ « الى أين نحن ذاهبان في هذه البرية »

قال « اننا ذاهبان الى هذه الاكمة » وأشار الى تلٍّ قريب لا شيء من العمارة فيهِ . وما لبثا أن وصلا اليهِ حتى صعدا الى قمتهِ والفونس لا يفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب « انظر يا مولاي الى اسبجة بين يدينا . . وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجاً عالياً . . »

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيداً لانهُ على مقربة من المدينة فقال « نعم »

قال يعقوب « فاذا جئت هذا المكان في الليل فلا تخطىء هذا البرج لبروزه فوق السور وليس على السور برج سواه . . احفظ ذلك . والآن اتبعني . . » قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الاخرى فاذا هو هناك بكهفٍ محفور وقف بابهِ والفونس

الى جاسو فقال له « أرأيت هذا الكهف . . »

قال الفونس « نعم رأيته »

قال « فلنرجع الى المدينة نقضي بقية النهار ثم نعود الى هنا . . »

الفصل الرابع والاربعون

الدرس والسرداب

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السرّ فلم يزدد الاّ حيرة واستغراباً واستطال الانتظار الى المساء فقال « وأين مضي هذا النهار فانه طويل عندي . . »

قال « سأجعله قصيراً جداً . . . » ومشى فمشى الفونس في اثره حتى دخلا المدينة والفونس ينظر الى البرج ويتأمله . وما زالا سائرين في الاسواق حتى انتهيا الى درب ضيق اتصلا منه الى باب صغير فقال يعقوب « انتظرني يا مولاي هنا ريثما أعود » ودخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وعلم مما رآه من الادوات المنزلية ان البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه أحداً . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه وقد ملّ الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر

أما يعقوب فانه اقفل باب الحجرة ثم أجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال « سأتلو عليك يا مولاي الفاظاً غريبة لابدّ لك من حفظها . . . »

قال « ولماذا . . »

قال « ان ما ستتعلمه الآن من الالفاظ والاشارات انما هو مفتاح السرّ وطريق العمل . . . »

فاصغى الفونس اليه وقال « هات ما تريد . . . »

قال : قل « شالوم عليخيم » فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والحاء على الخصوص فكرّرها يعقوب عليه حتى حفظها ثم قال له قل « اوهبل موعيد » فقالها وكرّرها حتى تعلمها . ثم نهض يعقوب وامسك الفونس بيده وقال له « قف يا مولاي » فوقف فخطا يعقوب امامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال « اخط يا سيدي مثل هذه الخطوة » ففعل وكرّرها حتى أتقنها . ثم علمه اشارات يجريها بيديه أو أصابعه

وغير ذلك والفونس كالببغاء يتعلم الالفاظ ويخطو الخطوات ويجري الاشارات وهو لا فهم لها معنى

قضيا بقية اليوم في نحو ذلك فلما غربت الشمس خرجا والفونس لا يزداد الا استغرابًا وقد نسي كل مشاغلهِ بفلورندا واوباس في اثناء ذلك الاستغراب . وما زالا حتى خرجا من باب المدينة وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد . فصبرا على بردها حتى بلغا الى الاكمة وصعدا اليها والتفتا الى السور ثم تفرسا في ما حولهما فلم يجدا أحدًا لان الناس يأوون في الليل الى منازلهم داخل السور . فنزل يعقوب نحو الكهف والفونس يتبعهُ حتى وقفا ببابهِ ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة . فدخل يعقوب ويده بيد الفونس فمشي بهِ بضع خطوات والفونس يتلمس ويتخطى كأنهُ يمشي على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب وقال لالفونس «اخرج جلبابك» فأخرجهُ وساعدهُ يعقوب على لبسهِ . فلما لبسا الجلبابين اصبحا سوادًا في سواد ومشيا خطوات اخرى ويعقوب يقود الفونس ثم وقف يعقوب بغتةً فشعر الفونس بصدمة وقوفهِ فخاف أن يكون عليهما بأس من ذلك . ثم أحسَّ ان يعقوب انحنى نحو الارض وما لبث أن سمع خرخشة كأن يعقوب يبحث بأناملهِ في الارض ثم ترك يعقوب يد الفونس فظل الفونس واقفًا وقوف الصنم لا يدري كيف يتجه لاشتداد الظلام

وكان يعقوب قد خلى يد الفونس لتتفرغ يداه لرفع حجرٍ ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لا يتحرَّك ثم سمع صوت اقتلاع الحجر وأحسَّ بنسيم باردٍ خرج من مقتلعهِ وإذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض «اتبعني يا مولاي في هذه الهوة على مهل» ونزل وتبعهُ الفونس ونزلا سبع درجات فانتهيا الى سرداب بسع الانسان واقفًا فمشيا ويعقوب يقود الفونس وهما يتلمسان . وشعر الفونس كأنهما يسيران في دائرة ثم سارا في خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام يتكاثف . وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لالفونس «امكث هنا يا مولاي ولا تغير مكانك ريثما أعود اليك» وتركهُ ومشى لا يسمع لخطواتهِ وقع فأحسَّ الفونس بوحشةٍ غريبة ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى ملَّ الانتظار وحدثتهُ نفسهُ أن يخطو في اثره ولكنهُ تذكر وصيتهُ اياه بالبقاء هناك فوقف ولكن الانسان رغاب في استطلاع المخبآت ولو عرض نفسهُ للخطر على انهُ نسي الجهة التي كانا سائرين فيها ومدَّ يدهُ الى ما حولهُ فلم تلمس شيئًا فتوهم انهُ في خلاء واسع . وفيما هو في هذا الارتباك آنس نورًا خفيفًا عن بعدٍ ورأى ذلك النور

يقترب منهُ حتى تبين حاملهُ فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابهِ نظنهُ يعقوب فناداه باسمهِ فلم يسمع ردًّا فحسب سكوتهُ تسترًا ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحًا آخر في مثل لباسهِ وقد كشف عن وجههِ فاذا هو يعقوب فعلم الفونس انهُ اقترب من المكان المقصود

ولم يكد يفكر في الامر حتى أسرع يعقوب اليهِ وأمسك بيدهِ فنظر الفونس في وجههِ على نور المصباح فرأى لحيتهُ قد ازدادت تمرسًا وقذارة وازداد وجههُ غرابة بما تولاه من الاضطراب فخاف الفونس أن يكون عليهما بأس في ذلك المكان . ولكنهُ سلم قيادهُ لى يعقوب فأمسكهُ وسار بهِ والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديهِ . فنظر في الارض فرأى فيها حفرًا جمة يخشى الماشي السقوط فيها حتى على النور فكيف في الظلام . وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور . فمشى مشية الحذر والتأني بضع دقائق ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان فصاح الفونس « لا » بغير انتباه فضغط يعقوب على يدهِ أن يسكت وهمس بأذنهِ « وصلنا »

الفصل الخامس والاربعون

الجاسة

وكان الفونس قد ضاقت أنفاسهُ من القناع المنسدل على وجههِ فرفعهُ وتنفس الصعداء ثم أرخاه واذا يعقوب قد وقف وهمس في اذنهِ أن يفعل مثل فعلهِ بعد انفتاح الباب ومهما رأى فلا يخف . ثم قرع الباب قرعًا متواليًا سبع مرات على اسلوب خاص ولبث برهة ثم طرقهُ ثانية ثلاث مرات بنسق آخر فانفتح الباب عن دهليز قصير فيهِ نور ضعيف وعلى كل من جانبي الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيدهِ سيف مسلول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة الباب . فأجفل الفونس وتقهقر فسمع يعقوب يقول « شالوم عليخيم» فقال هو أيضًا ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما صنمان فمشى يعقوب في ذلك الدهليز المشية الخاصة الذي دلهُ الفونس في ذلك النهار فمشى الفونس مثلهُ وهو يتعثر لاضطرابهِ وارتباكهِ حتى وصلا الى باب مقفل فقرعهُ بنسق خاص خمس قرعات فانفتح الباب وانطفأ النور معًا فأجفل الفونس ولكنهُ تذكر

وصية يعقوب فثبت جنانهُ وسمع صوتًا يخاطبهُ بلسان لم يفهمهُ وسمع يعقوب يقول لهُ « أوهيل موعيد » فدخلا هو أيضًا ومشيا في تلك الظلمة والفونس يحسب نفسهُ صاعدا على سلم ثم انفتح لهما باب آخر وحال انفتاحه أحس الفونس بهواء دافيء خارج منهُ تخالطهُ رائحة الانفاس فشعر بالدفء ونسي ما كان يشعر بهِ من البرد في السرداب ودخلا الباب فاشرفا منهُ على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائدة عليها سراج مضيء وبجانبهِ درج كبير وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سود بمثل جلبابهِ وجوههم مقنعة بمثل نقابهِ وامام كل منهم سيف مسلول وفرنده يلمع بنور السراج الضعيف . فارتعب لذلك المنظر الهائل وظن نفسهُ في حلم مزعج اذ لم يخطر لهُ ان يرى مثل ذلك المنظر في حياتهِ ولا الدخول مثل هذه الدخلة

على انهُ التفت الى جانبهِ فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمهُ اياها . فمشى مثلهُ حول المائدة والسراج مرتين وقبلا الدرج وهو عبارة عن لفافة غليظة من جلد . ثم مشيا الى كرسيين في صدر القاعة فاضيين فجلسا عليهما وامامهما سيفان مسلولان

فالتفت الفونس الى ما حولهُ فلم يرَ الا أشباحًا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة وندم لمجيئهِ على تلك الصورة مخافة ان يكون عليهِ خطر ثم تذكر ثقتهُ بيعقوب فاطمأن باله ولبث ساكنًا والجميع سكوت برهة ثم نهض أحد الحضور عن كرسيهِ وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحهُ بين يدي المصباح فرأى الفونس عليهِ كتابة لا يفهمها . ولما أخذ الرجل بالقراءة وقف الجميع والفونس في جملتهم حتى اذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانهِ وجلس فجلس الباقون لا ينطق أحد بكلمة

ثم تكلم الرجل بذلك اللسان كلامًا طويلاً أجابهُ عليهِ بعض الحضور ثم تكلم يعقوب باللسان الوطني قائلاً « يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خصوصية يحضرها هو ومن شاء للمداولة بامرٍ هام . . »

فوقف الرجل الأول وبيده سيف صغير وأشار بهِ اشارة خصوصية فوقف الجميع ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بازائهِ وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم ثم تحول الرئيس الى باب وراءه ففتحهُ ودخل وتبعهُ الباقون الى دهليز مظلم انتهوا منهُ الى باب فتحهُ بيده ودخل الى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة في طبق من البرونز فتناولها منهُ فرجع الرجل واقفل الباب وراءه . فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في بعض جوانب المكان

الفصل السادس والاربعون

كشف السر

ونظر الفونس في ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها اسود وفي أرضها صندوق كالتابوت الكبير فوقهُ درج صغير وحول التابوت بساط جلسوا عليهِ والتابوت في وسطهم فتأثر الفونس من ذلك المنظر المرهب وخفق قلبهُ لهول ما شاهدهُ من الغرائب في تلك الليلة وقد نفد صبره لمشاهدة اشباح سود لا يرى لهم وجوهاً ولا يدري من هم

فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج ‥ »

قال « أنت أدرى منا بنضجهِ لانك موقدٌ ناره »

فقال يعقوب « ارجو ان يكون قد نضج ولكنهُ يحتاج الى ادم كثير لان الطعام بلا ادم لا يؤْكل … »

قال « الادم كثير ومنهُ في هذا الصندوق ما يطبخ بهِ طعام العالم باسرهِ فضلاً عن امثالهِ مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة ‥ »

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ولم يتمالك عن التكلم فقال « اما وقد خلونا في هذا المكان ونحن بضعة فارجو بكون الكلام صريحًا ‥ »

فتنهد الرئيس ولم يجب اما يعقوب فانهُ جثا منتصبًا على ركبتيهِ والتفت الى الفونس وقال « الصريح ان المادة التي تنقصك لاتمام مشروعك انما هي مختزنة في عشرات من أمثال هذا الصندوق جمعت فيها منذ أعوام ولكنها لا تبذل الاّ عند الحاجة … » قال ذلك وأومأ الى الرئيس فاستخرج من جيبهِ مفتاحًا فتح التابوت بهِ وحالما رفع الغطاء ابرق ما تحتهُ اصفر زاهيًا . فنظر اليهِ الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ثم أقفلهُ الرئيس وأعاد المفتاح الى جيبه

فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب وادرك انهُ بين جماعة ذوي اقتدار واحبَّ أن يستطلع حقيقتهم فقال « أراكم تبالغون في التستر ونحن انما اجتمعنا لنتداول في هذا الامر المهم فمن أنتم … »

فالتفت الرئيس اليه وقال « لا نطمع في استطلاع شيء غير الذي تراه واعلم انك عرفت شيئاً لم يعرفه احد من الذين رأيتم في الحجرة الاخرى وهم يجتمعون معنا منذ أعوام وفيهم من يبذل ماله وروحه في سبيل ذلك الغرض ... »

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال « يكفي مولاي ما قد شاهده ولا يشك ان في اسبانيا الوفاً من أمثال هؤلاء المظلومين وعندهم الاموال المختزنة في الصناديق يبذلون انفسهم في خدمته فضلاً عن أموالهم .. »

فلما سمع الفونس قوله « المظلومين » انتبه انه بين يدي جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المعجم فخطر له ان يكونوا يهوداً ولكنه يعلم ان اليهود قد امحوا من تلك المملكة اما بالنفي او القتل او اعتناق النصرانية [1] فقال ليعقوب « قد فهمت السرّ فالاولى ان تفصح وانت أعلم الناس بعزيمتي وقصدي وقصد والدي من قبلي ... »

فعند ذلك التفت يعقوب الى الرئيس وقال « ينبغي لي ان اكاشف كلاً منكما بسر الآخر . اعلم يا حضرة الرئيس ان الرجل الذي جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد في هذه الديار واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بامرنا ... انه الفونس بن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا وهذا يكفي »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره الرئيس قائلاً « العله على عزم والده تماماً ... »

قال « نعم هو نصير المظلومين وقد عوّل على السعي في انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذي يسمي نفسه ملكاً — وانما يعوزه المال وهو عندنا ... فاسمح لي بعد هذا التصريح أن انبئه بحقيقة الامر .. » قال ذلك وحوّل خطابه الى الفونس قائلاً « اعلم ايها الملك — أخاطبك بالملك لاننا لا نعرف ملكاً على اسبانيا سواك — اعلم انك في جمعية اسرائيلية وكل الذين رأيتهم في هذه الجلسة يهود لا يزالون على دين آبائهم وأجدادهم ينوبون عن الوف من أهل هذا الدين منتشرين في انحاء المملكة الاسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداديس في الكنائس ويتناولون القربان ويقومون بسائر الفروض المسيحية رياء وهم بالحقيقة يهود يصلون في خلواتهم سرًّا — وقد كان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم مئات وقد رأيناهم يسجدون امام الايقونات والتماثيل

---

(١) دوزي ج ١

الصلوات نظاهراً محضاً . وربما سمعناهم يدعون بنصر رودربك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواماً وهم يجمعون المال ويحتزونه لاغتنام مثل هذه الفرصة للنهوض من تحت هذا النير حتى اذا كادوا يبلغون غرضهم على يد والدك المرحوم استبدله أهل المطامع بهذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب بل أنت هو صاحبه الشرعي فنرجو ان تكون النجاة على يدك . . »

فلما سمع الفونس قوله انجلى له كثير من الاسرار التي ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه اوباس بهذا الشأن . فاكتفى بما رآه وسمعه وأجل استطلاع ما بقي من الغوامض الى فرصة أخرى ولبث صامتاً يراجع ما مرّ به من المعميات فرأى انه ينقصه أن يعرف وجوه اولئك الناس وخصوصاً بعد ان عرفوه باسمه وكان يعقوب قد ادرك غرضه فقال له « ولا يطمع مولاي الآن بالاطلاع على ما وراء ذلك »

فقطع الفونس كلامه وقال « لا اطلب الاطلاع على شيء سوى معرفة هؤلاء الافاضل الذين انا في حضرتهم وخصوصاً بعد ان عرفوني »

قال « كلاّ يا مولاي ان ذلك ممتنع عندهم حتى فيما بينهم — وقد اتخذوا هذا التستر خوفاً من ان يبوح احد بامرهم حتى من اخوانهم — وانت الآن بعد ان اطلعت على هذه الاسرار المهمة تمسي اذا خرجت من هذا المكان كانك لم تدخله لانك لم ترَ وجوه الاشخاص فلا يمكنك اتهام احد من الناس وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة او العمال او المزارعين وكلهم في عداد المسيحيين ويمكنك أن تعرف واحداً منهم وهو أنا . . . »

فاعجب الفونس بهذا الضرب من الاحتياط وعلم ان يعقوب يهودي وتذكر ما كان يطلبه من التساهل في اداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها وان عمه اوباس كان يساعده على ذلك وخطر له خواطر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بوالده وعوّل على استطلاع سرّ هذا الامر فيما بعد . ثم اعترض مجاري افكاره دبيب توالت اصواته فوق رؤوسهم فاندهل الفونس والتفت نحو السقف فانتبه يعقوب قائلاً « لا تستغرب يا مولاي ما تسمعه لان فوقنا شارع من شوارع المدينة والناس يمشون عليه ليل نهار وليس في أهل المدينة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا اعضاء هذه الجمعية » فازداد الفونس استغراباً لما عاينه في تلك الليلة من طرق التحفظ وأبواب الدهاء وقال في نفسه « ان قوماً هذا مبلغ دهائهم وتعقلهم وصبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم »

الفصل السابع والاربعون

طارق جديد

وفيما الفونس يفكر في ذلك سمع قرعًا بعيدًا يشبه أن يكون على الباب الذي ينتهي اليه السرداب ولكنه رأى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به. ثم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا وأصغوا لما عساه ان يعقب ذلك الطرق فخاف أن يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطاع ذلك في عيونهم وجباههم . ثم سمع قرعًا ثانيًا على الباب الآخر بكيفية اخرى ولم يفرغ القارع من القرع حتى تحوّل انصات رفاقه الى الحركة وسمع الرئيس يقول « لقد جاءنا رسول يخبر جديد عساه أن يكون قادمًا من اخواننا في الشام أو مصر أو من افريقية . . »

فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل بمجرّد سماعه قرعة الباب وأدرك من وراء قوله ان لهذه الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرها فلم يتمالك أن قال « كيف عرفت الرجل من مجرّد سماع القرع عن بعد وهل لهذه الجمعية من أعضاء في تلك البلاد »

قال « عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية وأما سؤالك عن سعة الجمعية فان لها أعضاء في انحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة نتخلص بها من هذا الرّق . . . » وسكت هنيهة ثم قال « ومن هؤلاء الاعضاء اناس قد تصدروا في مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسي مرارة الذل والشقاء فيؤدي أدنى أعمال الخدام وهو ليس من مصاف الخدمة بل قد يكون من أهم أعضاء هذه الجمعية ومن اكثرهم بذلاً في سبيلها وانما يتزيا بزي الخدم تنفيذًا لغرض يعود على الطائفة بالخير . . . »

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته فأدرك للحال ان خادمة يعقوب من بعض كبار هذه الطائفة وأهم أعضاء هذه الجمعية . ولكنه ما زال ميالاً الى استطلاع علاقته بابيه وعمه لانهما كانا عارفين بسره على ما ظهر له من كلام اوباس — فاجل ذلك الى فرصة اخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة وهم

سكوت يسمعون صدى الحركات في القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعاً يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعاً خصوصياً فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الاسود · وحال دخوله وجه وجهه نحو الرئيس وكلمه بالعبرانية كلاماً لم يفهمه الفونس فاجابه الرئيس وتخاطبا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقاً في مظهر الرئيس و بين سائر الجالسين لانهم بلباس واحد ولون واحد فتوسم في ذلك سرًّا لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب في أثناء مخاطبة الرئيس والرسول بالعبرانية · فقال يعقوب « لو أمعنت النظر في ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الاعضاء ولا تظهر هذه العلامة الاَّ عند التامل وفي هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما · غير ان هذه العلامات ضعيفة حتى لا يراها غير المتامل »

فتفرّس الفونس في كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر الى اكتاف سائر الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر فاراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يتكلم بالقوطية يخاطب القادم قائلاً « لقد سرَّني قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك وعهدنا من يهمه سماعها و يهمنا سماعه اياها ونحن في حجرة الخلوة وما فينا الاَّ عمدة الجمعية فمن أين أنت قادم الآن ٠٠ »

وكان الرجل قد جلس في جملة الجالسين حول التابوت فقال « اني قادم من سبتة وخبري طويل لا يسع الوقت تفصيله ولكنني اعجل لكم منه ما يهمكم و يهمنا ولو كشفت لكم وجهي لرأيتم البشر ظاهرًا فيه اذ يظهر لي ان زمان أسرنا وذلنا قد انقضى أو قارب الانقضاء ٠٠ »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام في حركات الجالسين وأصغوا وقد تطاولوا باعناقهم الى المتكلم وقال الرئيس « بشرك الله بالخير ٠٠٠ عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء اسر أجدادنا في بابل منذ بضعة عشر قرنًا »



الفصل الثامن والاربعون

حديث ذو شجون

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس « لا يخفى على حضرة الرئيس اني مقيم منذ أعوام في سبتة على شاطىء افريقية (في مراكش) وهي وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن مع ان حقها ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لانها جزء من افريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقية بما أتاه العرب من الفتوح . ففتحوا كل سواحل افريقية تقريبًا الاّ سبتة وما يليها فانهم لم يفتحوها فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون ٠٠٠ »

فقطع الرئيس كلامه قائلاً « يظهر ان ابناء اسماعيل قد افلحوا في دينهم الجديد ٠٠٠ »

فاجاب الرجل « نعم يا مولاي » . ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لاجل الاستفهام فسكت . واما الرجل فانه أتمّ كلامه قائلاً « ان ابناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم باسره ومدّوا سلطانهم على العراق والشام وافريقية وفارس وخراسان الى أقصى المعمور ٠٠٠ » فازداد الفونس استغرابًا لقوله « أبناء عمنا » ولم يتمالك ان التفت نحو يعقوب . فادرك يعقوب مراده قبل أن يتكلم فقال له « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل بن ابراهيم واليهود أبناء أخيه اسحق فهم بهذا الاعتبار ابناء عمنا ٠٠ »

فحوّل الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فاذا هو يقول للرئيس « وقد سافرت في أسفاري للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر واختلطت بالناس ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الآن في افريقية ومصر والشام في راحه وسكينة لا يتعرّض لهم أحد في دينهم . يصلّون كيف شاؤا ومتى شاؤا ويتعاطون أعمالهم وتجاراتهم بامان وسهولة . وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لان اليهود كانوا مضطهدين أيضًا في تلك البلاد تحت نير الروم [1] يذوقون العذاب الوانًا كما كنا

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

نذوقهُ نحن منذ بضعة قرون قبل ان اجبرونا على النصرانية أو المهاجرة أو القتل واضطررنا الى الفرار أو المظاهرة بالنصرانية كما تعلمون[١] واما اخواننا في مملكة الرّوم فكانوا ارحم حالاً منا ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيرًا ما كانوا يفتكون بالنصارى و يناوءون الحكومة فلما جاء ابناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من اعوانهم على ذلك. وقد احسنوا صنعًا لانهم تحرّروا من رقّ الرّوم واستبدادهم وامنوا على ارواحهم واموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم في نعيم »

فقال الرئيس « وكيف ذلك ألم يخرجوا من سلطان الى سلطان ومن ضريبة الى ضريبة . ألم يحكم العرب فيهم سيوفهم او نفوذهم . ألم يضربوا عليهم الضرائب . . ؟ »

قال « بلى يا مولاي . ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف او بالصلح وصارت تحت سلطانهم ولكنهم بالحقيقة قلما يتعاطون شيئًا من امورها حتى انهم لا يقيمون في المدن ولا يخالطون بالرعايا الاَّ نادرًا او في اوقات معينة ولاغراض وقتية . . »[٢]

فقطع الفونس كلامهُ وقال « وكيف يكون ذلك واين يقيمون وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها . . »

قال « لا ألومك على استغرابك ذلك لانهُ غير مألوف في ما تعرفونهُ في هذه البلاد حيث يتداخل الحكام في كل حركة من حركات الناس بل هم يعدون الرعايا عبيدهم — واما هؤُلاء العرب فانهم بعد ان فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا في ضواحيها وابتنوا لانفسهم مدنًا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان في افريقية والفسطاط في مصر والبصرة والكوفة في العراق وتركوا اهل البلاد الاصليين على ما كانوا عليهِ في ايام الرّوم او الفرس كل منهم على دينهِ واعتقادهِ يتعاطى عملهُ ولا يهمهُ الاَّ ما يستحق عليهِ من الخراج او الجزية كل عام . وهي ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الرّوم يسومون رعاياهم من امثالها — وكان الناس عند اول الفتح اهنأ عيشًا منهم الآن بالنظر لظلم بعض عمال بني امية . ومنهم عامل في العراق اسمهُ الحجاج شديد الوطأة على اهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجتهِ اليهِ في الحروب ولكن الملك الاكبر الذي يسمونهُ الخليفة يقيم في دمشق الشام وكثيرًا ما يبعث الى عمالهِ ان يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود او النصارى ارفق حالاً تحت سلطان العرب مما

---

(١) رومي ج ١ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

تحت سواه وخصوصاً اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الاولون من العدل والرفق والمساواة — ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في الشرق »

فقال الرئيس « يا حبذا لو انهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد لانهم اذا كانوا اخف وطأة من بطارقة الرّوم فبالاولى ان يكونوا افضل لنا من حكومة القوط ... »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلاً « لا يحق لنا ان نشكو من حكم القوط على الاجمال فان بعضهم كان كثير الرفق بنا وخصوصاً غيطشة الملك السابق فانهُ كان عازماً على تحرير رقابنا واطلاق حرّية الدين لنا [1] .. ولكن المنية عاجلتهُ او هم عجلوها له لمخالفة الطاغية رودريك وهو من اظلمهم جميعاً قبحهُ الله .. »

الفصل التاسع والاربعون

يوليان

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشه بينهم واعجبهُ ما قالهُ الرحالة من اطراء ابيه فقال « لقد نطقت بالصواب وفي كل حال فاننا وددنا لو ان هؤلاء العرب يأتون اسبانيا . ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها اذ ما من طائفة من اهلها لا تشكو من هيأة الحكومة »

فقال الرحالة « ان هذا الامر الذي تتمنونهُ وانتم جلوس هنا قد سعى فيهِ اخوانكم هناك وانا في جملتهم وكثيراً ما حرضنا هؤلاء العرب على ذلك وحببنا اليهم هذه البلاد وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون .. ولكن يظهر انهم اوشكوا ان يحملوا عليها .. »

فابتدره الرئيس بلهفةٍ قائلاً « هل تعني ما تقول حقيقة »

قال « نعم يا مولاي وهو الخبر الذي جئت من اجلهِ وكنت عازماً على مباغتتكم بهِ فاخرجنا الحديث عنهُ — قلت لكم ان سبتة (في موريتانيا) كانت في جملة ولايات الرومان فلما فتح العرب افريقية اصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز

(١) رومي ٢ ج

صاحبها الى اسبانيا ليكون في كنف دولة نصرانية وقاعدتها فرضة سبتة على بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) ولما خرجت امن اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجل اسمه بوليان فتظاهرتُ بالنصرانية وعمدت الى تجارتي اشتغل بها وانا ارتحل في البلاد واعود الى سبتة وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ لطائفتي لما نقاسيه من الفتك والعسف تحت نير القوط فاتيح لي اني انتقمت لها من بوليان هذا انتقامًا ليس هذا محل ذكره وكنت مع ذلك من المقربين له يثق بي ويسارني في اموره وانا أُظهر له الود واغتنم الفرص لنيل بغيتي وما هي الاَّ ان احبب الى العرب فتح هذه البلاد . ولكنني اعلم ان السبيل اليها لا يكون الاَّ اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق وهو اقرب سبل العرب الى هذه البلاد

وكان عامل العرب على افريقية في الاعوام الاخيرة رجلاً منهم اسمه موسى ابن نصير وهو شجاع ذو همة . فبعث رجاله حتى فتحوا طنجة واقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر وبوليان ممتنع فيها صابر على ولاء القوط مع علمه ان صبره لا يجديه نفعًا ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك ..لاسباب لا تجهلونها .. »

وكان الفونس لما ذكر اسم بوليان خفق قلبه لعلمه أنه والد حبيبته فلورندا واصاخ بسمعه لعله يسمع شيئًا يتعلق بها . فلما وصل الرجل الى قوله « ان بوليان لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لاسباب لا تجهلونها » ادرك ان اهم تلك الاسباب وجود فلورندا في بلاط رودريك كأنها رهن عنده على طاعة والدها له . وتذكر حالة مع فلورندا وانها خرجت من حوزة رودريك فهب بدنه كأنه رُشَّ بالنار ولكنه صبر نفسه ليسمع بقية الحديث وكان الرئيس قد اجاب الرجل قائلا « لا نجهلُ تلك الاسباب .. ثم ماذا .. »

فقال الرجل وكنت أنا في اثناء ذلك الحصار في قصر بوليان اجالسه كثيرًا وهو يركن اليَّ ويقرّبني منه لغنائي وسعة تجارتي لعله يحتاج الى مال او مؤونة في اثناء الحصار وانا اكثر منه رغبة في ذلك التقرب كما تعلمون . فاصبحت منذ أيام وانا في منزلي اذا برسول بوليان يدعوني اليه عاجلاً فمضيت حتى اذا دخلت قصره واشرفت على باب غرفته رأيت شابًا خارجًا منها يظهر من قيافته أنه قادم من سفر بعيد وعلمت من شكل لباسه انه من اهل طليطلة واحسبه من خدم الملك . فمرَّ الرجل بي ولم يكلمني فسرت حتى دخلت الغرفة وكنت ادخلها دائمًا بلا استئذان . فرأيت بوليان جالسًا على كرسي بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق في الهواجس . فلما

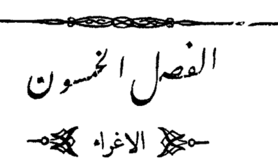
سمع خطواتي نهض بغتة ورمى اليَّ بما كان بيده وقد أخذ الغضب منهُ مأخذًا عظيماً وهو يقول «اقرأ هذا يا فلان واعتبر شقائي وتعاستي. ما كفتني المصيبة التي اصابتني من اول عهد شبابي حتى بليت بأقبح منها من رجل انت تعلم اني اقاسي عذاب الموت في سبيل المحافظة على ولائهِ» فالتقطتُ ما رماه فاذا هو قطعة من قماش اظنها مقطوعة من قميص او رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قرأتها اقشعر بدني استغرابًا ولكن قلبي كاد يطفح سرورًا لعلمي ان في ذلك الكتاب حلاً للمشكل الذي نحن فيهِ .»

وكان الفونس في اثناء ذلك بغاية الاضطراب وكان سائر السامعين في غاية الاصغاء لما يتوقعونهُ من الخبر الجديد فقال الرجل «فقرأت الكتاب فاذا فيهِ معناه :

« والدي العزيز

«سلمتَ ابنتك الى رجل يسمي نفسهُ ملكًا وهو وحش كاسر لا يرعى ذمامًا ولا حرمة ولا عرضًا ولولا العناية الالهية لذهبت فريسة بغيهِ وفسقهِ . أكتب اليك هذا على قطعة من ثوبي وانا هائمة على وجهي لا ادري ابن اختبيء من بغي هذا الظالم الخائن ولا ادري متى التقي بك — فما جزاء من اراد بابنتك سوءًا . وحامل هذا الكتاب — اذا استطاع الوصول بهِ اليك — انبأك شفاهًا بما قد يشكل عليك فهمهُ

« كتبتهُ فلورندا »



الفصل الخمسون

الاغراء

فلا تسل عن الفونس واضطرابهِ وخفقان قلبهِ ولولا ذلك اللثام لافتضح امره لاستغرابهِ قولها « انها هائمة على وجهها » وقد كان يظنها في مأمن عند عمهِ فعظم عليهِ الامر ولكنهُ كظم على عواطفهِ وصبر نفسهُ لسماع بقية الحديث وكان يعقوب مشعرًا معهُ بالبغتة لانهُ كان مطلعًا على شيء من علاقتهِ بفلورندا

أما الرجل فانهُ اتم حديثهُ قائلاً « فلما فرغت من قراءة الكتاب اظهرت الغيظ وقلت له « الى متى البقاء على ولاء رجل لا يرعى ذمامًا ولا يحفظ حرمة ولا يستبقي عرضًا . . »

انت تعرّض نفسك للخطر وتصبر صبر الابطال في الدفاع عن سلطانهِ وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك » وكان بوليان قد استولت عليهِ السوداء منذ اعوام على اثر مصيبة انتابته وثقل عليهِ حملها فجعلتُ استفتهُ واهيج عواطفه حتى قال « لا بد لي ان انتقم من هذا الخائن واسلم هذه البلاد لهؤلاء العرب فانهم احفظ منه للجميل . ولا يكفي ذلك بل انا محرضهم على فتح اسبانيا الى طليطلة حتى يصيبوا مقتل رودريك فاشفي غليلي » . فسرّني عزمه على ذلك وهو الغرض الذي طالما تمنيته وسعيت فيهِ فجعلت اقوي عزيمته واهون عليهِ الامر حتى قلت « واذا احببت فاني اسعى عنك في مخابرة العرب واجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم وليس عن ضعف أو جبن » فرضي مني بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير امير العرب فسرَّ ورحب ببوليان . فعرض عليهِ بوليان عبور بحر الزقاق الى العدوة الاخرى وفتح الاندلس على ان يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط[1] فرضي موسى ولم اتمالك عند سماعي ذلك عن القدوم اليكم بهذا الخبر فما قولكم .. ؟ »

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع وخصوصاً الفونس فانهُ وقع بين عاملين عامل الغرام لفلورندا وقد انشغل خاطره بشانها بعد ان علم انها ليست في بيت عمهِ . وعامل اليأس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لانها تخرج من سلطان القوط على الاطلاق . وادرك يعقوب ما قد يخطر ببال الفونس من هذا القبيل وخاف ان يكون لذلك تأثير على رأيه في مقاومة رودريك . ثم تذكر مسالة فلورندا وما في نفس الفونس على رودريك بشأنها فعلم انهُ لا يمكن ان يصفو له مطلقاً وخصوصاً بعد ان سمع شكاية فلورندا لابيها . على انه احبَّ ان يثبت الفونس في عزمه فقال وقد وجه خطابه الى الرئيس « ان الخبر الذي جاءنا به اخونا هذا من الاهمية بمكان عظيم ولا نظن العرب الاَّ فاتحين هذه البلاد وخصوصاً لان بوليان معهم يدلهم على الطرق وطبعاً نحن نكون عوناً لهم ايضاً لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئاً من غرضنا الاول في استبقاء الحكم بيد مولانا الملك (واشار الى الفونس) لاننا قد سمعنا الآن ان العرب يستبقون البلاد

---

(١) وفي التاريخ ان بوليان وصلهُ خبر ابنتهِ هذا قبل ذلك بسنة وبعض السنة فسلم للعرب وخابر موسى بن نصير بشان فتح الاندلس وهو خابر الخليفة الوليد حتى قرَّ الراي على الفتح في تلك السنة (٩٢ هـ)

على ما هي عليه ولا نظنهم اذا علموا نصرة ملكنا هذا لهم الآن يسلمون اليه الاحكام و يكتفون بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية

وكان الفونس يسمع ذلك وقد همه الخبران ولكن خبر فلورندا غلب على خاطره واصبح شديد الرغبة في الخروج من ذلك المجتمع للبحث عنها . على انه اراد قبل الانصراف ان يستوثق من الامر الذي جاء من اجله على ان يجعل كلامه جواباً على كلام يعقوب فقال « ظن صاحبي يعقوب ان غرضي من هذه النقمة على رودريك مجرد رغبتي في السلطة . والحقيقة ان الغرض الاول هو انقاذ هذه البلاد من استبداده واطلاق سراح اليهود الذين اجبروا على النصرانية ظلماً . ثم اني أُريد ان يعلم هذا الطاغية ان على الباغي تدور الدوائر فاذا حدث ذلك فلا يهمني بعدُ من يملك »

فقال الرجل « اؤكد لمولاي الملك ان المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ولا اظنهم يستغنون عن مولاي الملك في حكومة هذه البلاد بعد فتحها فقد ولوا على طنجة رجلاً بربرياً اسمه طارق[1] مع ان البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم اذعانـــا تاماً حتى الآن — يفعل العرب ذلك لقلة عددهم بالنظر الى سعة البلاد التي فتحوها فيضطرون الى الاستعانة بغير العرب في ضبط الاحكام — فهل يعينهم على حكومة اسبانيا خير من ملكها . وعلى كل حال فانا لا نألو جهداً في اقناعهم بذلك .. »

فلما سمع الفونس قوله اطمأن خاطره من قبيل الملك وتجمعت هواجسه على فلورندا وود سرعة ارفضاض الجلسة فالتفت الى الرئيس وقال « هل من كلام بلقى علينا ام تأذنون بانصرافنا »

فوقف الرئيس ووقف الجميع فقال الرئيس « اذا شئت الانصراف فالامر فيه امرك ولكننا نتقدم اليك ان تعتقد صدق عبوديتنا في خدمتك وان اليهود في كل هذه البلاد يضحون أموالهم وانفسهم في مصلحتك وعهد الله في ذلك بيننا وبينك »

فشكره الفونس وقال « قد ذكرت لكم غرضي من استنصاركم والله ولي التوفيق .. »

ثم تحرك يعقوب نحو الباب واشار الى الفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المضدة كما تقدم . فمشيا مشية خاصة وخرجا من باب الى باب حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما اطلا على الخلاء رأيا الفجر قد

---

(١) ابن خلكان ج ٢

لاح فعلم الفونس انهم قضوا طول ذلك الليل هناك وأحس ببرد الخلاء . ثم نزعا الثوبين الاسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة وكان بابها قد فتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر والفونس لا يتكلم لما تراكم في مخيلته من الامور الجديدة في ذلك الليل . واصبح لا يدري كيف يعامل يعقوب بعد ان عرف انه من اعيان اليهود لكنه ظل راغباً في استطلاع بقية سرّه على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل فاصبح لا يستطيع بحثاً في شيء ولكن صورة فلورندا لم تبرح من امام مخيلته وما سمعه من اقوالها الى والدها لم تغرب عن سمعه

وصلا القلعة والفونس لا يزال ساكتاً ويعقوب يراقب حركاته وسكناته وكان قد ادرك شيئاً ما يجول في خاطره ولم يشأ ان يحادثه في شيء غير الاستفهام عما يريده من طعام او نحوه . وصعدا الى غرفة الفونس فاعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام ونام يعقوب أيضاً

فلنتركهما نائمين بجوار اسجة ولنذهب بالقارىء الى افريقية (وهي بلاد البربر المعبر عنها اليوم بشمالي افريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) ونبحث عن احوال العرب هناك الى فتح الاندلس

الفصل الحادي والخمسون

أبعد فتوح الاسلام

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة قضى معظمها في محاربة مناظريه عليها وكثيراً ما خاف خروجها من يديه ولكنه كان ذا سياسة ودهاء وقد نصره الحجاج بن يوسف ادهى عمال المسلمين واشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المناظرين فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث

قتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فاوغل في بلاد الترك حتى ادرك حدود الصين . وبعث اخاه مسلمة بن عبد الملك شمالاً لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها . وانفذ موسى بن نصير الى افريقية فولاه اياها وامره ان يتم فتحها

وكانت افريقية قد فتحت في صدر الاسلام والحقت بمصر واهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . واهل افريقية الاصليون قبائل البربر لهم ألسنة خاصة وعوائد خاصة وهم قبائل عديدة جدًّا وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى . وكانوا لما اشتغل الامويون عن افريقية بانفسهم ايام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة . فبعث اليهم عبد الملك حسان بن النعمان فحاربهم واخضعهم ونشر الاسلام فيهم . ولكنهم كانوا اقوامًا شدادًا فما لبثوا ان عادوا الى الاضطراب . فلما تولى الوليد بلغهُ انهم في انقسام فيما بينهم فرأى ان يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانهِ هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث موسى بن نصير وهو عربي لخمي وكان قائدًا باسلاً حسن الاعتقاد في الاسلام فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الادنى وهم يفرُّون من بين يديهِ حتى اذا يئسوا من النصر جاؤُا اليهِ مستأمنين وبذلوا لهُ الطاعة فقبل منهم وولَّى عليهم اناسًا من رجالهِ يضبطون احوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الاسلام

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمهُ طارق بن زياد وكان شجاعًا قد اعتنق الاسلام واظهر غيرة عليه ورغبة في تأييده . فلما اتسعت فتوح موسى في افريقية ولى مولاه طارقًا على طنجة واعمالها وترك عندهُ ١٩٠٠٠ فارس من البربر ممن اسلموا وحسن اسلامهم . ورجع موسى الى افريقية ولم يبق في تلك البلاد غير خاضع للمسلمين الاَّ مدينة سبتة وهي فرضة داخلة في البحر مشرفة على بحر الزقاق المسمى الآن بوغاز جبل طارق . وكان حاكم سبتة الكونت يوليان المتقدم ذكرهُ . ويقول مؤرخو العرب انهُ ما زال ثابتًا على ولائهِ لرودريك (الذريق) حتى أساء رودريك الى ابنتهِ فنقم عليهِ وحرض العرب على فتح اسبانيا . وينكر مؤرخو الافرنج ذلك السبب ويقولون أنهُ انما أعان العرب على فتحها لانهُ من اقارب غيطشة وقد فعل ذلك انتقامًا من رودريك لاختلاس الملك منهُ فاخترنا رواية العرب كما رأيت

وكان جماعة البربر في المغرب يعبدون الاوثان الا بعض من خالط الروم على شواطئ البحر فانهم اعتنقوا النصرانية وهم قلائل . وكان لكل قبيلة اصنام وعبادات

وكهنة يديرون شؤونها و يتولون الاحكام بين اهلها و يحلون المشاكل التي تقع فيهم كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية ٠ غيران الكاهن يسمى عند البرابرة « ماربوط» فيأتون اليه للاستشارة في حرب او سلم ويحملون اليه الهدايا من الماشية او الحنطة أو الرقيق الاسود او الابيض

وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الاطفال والغلمان ويحملونهم الى الافاق يتجرون ببيعهم كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من أهل اسبانيا وغيرها والغالب ان يكون هؤلاء من اسرى الحرب ٠ وكان بيع الاسرى شائعًا في تلك العصور ٠ واشتهر برابرة المغرب خصوصًا بركوب الخيل

الفصل الثاني والخمسون

طارق بن زياد

وكان في جملة قبائل البربر قبيلة الصدف ومنها طارق بن زياد ولذلك قيل له الصدفي [1] وقد نشأ طارق في الجبال وعاش عيشة البدو وتدين بالوثنية مثل سائر اهله ورفاقه ٠ وقد شبَّ قوي البنية شديد البطش شجاعًا وكان منذ نعومة اظفاره مشهورًا بين رفاقه بالفروسية والقوة ٠ وكان من جملة عشرائه غلامٌ أبيض اللون بخلاف سائر البرابرة وتقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم -- فالبرابرة ضخام الشفاه عراض الوجوه فطس الانوف سود الشعور شداد السمرة ٠ وهذا الغلام ابيض الوجه اشقر الشعر ازرق العينين ولكنه بالنظر الى معيشة البداوة في البراري وركوب الخيل والغزو اسمرَّ لونه قليلاً وضخمت أعضاؤه كلها فاصبح غليظ العنق والذراعين واسع الصدر خشن الكف كثيف الشعر وكانوا يسمونه (بدر) اشارة الى صباحة وجهه دون سائر الرفاق ٠ وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه و يسالمونه لسابق اعتقادهم ان الشجاعة خصت بالسمر وان

(1) ابن الاثير ج ٤

البيض ضعاف جبناء

شبّ طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت ابيهِ ويعلم انهُ ليس اخاه لان ماربوط قبيلتهم دفعهُ الى زياد واوصاه برعايتهِ والاعتناء بتربيتهِ لانهُ توسم فيهِ الخير . فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لا يهنأ لهُ عيش الاّ اذا كان بدر معهُ وكان بدر يعجب بطارق ويحبهُ كثيرًا ويعدهُ نفسهُ أخاه ولا يتخاطبان الاّ بالاخوّة وهما معروفان بذلك عند سائر قبيلة الصدف

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقية وصار عاملاً عليها كان في جملة من اتخذهم من الموالي طارق بن زياد ولما رأى شجاعتهُ وحسن اسلامه رقاه حتى جعلهُ قائد حامية طنجة كما تقدم . وكان بدر رفيق طارق في كل اعمالهِ ولكنهُ لصغر سنهِ لم ينتبه موسى لهُ على أنهُ أظهر في الوقائع التي شهدها بسالة الابطال المحنكين لانهُ لم يكن يهاب الموت وخصوصًا اذا كان مع اخيهِ طارق

فلما عرض يوليان على موسى فتح الاندلس على ان يكون هو عونًا لهُ في ذلك بعث موسى الى الخليفة الوليد يستاذنهُ فاذن لهُ على ان يخوضها بالسرايا « ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال » [1] فرأى موسى ان يجرب ذلك برجالٍ من الموالي (المسلمين غير العرب) [2] يرسلهم لفتحها ولم يرَ خيرًا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر وفيهم بعض العرب وسلم قيادتهم الى طارق وامرهُ ان يعبر بهم بحر الزقاق الى الاندلس

فعبره في سفن أعدّها لهم يوليان حتى نزلوا جبلاً على شاطىء ذلك البحر سمي بعد ذلك باسم طارق (جبل طارق) الى اليوم . ولم يلق طارق مشقة في امتلاك الجبل ثم بلغهُ ان رودريك صاحب طليطلة يتأهب للمجيء اليهِ في جند عظيم فكتب طارق الى موسى فأمدهُ بخمسة آلاف بربري فصار جندهُ اثني عشر الفًا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الاخبار ويبث في اهل البلاد ان العرب

(١) ابن الاثير ج ٤ وذكر هناك ان ذلك كان سنة ٩١ هـ وان موسى ارسل طريفًا ففزا جزيرة سميت باسمهِ ثم ارسل طارقًا

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

جاؤًا الاندلس ليس لقصد الفتح والاستيطان وإنما يريدون ان يملأوا ايديهم من الغنائم ويخرجوا . وحبب الى الاسبان ان يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منهُ ويعيدوا الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصليين . وما زال طارق زاحفًا بجندهِ على هذه الصورة حتى اتى وادي لكة (قرب قادس) وهناك التقى جندهُ بجند رودريك [1] على ما هو مدون في كتب التاريخ

ووادي لكة او وادي لينة ويسميه الافرنج جوادي لتي (Guadalete) في جنوبي الاندلس ما بين استجة وجبل طارق يصب في خليج قادس — على ضفاف هذا النهر التقى جيش طارق بجيش رودريك في اوائل سنة ٩٢ ه وهناك جرت الواقعة التي قضت على جند القوط وايدت الفتح للمسلمين على يد طارق بن زياد البربري كما سيأتي

الفصل الثالث والخمسون

رودريك واوباس

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوفيق خادم لهم ورودريك في بلاطهِ على نحو ما قدمناه من اشتغالهِ بالترف والرخاء . وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظًا من اوباس لاستخراج فلورندا من بين يديهِ بعد أن كادت تكون فريستهُ . فطلب محاكمتهُ في مجلس الاساقفة فلما رأى منهُ ما كاد يفضح امره اسرع الى اقفال الجلسة بحجة تاجيل النظر في تهمة اوباس الى جلسة اخرى كما تقدم — وهو لا ينوي العود الى ذلك وإنما اتخذه ذريعة للحجر على اوباس في السجن ريثما يبحث عن فلورندا

فلما انقضت الجلسة عاد رودريك الى قصرهِ والاب مرتين الى جانبهِ يطنب في ما كان من تغلبهم على اوباس وارغام انفهِ . والملك مع اقتناعه بتغلب اوباس عليهِ في تلك الجلسة صدَّق ما تزلف بهِ مرتين اليهِ من الاطناب وحسب نفسهُ مخطئًا بحكمهِ على

(١) نفح الطيب ج ١

نفسه بالضعف واقتنع بفوزه المبين . وكانه نسي ما كان من الصواعق التي انزلها اوباس على راسه في اثناء المحاكمة . وعمي عما كان من سقوط عرشه لو لم يتدارك الامر باقفال الجلسة والاساقفة الحاضرون راغبون في تبرئته حفظاً لكرامة مناصبهم — ولكن الانسان لاستهلاكه في حب الذات يسهل انقياده الى الاقتناع بفضله على سائر الناس عقلاً ورأياً وقوة . ويقوى فيه هذا الاعتقاد كلما ضعف عقله واظلمت بصيرته . لان حب الذات يدعونا الى الاعتقاد باننا أمضى الناس عزيمة واصوبهم رأياً واصحهم مذهباً . بل هو يوهمنا ان كل ما هو لنا خير مما لسوانا . فاصبح كل منا يعتقد ان ابنه احسن من ابناء سائر الناس وامرأته خير من نساء العالمين . واذا كان مؤلفاً كانت كتابته ابلغ ما كتبه العلماء ونظمه احسن ما نظمه الشعراء والمرء مفتون ببنات افكاره — الا اذا كان من اهل الرأي السديد والبصيرة النقادة فان حكمه يقترب من الحقيقة بقدر ما اوتي من تلك المواهب . ولكن يندر ان نقدّر انفسنا حق قدرها تماماً . وخصوصاً اذا منينا من يملقنا ويمدح اعمالنا لمجرد رغبته في ارضائنا لا لاستحقاق فينا — واكثر الناس تعرضاً لهذه الاخطار الملوك وغيرهم من أهل المناصب الرفيعة فان الناس يتسابقون الى استعطافهم بالتملق والمدح الكاذب التماساً لنفع او تنفيذاً لغرض كما تبين لنا من أمر مرتين ورودريك

فوصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بفظاعة ذنب اوباس وانه يستوجب اضعاف تلك النقمة فعول على استبقائه في السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل في قتله لئلا يحتاج اليه في البحث عنها . واول شيء باشره انه بث العيون والارصاد في ضواحي طليطلة وفي الطرق المتشعبة منها . ووعدهم بالمكافأة الكبرى اذا قبضوا عليها وعلى من عساه ان يكون معها

اما اوباس فانه ذهب الى سجنه وهو منشرح الصدر لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده وخصوصاً بعد ان اتيح له كشف أعمال رودريك المجمع ولو تلميحاً . وهو مع ذلك لا يرجو تغير المجمع على رودريك وانما يهمه الانتصار للحق واجابة صوت الضمير الحي — شأن الذين ينتظمون في سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم . فهؤلاء اذا أخلصوا النية في تبتلهم لم يكن في الناس أقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة او الثروة ولاحتقارهم سائر امجاد هذا العالم الفانية وهم انما تبتلوا نفوراً منها —

وقد كان اوباس من أمثال هؤلاء ولم يكن سعية في ارجاع الملك لابن أخيو الأ من قبيل نصرة الحق

اقام اوباس في سجنه الموقت بضعة أسابيع وهو لا يبالي لو أقام فيه أعوامًا لولا انشغال خاطره بفلورندا لانهُ لا يعلم ابن هي ولا أين ذهب بها أجيلا وشانيلا . ولكنهُ رجح من قرائن مختلفة انهم لم يقعوا في قبضة رودريك . وكان اثقتهِ ببسالة ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما في خدمتهِ مطمئن البال على فلورندا على انهُ كان شديد الرغبة في معرفة مقرها ومصير أمرها . وكان من الجهة الاخرى يفكر في الدوس وفي المهمة التي انفذه رودريك فيها وما قد يتعمك من أذيتهِ اذا علم بسعيهِ في انقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسهِ ولكنهُ لانطباعهِ على نصرة الحقيقة لم يكن يخاف بأسًا على اهلها . فهو يعتقد ان الحق يعلو ولا يعلى عليهِ وان على الباغي تدور الدوائر ولذلك فانهُ كان يتوقع وقوع رودريك في شرّ اعمالهِ وقد صرح بذلك غير مرة حتى بين يدي رودريك نفسهِ

والانسان العاقل اذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الاخطار يرى الرجوع الى غير الحقيقة ضربًا من الجنون . لان الحقيقة هي الغالبة وهي وحدها التي تبقى . وان كنا في الواقع لا نكاد نخطو خطوة الأ والوهم قائدنا — اعتبر ذلك في كل ما نتعامل بهِ من العلائق الادبية في نظام الهيئة الاجتماعية فانك ترى اساس تلك العلائق اعتبارات وهمية لا وجود لها في الطبيعة وانما هي ما صوره وهم الانسان منساقًا الى ذلك بالضعف البشري وقد حاول اثباتهُ صونًا لمصلحتهِ في ما تدعوه اليهِ عواطفهُ وهذا ايضًا من قبيل الوهم



الفصل الرابع والخمسون

شريش وكرومها

شريش (Xeres) مدينة في جنوب اسبانيا تابعة لولاية قادس في الطريق بينها وبين اشبيلية . بينها وبين مدينة قادس ١٧ ميلاً وهي واقعة بالقرب من نهر صغير يسمى وادي لبتة (guadalete) والنهر المذكور ينشأ من جبال ولاية قادس في الشمال ويسير نحو الجنوب والغرب فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجري حتى يصب في البحر الاتلانتيكي في خليج بالقرب من مدينة قادس . ومدينة شريش واقعة في منبسط من الارض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب . وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس وخصوصاً الكرم . لان هذه المدينة مشهورة بكرمها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شري) الشائعة في اوربا وهي ثمينة يعتنونها وينعاطونها على موائدهم . ومعظم مايصدر الى العالم من خمر شري الجيد يعصر من كروم ضواحي هذه المدينة

وكروم شريش تملأ مسافة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه على آكام مسطحة او مائلة . وبين الكروم بيوت المزارعين وبينها أبنية غريبة الشكل هي عبارة عن غرف كبيرة قائمة على صفوف من الاساطين الدقيقة . والغرف عالية السقوف في جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء وهي مستودعات يختزن الكرامون خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الاعوام

وبجوار مدينة شريش مما يلي وادي لبتة سهل سماه المقري «فحص شريش» (١) التقى فيه طارق البربري وردريك القوطي وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الاندلس وتمتع العرب بغنائمها ومحصولاتها . وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا باوربا كلها وكانت في غاية الاضطراب والتضعضع فلوظلوا سائرين لما لقوا من يصد سيوفهم او يقف في سبيل نبالهم ولكنهم أجلوا المسير فضاعت الفرصة منهم

ففي صيف سنة ٧١١ للميلاد (٢) اي بعد الحوادث التي ذكرناها في طليطلة ببضعة اشهر كانت مغارس الكرم في شريش وضواحيها وعلى جانبي وادي لبتة قد نضجت اعنابها

(١) نفح الطيب ج ١ (٢) في اواخر الصفحة الثانية من هذه الرواية ٧١١ صوابها ٧١٠

واخذ بعض الفلاحين في قطافها والبعض الآخر في دعامة ما ثقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد . واشتغل آخرون في اعداد المعاصر وآخرون في نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضي لاختزان خمر هذا العام

ويشتغل في كل ذلك عائلات من اهل البلاد الاصليين او ممن قضي عليهم بالاسر في بعض الحروب فاصبحوا في مصاف العبيد وفيهم من كان بين قومه من اهل الوجاهة[1] وقد صبروا على مضض الذل وهو غير ثقيل على اهل ذلك الزمان لانه كان جاريًا على الجميع . على ان ذلك لم يكن يمنع تذمر اولئك الفلاحين من تلك الحال واكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة . على ان الرأي العام لم يكن راضيًا عن رودريك لاسباب تقدم ذكر بعضها

وكانوا من الجهة الاخرى قد سمعوا بنزول العرب بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) ولم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كبير اهمية . وكان في جملة هؤلاء الكرامين شيخ طاعن في السن قضى حياته في الاسفار باسبانيا وما يقابلها من العدوة الجنوبية بافريقية حتى وصل الى مصر والشام وشاهد بعض احوال العرب في اوائل ظهور الاسلام فكانوا اذا ذكروا العرب بين يديه يقول « لا ينجينا من هذا الملك الا هؤلاء » فلما قيل له انهم عبروا البحر قال « لقد قرب الفرج »



الفصل الخامس والخمسون

ماريه

وكان شيخنا المذكور في اواخر يوليو من ذلك العام (سنة ٧١١) الموافق رمضان سنة ٩٣ ه[2] جالسًا في كوخه وحوله اولاده واحفاده يشتغل النساء منهم باعداد الطعام واصطناع الالبان والجبن والاولاد يشتغلون في علف الماشية او اصطناع السلال لحمل العنب عند قطافه ولا حديث لهم الا تقدير موسم ذلك العام من العنب والخمر — وما لهم في تقديره فائدة كبرى لانه ليس ملكهم اذ لم يكن للفلاحين ونحوهم ان يقتنوا عقارًا او يملكوا

(١) دوزي ج ١ (٢) التقويم العام لخمسة الاف عام

بنيانًا وانما الملك والسيادة لطبقة الشرفاء واكثرهم من الرومانيين والقوط وللفلاحين حصة قليلة من النتاج · ولكن الانسان ميال للبحث عن المجهول ولذلك فقد اشتغل الشيخ واولادهُ معظم ذلك النهار في تقدير غلة تلك السنة حتى احتدم الجدال بينهُ وبين احدهم واشتغلوا بذلك عما حولهم · وكانوا جالسين في ظل دالية كبيرة قد نصبوا باغصانها خيمة بشكل العريش واجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء و يستظل بظلها اهل تلك العزبة وما فيهم غير الشيخ واولاده واحفاده ونساء المزوجين منهم

اقبل المساء وهم في ذلك وقد رجع من كان غائبًا في اثناء النهار في اصلاح الدالية او تسنيدها او تنظيف المستودعات او اصطناع السلال او نقل القضبان اليابسة لاجل الايقاد — فربما جاء الرجل وعلى رأسهِ سلّة وعلى كتفهِ حزمة وتحت ابطهِ جرّة وفي جيبهِ صرة وفي يدهِ رغيف وفي فيهِ لقمة يجرُّ وراءهُ صبية هذا يقود خروفًا وذاك يسوق حمارًا وذلك يحمل عنقودًا قطعهُ قبل تمام النضج وفيهِ حموضة قليلة وقد منعهُ ابوهُ عن ذلك فخبأ العنقود في جيبهِ وجعل يأ كلهُ اختلاسًا واخوه بجانبهِ يهدده بالشكوى الى ابيهِ اذا لم يطعمهُ بعضهُ فيهرع هذا الى والدتهِ يختبئُ في ثنايا ردائها وفي زعمهِ ان ذلك الرداء يحميهِ من كوارث الدهر وطوارق الحدثان كأَنما هو راية كسرى انوشروان — تلك عيشة السذاجة الفطرية ان يقتات المرء من ثمار ما يغرسهُ والبان ما يرعاه لا مطمع لهُ الاَّ ان يجمع من ذلك ما يكفي اهلهُ بقية العام للكساء والطعام — هناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة · هناك الاخلاص وصدق اللهجة — اذا سمعت احدهم يقول لك انهُ مشتاق لرؤْيتك فهو يعني ذلك حقيقةً ولا يقولهُ على سبيل العادة التي اساسها التدليس والتمليق · والسعادة الحقيقية (اذا صح وجودها) فانما تكون في تلك المنازل الحقيرة بين تلك المغارس التي تتجدد اوراقها في كل عام وتتجدد قلوب اهلها معها — ليس هناك ضغينة ولا حقد ولا طمع ولا نميمة ولا رياء لقلة حاجيات الانسان وسهولة نيلها · لان المرء اذا قلَّت مطالبهُ وهان عليهِ اكتسابها فلما يداخل قلبهُ حسد او حقد او غيرها من الرذائل · لان الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبهُ وعجز عن الحصول عليها بجدهِ وسعيهِ — ولذلك كانت الرذائل من جملة ادران المدنية

على ان الفلاَّح الساذج انما يكون سعيدًا في ظل الامن والعدالة · والاَّ فهو من أتعس خلق الله لان الظلم يقضي على سعادتهِ قضاءً مبرمًا اذ يسلبهُ ينبوع تلك السعادة وهو

غلة ارضهِ — فكيف اذا لم يكن هو صاحب الارض كما كان شأن فلاحي اسبانيا في الاجبال الوسطى . فلا بلام شيخنا المشار اليهِ اذا تمنى استبدال حكومتهِ بغيرها ولو كان غريبًا

غربت الشمس وهي ترسل اشعة ذهبية تشرح الصدر ويتطال اهل المدن لرؤيتها وقلما يتفق لهم ذلك . ولو اراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ولكنهم في شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل او تحت بعض الاشجار .

فلما غابت الشمس اجتمع افراد تلك العائلة وهم يعدون بالعشرات وفيهم الاطفال والاحداث والشبان والشابات واصغرهم سناً اكثرهم فرحًا

وكان اعظمهم اهتمامًا ذلك الشيخ لانهُ لم يكن يهدأ له بال الاَّ بعد ان يرى اولاده وأحفاده تحت ذلك العريش في آخر النهار . وخصوصًا بعد ان جند امير تلك الناحية بعضهم بامر رودريك ليكونوا لهُ عونًا في محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر

فلما ظن الشيخ ان الاجتماع تكامل تفرس في اولاده فاذا احدى بناتهِ لا تزال غائبة وكانت اعزهم على قلبهِ للطفها وحنوها فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتي فلما استبطأها نادى امرأتهُ قائلاً «اين مارية»

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع اخوتها واخواتها و لم تكن تهتم بمراقبة رجوع احد لاعتمادها في ذلك على زوجها — فلما سمعتهُ يسألها عنهـا بغتت وصاحت «الم تأت بعد»

قال «كلاَّ ... اين تركتموها»

قالت «تركتها في المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل وتنقل بعض الجرار الملآنة الى جانب آخر ومعها اخوها بطرس ...» قالت ذلك والتفتت الى ما حولها ونادت «بطرس» فجاء الغلام مسرعًا فابتدرتهُ قائلة «اين تركت مارية»

قال «تركتها في المستودع الكبير .. ألم تأت بعد ؟»

قالت «لا»

ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش واسرع نحو ذلك التل وهو يقول «سأعود بها بعد قليل» وانمـا حركهُ على تلك العجلة شعوره بانهُ مخطيء برجوعهِ وحدهُ دون اختهِ

وكان القمر في اواخر ايامهِ والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة موعرة الاَّ

على اهل الكروم فانهم يمشون بينها واعينهم مغمضة لا يعثرون بعود ولا حجر · ولبث الشيخ واهلهُ ينتظرون رجوع بطرس على مثل الجمر وهم يعدون خطواته ويقدرون الامكنة التي يمرّ بها ويحزرون وصولهُ الى كل منها حتى قدَّروا انهُ وصل وعاد فاذا هو لم يرجع بعد فانشغل خاطرهم وصبروا انفسهم حتى طال غيابهُ ولم يعد الوالدان يستطيعان صبرًا فوثب الوالد الشيخ كأنهُ شاب في عنفوان الشباب واقتص اثر ابنهِ عن طريق مختصر لا يعرفهُ الابن ولم تكن المسافة بين العريش وذلك المستودع تزيد على مئة متر شرقًا من جهة النهر والمستودع مشرف على ضفاف النهر وعلى معظم كروم تلك الناحية

الفصل السادس والخمسون

وادي ليتة

وصل الشيخ الى المستودع وصعد على السلم الى بابهِ وهو يلهث من التعب فاذا الباب مقفل وليس عندهُ احد فدقهُ دقات كثيرة فلم يسمع جوابًا · فتأمل في الباب وكيفية اقفالهِ فرأى انهُ موصد من الخارج على جاري عادتهِ فترجح عندهُ ان مارية خرجت منهُ واقفلتهُ · فوقف في اعلى السلم ليستريح والتفت الى ما حولهُ فاطلَّ على مدينة شريش الى ضفاف النهر من جهة وعلى كرومها من جهة اخرى والظلام يغشي بصرهُ · على انهُ رأى انوارًا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة · ولم يكن يعهد في تلك الجهات اناسًا غير الفلاحين وعملة الحقول وهم لا يقدون نارًا على هذه الصورة · فانشغل خاطرهُ ونسي ضياع ابنتهِ ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ويرى اظلالها في مجرى النهر تتلألأ كانها مصابيح موقدة تحت الماء واشعتها تهتز باهتزاز امواجه · ولولا تلك الاظلال لم يعرف ان تلك النيران على ضفاف النهر

وعاد الشيخ بغتة الى وجدانهِ فتذكر ابنتهُ وضياعها فخطر لهُ ان تكون قد عادت الى البيت او لعل اخاها عثر عليها في رجوعهِ · ثم ما لبث ان سمع حركة ركض وخربشة أُناس يمرون بين الدوالي فانصت فسمع صوت امرأتهِ ومعها بعض اولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان اول صوت سمعهُ منهم صوت امرأتهِ

وهي تقول « اين مار ية »فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد انشغال باله وقال « اين بطرس . . هل عاد اليكم »

وكانت العجوز قد وصلت الى أسفل السلم فاجابت وهي تمد يدها الى أخمص قدمها تستخرج شوكة أصابتها في أثناء جريها « عاد بطرس ولم يجدها »

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامرأته ومعها بضعة من أولاده فقال لهم « يظهر لي ان مار ية فقدت في أثناء رجوعها من هنا فلنتفرق و يسير كل منا في طريق حتى نلتقي في البيت فمن وجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث . ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة « يا مار بطرس » أما أنا فاذا أبطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابي » فارادت امرأته ان تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر وهو يثب بين الكروم من تل الى تل يعثر تارة بالعليق وطوراً بالحجارة وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطىء الجهة لاشتداد الظلام وكان اذا تواری النهر عن عينيه وراء بعض الدوالي العالية او وراء التلال خاف ان ينحرف عن الجهة فتبعد المسافة عليه . على ان النهر فلما كان يغيب عن بصره . فلما قرب من النهر رأى النور على ضفتيه ثم سمع جعجعة عرف انها أصوات الجمال وكان قد سمع مثلها في أثناء أسفاره ولا يعهد لها مثيلاً في اسبانيا . فلما سمع الجعجعة تنسم رائحة العرب وادرك انه على مقربة منهم وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الاندلس فتحقق انه بجانب معسكرهم ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان

وبعد هنيهة وصل الى اكمة وقف عندها وتفرس في ما بين يديه فاذا هو مطلٌّ على سهلٍ كبير ينتهي الى النهر وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران . ورأى على الضفة القريبة في طرف السهل ناراً و بالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام . فلبث برهة يفكر في مار ية وضياعها حتى همَّ بالرجوع للبحث عنها في مكان آخر . ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف بأساً لما علمه في أثناء اسفاره في افريقية والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التي يفتحونها وكان قد تعلم بعض الالفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته . وكانت السنون قد علمته الشجاعة ور باطة الجأش . فنزل من الاكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يتعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الاخرى فتبادر الى ذهنه حالاً ان القوم وصلوا الى النهر في ذلك المساء واخذوا في عبوره فاظلمت الدنيا قبل اتمام

العبور فاجلوا العمل الى الغد

سار الشيخ حتى دنا من الخيمة فطرق أذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابًا — سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء. فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لا يهاب أحدًا ولا يعي شيئًا من فرط ما هاج من عواطفه خوفًا على ابنته. فاقترب من النار واذا هو بباب الخيمة وقد اعترضه رجل واقف هناك وقد تقلد سيفًا ورمحًا وهمّ بالقبض عليه وهو يقول بالعربية « من انت » ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة . فاستمهله الرجل ريثما دخل ثم عاد واشار اليه فدخل الشيخ ولحيته ترتعش في وجهه وكان على شيخوخته وبياض شعره تتجلى الصحة والنشاط في عينيه شأن أمثاله من أهل القرى والفلاحين

الفصل السابع والخمسون

بدر ويوليان

وحالما دخل الشيخ أجال ببصره في اطراف الخيمة للبحث عن ابنته فاذا هي جالسة في بعض جوانبها على الارض وحالما وقع بصرها على ابيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهي تصيح « ابي ابي » فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناه من البغتة والفرح . ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف انه من البربر وبجانبه رجل بلباس القوط لم يحدق به الاّ قليلاً حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة فلم يستغرب ذلك لانه كان قد سمع باتفاقه مع المسلمين على القوط وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة فلما رآه تحقق الامر وايقن ان العرب غالبون لا محالة

مرّت كل هذه الخيالات في ذهن الشيخ في لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاسبان « ألعل هذه الفتاة ابنتك »

قال « نعم يا مولاي »

قال « لا خوف عليها فانها في امان على كل حال . ولا تظن مجيئك غير شيئًا من عزمنا في شأنها . فقد كان الامير عازمًا على ارجاعها اليك آمنة سالمة واما بكاؤها الذي

تراه فانما هو من خوفها . وقد ظننت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبهُ حاكمكم رودريك . فان بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانهُ من يديهِ ان شاء الله » قال ذلك وانقبضت سحنتهُ للحال فلم يدرك احد سبب ذلك الانقباض . على انهُ استطرد الكلام قائلاً « واما سبب مجيئها الينا فان بعض رجال الامير خرج في اصيل هذا اليوم لحاجة فرآها في الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا فلما علم الامير بذلك انكر عليهِ وقد كانا في جدال عنيف بهذا الشأن الى ساعة دخولك »

ولم يتم بوليان كلامهُ حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى رأسهِ عمامة صغيرة ولكن سحنتهُ غير سحنة العرب ولا البرابرة وهو في مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيهِ وجبينهِ ونظر الى بوليان وهو يقول « اراك احرمتني من غنيمتي رغبة في مرضاة ابناء جلدتك .. »

فأجابهُ طارق وهو يبتسم وقال « لا تعجل يا بدر فانك ستصيب كثيرًا من الغنائم فاننا في اول الطريق وغدًا نلتقي بجند طليطلة فما تصيبهُ من الغنيمة او السبايا فهو لك . اما الآن فما نحن في حرب ولا يمكننا ان نعدّ هذه الفتاة سبية . وهذا ابوها شيخ قد طعن في السن وقد رأيت ما كان من لهفتهِ عليها فهل يليق بنا ان ننغص عيشهما بلا حق — والاسلام انما يدعو الى الرفق والعدل أما السبايا التي تؤخذ بالحرب فهي حلال لاصحابها . ومن كان في مثل بسالتك وجهادك يصيب أحسن الغنائم واجمل السبايا .. »

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال لهُ « انصرف ايها الشيخ الى منزلك وانت في أمان حتى تبلغ اليهِ . واعلم انا لم نقدم هذه البلاد الاَّ رحمة باهلها وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان فكن على يقين انت وكل اهل الاندلس ان من يكف يدهُ عن حربنا فهو في ذمتنا ولا خوف عليهِ . واما الذين يجسرون على مناوأتنا فما دواؤهم الاَّ السيف ... » ثم نادى « يا غلام » فدخل رجل بربري من اعوان طارق فقال لهُ « اصحب الشيخ وابنتهُ حتى يصلا الى مأمنهما ... »

فهم الشيخ بتقبيل يد طارق فمنعهُ وطيب خاطره وصرفهُ . فخرج وهو يثني على ما لاقاهُ من طارق وقال في نفسهِ « بمثل ذلك يملك الامير الرعية ولا يملكهم بالعنف او الظلم .. »

اما بدر فانهُ سكت احترامًا لطارق وفي نفسهِ حزازة على بوليان لاعتقاده انهُ هو الذي منعهُ من غنيمتهِ ولكنهُ كظم ما في نفسهِ وخرج من الخيمة اخفاء لعواطفهِ

الفصل الثامن والخمسون

فلورندا

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين اجيلا وشانتيلا هائمين على وجوههم في ضواحي طليطلة . وكان السبب في ذلك كما علمت من سياق الرواية ان اجيلا وشانتيلا كانا في انتظار فلورندا عند اسفل القصر في تلك الليلة الشاتية المرعدة . فلما تيسر لها الافلات من بين يدي رودريك بعد ان اغتنه اوباس كما تقدم اسرعت الى النافذة وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وايقونة صغيرة للسيدة العذراء كانت كثيرة الاعتقاد بكرامتها فخبأتها بين اثوابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز تساعدها في الذهاب . فلما أتمتا الاستعداد بقدر الامكان اطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على اهبة العمل فتسلقا الشجرة وتساعدا على انزال فلورندا سالمة ثم العجوز وما بقي من الامتعة الضرورية ونزلوا جميعاً من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف وهم في شاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب وكانت فلورندا تتوقع ان ترى الفونس فيه لانه هو الذي كتب اليها ان توافيه اليه . فلما رأت القارب خالياً انشغل بالها واستحيت ان تسأل عنه فخاطبت خالتها بالامر فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت « واين الامير الفونس ..؟ »

فقال شانتيلا « لم يأت معنا يا سيدتي .. »

قالت « واين هو ..؟ »

فخاف شانتيلا ان يكون في قوله ما يسيء فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل . لان الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التي انتدبهما لها اوباس وان كان هو يحسبهما آلة صماء يستخدمها في نيل غرضه ولم يكن الفونس يتوهم ان احداً مطلع على ما بينه وبين فلورندا — ذلك شأن المحبين حيثما كانوا — يحب الشاب فتاة وهي تحبه ويطول بينهما زمن التردد وهما يحسبان الناس في غفلة عنهما وقد يكون بعض الناس مطلعين على كل جملة وكل كلمة ما يدور بينهما واعلم الناس بذلك خدم المنازل فهم يوهمونك انهم يشتغلون في اعداد الطعام او ترتيب ادوات المائدة وآذانهم تسترق ما يدور بينك وبين ضيوفك

او جلسائك من الاحاديث السرية وغيرها ويتفاخرون بتناقلها والمبالغة فيها على ما تقتضيه عواطفهم نحو صاحب ذاك الحديث . فان كانوا يحبونه جعلوا سيئاته حسنات — وافضل ما يحبهم فيه الكرم . والاَّ فانهم يجعلون الحسنة سيئة — أما اجيلا وشانيلا فلم يكونا من طبقات الخدم وإنما كانا من الاسرى كما تقدم وقد اطلعا على ما بين الهونس وفلورندا من الحب المتبادل وعلما مما كانا يسمعانه من احاديث الخدم ان رودريك ايضًا يحبها . فلما طلب اليهما اوباس ان ينقذها بهذه المهمة ادركا السرّ واقدما على العمل وهما شديدا الغيرة على مصلحة الهونس لانهما يكرهان رودريك واهل بلاطه وكانا قد رأيا الهونس خارجًا مع الفرسان بطلب الملك فادركا انه سائر بمهمة

فلما رأى شانيلا ما كان من اضطراب فلورندا وسؤالها عن الهونس وهو ليس معهم خاف ان يكون في الجواب ما يزعجها والوقت لا يساعد للتمهيد فاشتغل بالتجذيف مع اخيه لتحويل القارب الى جهة مجرى النهر وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها « نظنه في منزل المتروبوليت لانه هو امرنا ان نذهب بك الى هناك »

فسكن روعها ولكنها ما زالت مشغلة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يكل الفونس انقادها الى سواه مع ما يظهره لها من الاستهلاك في حبها فاحست في داخلها بعتب يمازجه شك وصارت تستبطئ ساعة تلتقي بحبيبها وتعاتبه او تشكو اليه نفسها — والعتاب احتكاك بين القلوب يزيدها حرارة وتجاذبًا

سار بهم القارب وهم يطلبون ضيعة قريبة من بيت اوباس لانهم كانوا على موعد من الذهاب اليه ومعهم فلورندا

فطال بهم المسير في النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلاً عن شدة الظلام وكانت فلورندا كلما خافت خطرًا استجارت بالله واستخرجت الايقونة وقبلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها — تلك من ثمار الايمان وليس افضل منه وسيلة لتعزية الانسان — مضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر فلما نزلوا تشاوروا في ماذا يجب ان يعملوه فقال اجيلا وكان اسرع خاطرًا واكثر اقدامًا من اخيه « اري ان تمكثوا هنا واذهب انا الى بيت المتروبوليت ثم اعود بمن يحمل هذه الاحمال » فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى اشرف على المنزل فرأى حوله فرسانًا من جند الملك فاجفل وتراجع وقد اشتغل باله في سبب وجود ذلك الجند هناك . ثم ما لبث ان رأى بعضهم يخاطب

اوباس فتربص في بعض المخبئات ليسمع ما يدور بينهما فنهم من خلال الحديث ان الملك بعث بالقبض عليه . فلم يخامره خوف على اوباس لفرط اعتقاده باقتداره — والناس شديدو الاعتقاد باقتدار قسسهم ومعلميهم وآبائهم . فكل تلميذ يعتقد ان استاذه امهر الاساتذة وان قسيسه اقدس الكهنة وان اباه اقدر الآباء حتى يكاد يكون قادرًا على كل شيء . ولو لم يكن في هؤلاء من المواهب ما يدعو الى ذلك الاعتقاد . فكيف باوباس وهو على ما وصفناه من الهيبة والجلال والتعقل . فلم يخامر ذهن اجيلا خوف عليه قط ولكنه اوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان سبب ذلك القبض متصل بفرارها فلما توارى الركب عنه تحوّل نحو القصر على امل ان يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقًا ويحسب الدخول سهلاً بعد ذهاب الحرس فاذا هو بكوكبة اخرى قد احدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج الذين فيه حتى علت الضوضاء وبالغوا في التخريب والتعذيب

فلما رأى اجيلا ذلك ايقن بالخطر الذي اصبح هو معرضًا له هناك وبما يهدد فلورندا من الاخطار الجسيمة اذا اطلع الملك على مقرها . فهرول اجيلا مسرعًا ولم يعد له شاغل سوى فلورندا وخصوصًا لما تصور منزلتها عند الفونس واوباس وكيف جعلتها الاحوال اسيرة حميته فعول على بذل كل ما في وسعه ووسع اخيه في سبيل انقاذها وحمايتها الى آخر نسمة من الحياة

الفصل التاسع والخمسون

الكتاب

وكانت فلورندا جالسة على الارض وفي حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بعباءتها التفافًا شديدًا الشدة البرد والريح . وكان التعب قد اخذ منها مأخذًا عظيمًا ناهيك بما مرّ بها تلك الليلة من الانفعالات النفيسة وما قاسته من الاهوال وما خافته من الفضيحة — كل ذلك غلب على قواها حتى مالت الى النعاس وخصوصًا بعد ان ظنت نفسها نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير فاسندت رأسها على كفها واغمضت جفنيها فنامت . ولما رأتها

بربارة : ثمة اجازت لنفسها الارتياح هنيهة . اما شانتيلا فانهُ ظل ساهرًا قلقًا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابهِ الف حساب وربما لامهُ لابطائهِ ومغادرتهِ اياهم عرضة للهواء والبرد وتوهم انهُ لو ذهب هو في تلك المهمة لكان اقدر منهُ على اتمامها وملاحظة ما قد ينجم عن الابطاء من الاضرار — على انهُ مالبث ان رآه عائدًا وحده فذعر لانفراده فاذا هو يقول « هلم بنا سريعًا حتى نخرج من هذه الضواحي الليلة لاني لا احسب الملك الاّ وهو يبث علينا العيون والارصاد من صباح الغد »

فافاقت فلورندا من رقادها مذعورة وصاحت « ويلاه والى اين نذهب ... نجني يا مخلصي .. ابن الفونس »

فقال « ليس في المنزل احدٌ ياسيدتي .. »

قالت « ولا اوباس ... ؟ هل رأيت الفونس هناك . »

قال « ان الفونس لم يكن هناك يا مولاتي .. »

فذعرت وقالت « اين هو اذًا ... يا الهي .. اين الفونس ؟ .. وكيف عرفت انهُ ليس هناك .. ؟ »

قال « لاني رأيت اوباس وهو مسوق بين يدي الجند الملوكي الى قصر الملك . ثم رأيت الجند دخلوا بيتهُ واخرجوا كل من كان فيهِ من الخدم ولم اسمع ذكرًا لسيدي الفونس بينهم فلعلهُ لا يزال في منزله ... »

فقطع شانتيلا كلام اخيهِ وقال « ان سيدي الفونس لم يرجع الى قصره قبل خروجنا منهُ »

قالت « واين كان قبل خروجكم .. »

قال « كان قد ذهب بمهمة بامر خصوصي من الملك . » فتذكرت للحال ما سمعتهُ من رودريك في تلك الليلة عن ابعاد الفونس وكانت تحسبهُ يقول ذلك على سبيل التهديد فايقنت عند ذلك صدق قولهِ ولكنها لا تدري هل ابعدهُ او حبسهُ فاعادت السؤال قائلة « هل انت واثق بذهابهِ وهل تعلم الى اين . ؟ »

قال « اني واثق بخروجه من قصره وحولهُ الخفر الملوكي واما الى اين ذهب فلا اعلم ولكن الغالب انهُ سار في مهمة الى بعض البلاد .. »

فعاد اجيلا وقطع كلام اخيهِ فقال « اظنهُ ارسل في قيادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة او محاربة بعض الكونتية مما يحدث كثيرًا في هذه الايام . ولا بأس عليهِ

باذن الله ومتى استقر بنا المقام وأمنا العيون والارصاد بحثنا عن مكانهِ وبذلنا كل ما باول الى راحتك وراحتهِ فاننا صنيعتهُ وارواحنا له ٠٠ والان لا بد لنا من مغادرة هذه الجهات حالاً ٠٠ والفرار من الظلم فضيلة ٠٠ ولنترك البحث في مصيرنا الى وقت آخر — دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة واهلها وحراسها في شاغل عنا بالامطار والزوابع . فاذا صرنا في مأمن نبحث في الذي نفعلهُ ٠٠» قال ذلك وتقدم الى فلورندا يريد مساعدتها في النهوض فنهضت وتحولت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها وتبعتها خالتها وهي تحمل صرة الثياب وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حملهِ ونزلا في القارب واخذا في التجذيف . وكان النوء قد خفَّ وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحي المدينة واصبحوا في مكان لا يرون فيه انسياً ولا يسمعون صوتاً غير نقيق الضفادع وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب الى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا «نحن الآن في مأمن يا سيدتي فاذا شئت الرقاد الى الصباح لا بأس عليك وكذلك الخالة واما نحن فاننا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث في الجهة التي نسير بها ٠٠»

نامت فلورندا بقية ذلك الليل نوماً مضطرباً وتراكمت عليها الهموم فتذكرت حبيبها ومصيرهُ وكيف كان رودربك سبباً في تشتيت شملهما . وتذكرت والدها ومقدار تعلقهِ بها منذ حداثتها وماذا عسى ان يكون من غضبهِ اذا بلغهُ خبرها وكم يكون فشلهُ وخيبة امله مع صبره على رودربك واغضائهِ عن تعديهِ على الملك . فحدثتها نفسها ان تشكو امرها اليهِ وتستحثهُ على الانتقام لها . فلما أصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم نصهُ واستدعت اجيلا فوقف بين يديها فدفعت الكتاب اليهِ والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتب الكتاب وقالت «لقد رأيت من شهامتك وشهامة اخيك هذا ما يوجب سروري وامتناني كثيرًا وقد وعدتني بالبحث عن الفونس واطلب اليك فوق ذلك ان توصل هذا الكتاب الى ابي . هل تعرف من هو ٠٠؟»

قال «نعم ياسيدتي انهُ الكونت يوليان صاحب سبتة»

قالت «هو بعينهِ هل تسير اليه بهذا الكتاب ٠٠»

فاشار بيديهِ وراسهِ وعينيهِ انهُ يفعل ذلك من كل قلبهِ ثم قال «ولكنني أرى يامولاتي

قبل كل شيء ان نساعد لانزالك في مكان امين اعرف الطريق اليه اذا انا عدت بالجواب اليك ٠٠ »

فالتفتت فلورندا الى خالتها وقالت « ما رأيك يا خالة ؟ ٠٠ اين تظنين مقامنا اقرب الى الامن والسلامة ٠٠ »

وكانت العجوز مطرقة فبالغت في الاطراق ولم تجب ٠ فاعادت السؤال عليها فرفعت رأسها وفي وجهها ملامح البشر وقالت « اظنني عثرت على طريقة لا ترون خيرًا لنا منها في هذه الاحوال ٠٠ »

قالت فلورندا « وما هي ٠٠ »

قالت « لا يخفى عليكم ان في هذه البلاد ديورًا ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدًا لله تعالى وتكون هذه الديور غالبًا في البراري او في الجبال ومنها ما لا يدخله الناس الا نادرًا فالرهبان منقطعون عن العالم برمته فاذا أقمنا في احد هذه الديور كان ذلك استر لحالنا وربما يتيسر امرنا ٠٠ »

الفصل الستون

دير الجبل

فتقدم أجيلا وكانه تذكر امرًا ذا بال وقال « لقد اذكرني كلام حضرتها ديورًا للنساء العذارى فالاقامة فيها اولى لمولاتي لانها تكون بين عذارى مثلها ٠٠ »

فقطعت العجوز كلامه وقالت « صدقت يا اجيلا ولم اكن جاهلة وجود هذه الديور ولكنني لم اتم كلامي بعد أما ديور العذارى فهي موافقة لي ولفلورندا ولكننا لا نستغني عن احدكما معنا فاين يقيم واقامته معهن محظورة ٠٠٠ » قالت ذلك وصمتت لحظة وفي ملامح وجهها انها تهم باتمام الكلام ثم قالت « في اسبانيا نوعٌ من الديور جامع الرهبان والراهبات معًا في دير واحد بدون اختلاط ٠ وذلك ان بعض الارامل من النساء يرغبن بعد موت ازواجهن في الانقطاع عن العالم والتعبد فيقمن في ديور خاصة بهن وقد يكون معهن بعض العذارى ٠ ولكن بعضهن يبالغن في التنسك والرغبة عن العالم حتى يقمن في ديور لا يخرجن منها على الاطلاق ٠ ومثل هذه الديور كثير في هذه البلاد

ولا أظنكم تجهلون وجودها . ولكنني أعرف ديراً بين هذه الجبال (جبال طليطلة) منفرداً بعضه للرهبان والبعض الآخر للراهبات وكل طائفة منها في قسم من الدير لا علاقة لها مع الطائفة الاخرى ولا مع سائر العالم الا نادراً . ولا يلتقي الراهبات والرهبان معاً الاّ في الكنيسة في أوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لا يمكنها مخاطبة احد من الناس حتى رئيس الدير أو وكلاؤه الاّ بحضور راهبتين أخريين[1] وهذا التدقيق نافع في منع المخطورات — فاري اذا استحسنت فلورندا ان نذهب الى ذلك الدير فنقيم انا وهي في قسم الراهبات وانت واخوك تقيمان في قسم الرجال — نقيم هناك أضيافاً لنرى ما يكون . . »

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت « بورك فيك ياخالة لقد نطقت بالصواب هلم بنا الى ذلك الدير . . . هل هو بعيد من هنا . »

قالت « لا أظنه يبعد الاّ يوماً وبعض اليوم وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عيناً ولا رصداً »

قالت « هل تعرفين الطريق بنفسك »

قالت « اظنني اعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة اعوام سيروا بنا على خيرة الله . »

فقالت فلورندا « أرى يا خالة قبل كل شيء ان ابعث اجيلا بالكتاب الى ابي فاذا عاد منه بخبر جاءنا الى ذلك الدير »

قالت « لك الامر فافعلي ما تشائين »

فالتفتت فلورندا الى اجيلا وقالت « سر بحراسة المولى ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذي سمعت خبره واذا استطعت معرفة خبر الامير الفونس فانك اعقل من ان اوصيك بالذي ينبغي ان تفعله »

فانشرح صدر اجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق اما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله واوغلوا بين التلال والجبال نحو الجبل ودليلهم العجوز وهي تسير امامهم كانها تلتمس منزلاً تذهب اليه كل يوم

قطعوا عدة ساعات لم يلتقوا في اثنائها بعابر ولا قاعد واكثر التلال التي قطعوها

(۱) روبي ج ۲

جرداء الا ما كان على جوانب الاودية من شجر ملتف مهمل فلما اثرت فيه يد الانسان وكانت الامطار قد اغرقتها في الليل الماضي وارسلت السيول فيها . فلما صحا الجو في ذلك الصباح واشرقت الشمس حدث بعض الدفء . على ان وعورة الطريق انعبتهم وخصوصاً فلورندا وهي لم تتعوّد هذه المشاق ناهيك بما في قلبها من لواعج الحب وما يتابها من الهواجس والاشواق

فضوا معظم النهار في المسير وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم في كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ومشوا معظم اليوم التالي ولا حديث لهم الا تكرار ما فات حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل وصلوا الى سنح جبل اطلوا منه على بناء شامخ اشبه بالحصون منه بالاديار وظهر لهم لاول وهلة انه على قمة ذلك الجبل فلما شاهدته العجوز صاحت « هذا هو ... قد وصلنا ولكن لابد لنا من الصعود .. »

قالت فلورندا « فلنصعد .. » ولملمت اثوابها مشمرة وهرولت اليه — فعلت ذلك لشدة رغبتها في الوصول والاستراحة وارسال شانتيلا لاستطلاع الاخبار من طليطلة عن مصير الفونس وعن حال اوباس ورأي رودريك في فرارها ونحو ذلك . وهرولت العجوز وشانتيلا بين يديها حتى وصلوا الى الدير فاذا هو في ساحة في سفح ذلك الجبل . وهو بناء قديم العهد غريب الشكل حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة وربما زادت مساحة ذلك الدير على ثلاث قصبات او اربع وشكله مربع مستطيل طوله نحو خمسمئة قدم والسور عظيم الارتفاع ليس فيه من المنافذ سوى شقوق مستطيلة في اعلاه وباب واحد في بعض جوانبه والباب صغير جدًّا بالنظر الى هول ذلك السور يراه الناظر كالنقطة في الصفحة . وفي اعلى السور فوق ذلك الباب برج حصين كانه قلعة وهو مرقب يقيم فيه حارس الباب[1]

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير فلما استراحوا قال شانتيلا هل تأذن مولاتي بان اقرع الباب واستأذن في النزول »
قالت « افعل »

فتقدم شانتيلا حتى وقف بالباب فاذا هو مصفح بالحديد تصفيحًا متينًا وقد استدل على ثخانة ذلك الحديد من ضخامة قمم المسامير التي كانت بارزة فوق سطح الباب

(١) الانسكلوبيديا البريطانية

ولا يزيد علو الباب على قامة الانسان الا قليلا فتفرس في جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئاً ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب في اعلى الباب نحو الخارج فامسكهُ وشدهُ فسمع جرساً يدقُ في الداخل فعلم انهُ قد اصاب المحج وصبر بعد الدق هنيهة فرأى رأساً اطل من نافذة صغيرة في البرج المذكور وقد جللهُ شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجههِ الا انف بارز وعينان تتلألآن في غورين فوقهما حاجبان بارزان وفوق الحاجبين جبين اصبحت غضونهُ كالميازيب او الاخاديد. اطل الشيخ رأسهُ ولبث برهة لا يتكلم فلم يصبر شانتيلا على سكوتهِ لعلمهِ بما الم بفلورندا من التعب فصاح فيهِ «أما من مأوى عندكم للغرباء ولو الى حين»

وما اتمَّ شانتيلا كلامهُ حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جواباً . ولم تمض برهة حتى سمعوا «خربشة» وراء الباب توسموا منها قرب الفرج — وطال زمن الخربشة ثم سمعوا صريراً فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحهُ فاذا هو لا يزال مقفلاً فلبثوا ينتظرون فعادت الخربشة ثم سمعوا الصرير ولم ينفتح شيء فملوا الانتظار وخافوا ان يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف وخصوصاً فلورندا فانها كانت واقفة وبصرها ثابت في ذلك الباب

واما العجوز فقد كانت جالسة على حجر وقد ذبلت عيناها على اثر التعب من مسير ذلك اليوم حتى كادت تنام واذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح متثاقلاً كأن فاتحهُ يجرُّ ثقلاً كبيراً . فظلت فلورندا في مكانها وتقدم شانتيلا نحو الباب فاستقبلهُ ذلك الشيخ وعليهِ لباس الرهبان في ابسط احوالهِ وهو رداء اشبه شيء بالعباءة يستر بدنهُ الى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد اصبح اخمصاها كالنعال لطول ما مرَّ بهما من مصادمة الاحجار والاحتكاك بجزوع الاشجار — خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز اعقف الطرف قبض على عقفتهِ بانامل كأنها عظام عارية وقد تصلبت مفاصلها ونتأت من قفا الكف حتى اصبح بسط تلك الكف مستحيلاً وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليهِ حتى تصلبت وهي منقبضة

وكانت تلك العباءة قصيرة الاكمام وقد ظهر كوع الراهب وتعظم جلده وخشن حتى تحسبهُ اذا نظرت اليهِ كأنهُ اخمص القدم — وكأن الشيخ قضى عمره وهو يدبدب على اخمصيه وكوعيهِ

الفصل الثاني والستون

الرئيس

اطل الشيخ عليهما وظل واقفاً بالباب فاسرع الجميع اليه واولهم شانتيلا فانهُ نزع قبعتهُ عن رأسهِ وهم بيد ذلك الشيخ فقبلها وفعلت ذلك فلورندا وخالتها

فقال الراهب الشيخ « ما الذي جاءكم الى هذا المكان » وفي غنة صوتهِ خشونة البرية

فقال شانتيلا « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير فهل من مانع . . »

قال « كلاَّ ولكن هذا الدير قسمان قسم للرهبان وقسم للراهبات فايهما تريدان . »

قال « كما تستحسنون »

قال « وعلى كل حال فان ذلك راجع الى رأي الرئيس العام »

ثم تحول نحو الداخل واشار اليهم ان يتبعوه . فدخلوا في اثره فاذا بالباب يستطرق الى دهليز قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثلهُ . واتهيا من الدهليز الى فناء واسع سقفهُ القبة الزرقاء . ولم يطأُوا الفناء حتى سمعوا الابواب تقفل ونظروا الى ما حولهم فرأَوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع وهم في باحة مرصفة بالحجارة الصلبة او لعلها من صخر الجبل نفسهِ واحست فلورندا كانها في سجن حصين

فمشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار فانتهى الى باب يلي الجدار الذي دخلوا منهُ ففتحهُ وادخلهم فيهِ فاذا هي غرفة تستطرق الى عدة غرف . فاشار الراهب الى الغرفة وقال « هذه دار الاضياف اقيموا فيها ريثما اقابل حضرة الرئيس واخبره بامركم فالذي يامر بهِ صائر » قال ذلك وتحول يريد الخروج فسمعوا جرساً يدق ورأَوا الراهب حالما سمع دق الجرس القى العكاز من يده ورسم اشارة الصليب ثم صالب يديهِ على صدره ووقف وقوف الاحترام ففعل الجميع مثل فعلهِ وهم لم يدركوا الغرض — على ان الراهب ما لبث ان التفت اليهم وهو يقول « لاسبيل لنا الى مخاطبة الرئيس الآن لان الصلاة قد آن وقتها وينزل الجميع الى الكنيسة وانا ذاهب ايضاً وبعد الصلاة نرى ما يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة ايام وكيف انقذها الله بها · فتقدمت الى الراهب وهي تخاطبه باسانها العذب وصوتها الرخيم « الا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدي · · »

قال « الصلاة لا تحجب عن مسيحي والكنيسة لا نقفل ابوابها على احد · · »

فمشى الراهب امامهم وهم يتبعونه في وسط تلك الباحة حتى انتهوا في صدرها الى باب كبير وقبل الوصول اليه اشتموا رائحة البخور فعلموا انه باب الكنيسة · فتادبوا ودخلوا منه في اثر الراهب فاطلوا على مذبح في صدره · وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين شطر للراهبات وشطر للرهبان · فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس وكان اكثرهم تخشعاً فلورندا — فكم قرعت صدرها وكم توسلت الى الله والى السيد المسيح ان ينجي خطيبها من المهالك و يعيده اليها سالمًا

فلما انقضت الصلاة ارفضّ الجمع فخرج الراهبات من باب والرهبان من باب آخر وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الاضياف · ولحظ وهم خارجون ان فلورندا استخرجت من جيبها نقدًا وضعته بين يدي الايقونة التي كانت تصلي امامها و رأى النقد اصفر لامعًا فاستدل من ذلك ان الاضياف من اهل الثروة و ربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير فرافقهم الى دار الاضياف وهرول راجعًا وهو يتوكاء على عصاه حتى اتى الى الرئيس وقص عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء الى ان قال « و يظهر من قيافتهم ولهجة لسانهم انهم من اهل طليطلة و يؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم فهل تأذن لهم بالمجيء اليك · »

قال الرئيس « بل ارى ان اذهب انا اليهم »

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط ايضاً لكنه ارقى حالاً من رداء الراهب البواب وهو عبارة عن عباءة اطول قليلاً من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلاً من خشب وعلى رأسه شبه قبعة سوداء · وكان الرئيس كهلاً بادنًا ربع القامة حسن الطلعة صحيح الجسم نير البصيرة وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان — ذلك ما رقاه الى درجة الرئاسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز · والارتقاء في رتب الكهنوت يغلب ان يكون عن اهلية وخصوصاً في الرهبنات اذ لاتاثير هناك لدالة القرابة اونفوذ العصبية والكل سواء في الاغتراب والاعتزال لا يتفاضلون بارث ولا بصنيعة ولكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره · فاذا ارتقى راهب الى

الرئاسة او نحوها مع صغر سنهِ كان ذلك دليلاً على امتيازه عن رفاقهِ في ما يؤهلهُ الى تلك الرتبة . ويغلب في هذه الاحوال ان يكون السابق محسوداً او مكروهاً . اما رئيس دير الجبل فقد كان في الضد من ذاك بالنظر لما فطر عليهِ من اللطف والدعة وكرم الخلق بدليل انهُ لما سئل عن مجيء اولئك الضيوف اليهِ تبرع ان يذهب هو اليهم بنفسهِ مجابرةً وتلطفاً

وكانت فلورندا مذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد في احدى غرف الضيافة وقد هاجت اشجانها وتنبه ذهنها للتفكر في الفونس فاستغرقت في الهواجس والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . وشانيلا ظل واقفاً بالباب ينتظر رجوع الراهب وكانت الشمس قد اشرفت على المغيب . ولمغيب الشمس في الجبال هيبة ورهبة وخصوصاً حيث يقلُّ الناس

الفصل الثالث والستون

حديث حديث

فلم تمض برهة حتى اقبل الرئيس وبيده رقٌّ كان يطالع فيهِ لما كلمهُ الراهب . فلما لحظهُ شانيلا تأدب في وقفتهِ وحالما وقع نظره عليهِ توسم فيهِ رجلاً يعرفهُ او انهُ يشبه رجلاً يعرفهُ . على انهُ لم يكن يستطيع اعمال الفكرة في تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الاضياف اشار شانيلا الى فلورندا انهُ أتى وتقدم هو حتى جثا بين يديهِ وتناول انامله فقبلها والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذاك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقبالهِ وجثت وقبلت يدهُ وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جاري العادة في من يتأدب من الرهبان . على انهُ مالبث ان جلست بين يديهِ حتى تذكر انهُ رآها قبل الآن فقال لها « العل هذه السيدة والدتك »

قالت « كلاً يامولاي بل هي خالتي . » قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الاسئلة وخافت ان يسأَ لها عن اسمها ونسبها ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لانها

تكره الكذب كرهاً شديداً . وودت لو يوجه الرئيس اسئلته الى شانتيلا لانهُ اقدر منها على التخلص من الصدق الصريح . على انها تذكرت ما للناس من الثقة في جماعة الكهنة فيسلمون اليهم اسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيماً . فهان عليها الامر او عوّلت ان تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رأت ما يدعو الى ذلك

مرت كل هذه الخواطر بذهنها في لحظة فلما سألها الرئيس السؤال الثاني كانت قد تهيأت للجواب فقال لها « ومن اين انتم قادمون »

فالتفتت فلورندا اليهِ وقالت « اذا اذن لي حضرة المحترم تجاسرت بعبارة ارجو ان لا تثقل عليهِ »

قال « كلاَّ . قولي . . »

قالت « اذا لم يكن لحضرتكم بدٌّ من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فاني استميح الاذن ان تجعل ذلك على سبيل الاعتراف لان في حكايتنا سرًّا لا يمكن ايداعه عند احد الاَّ في هذا السبيل . . »

فحنى الرئيس رأسهُ مطيعاً وقال « لا يهمني البحث عن احوالكم الاَّ على امل ان استطيع خدمتكم في شيء فانتم مخيرون في الكلام او السكوت وفي كل حال فانكم اضياف كرام »

فقالت فلورندا وقد اعجبت بلطف الرئيس « نشكرك في كل حال ولا نقبل مع ذلك الاَّ اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف . ومكاشفة امثالك بالاسرار فرج ورحمة . . فهل نقفل الباب . . »

وكان شانتيلا قد سمع شيئاً من كلام فلورندا فابعد عن الباب . فخفَّ الرئيس بنفسهِ الى الباب كأنهُ يهمُّ باقفالهِ ولكنهُ اشار الى العجوز ولسان حالهِ يقول « وهل تبقى هذه المرأة لسماع الاعتراف »

فادركت فلورندا قصدهُ وقالت « ان هذه الخالة مستودع اسراري فلا بأس من بقائها . . »

فأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد ففتحهُ وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضيءٌ بالزيت فوضعهُ على مسرجة في الحائط وانصرف . فأغلق الرئيس الباب وجلس واصاخ بسمعهِ لما تريد فلورندا ان تقصهُ عليهِ ولم تكد تبدأُ بالحديث حتى همهُ الوقوف

على تمامه على انها لم تصرح له بكل شيء وانما قالت له « نحن من طليطلة وقد خرجنا للتخلص من اناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد فرجًا في غير الفرار »

فقال الرئيس « ولماذا لم تلجأا الى جلالة الملك فانه الموكل بنصرة المظلومين . . »

فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وأدرك الرئيس تلبكها فتوسم شيئًا أحب ان يقف على حقيقته فقال « يظهر ان الملك أيضًا من جملة ما تخافونه . . »

فتصدت العجوز للجواب وقالت « نعم . . . ولماذا الكتمان . . بل كل خوفنا من الملك نفسه . . »

فبغتت فلورندا لهذا التصريح ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لا يباح به . ولحظ الرئيس لفتتها فحول وجهة أسئلته اليها فقال « ومن هو الرجل الذي جاء معكما . . ؟ »

قالت فلورندا « هو من اتباع بعض اهلنا . . . »

فابتسم الرئيس وقال « اليس هو من اتباع الامير الفونس . . »

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس بغتة تصاعد الدم الى وجهها حتى كادت تختنق وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كانها تتوقع مخرجًا من عندها فاذا بالعجوز تقول « بلى يا مولاي انه من خدم الامير الفونس بن غيطشة ملك الاسبان السابق . . وهل تعرفه ؟ »

فتحول وجه الرئيس من الابتسام الى الانقباض حالاً ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال « نعم أعرف غيطشة وأعرف أولاده وكل أهله . . . . ومن من كهنة اسبانيا لا يعرف اخاه المتروبوليت اوباس ومن لم يستفد من عظاته او قدوته او حكمته او درايته — ذلك الرجل الذي لا أظن الزمان يجود بمثله ولكن . . . . »

فلما سمعت فلورندا اطراءه اوباس اطمأنت بالها ان الرجل ميال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها ولكنها لحظت منه انه يحاذر ان يكاشفها بما في ضميره للسبب الذي تخافه هي في مكاشفته لولا الاعتراف فعولت على استطلاع حقيقة رأي الرجل وهي في مأمن على ما تتوله في ظل سر الاعتراف فقالت « الا تدري اين هو اوباس الآن . . »

قال « كلاَّ . واين هو . . »

قالت « انه سيق الى السجن منذ يومين »

قال « ومن سافة ٠٠ ومن يتجرأ ان يخاطبهُ بمثل ذلك ٠٠ »

قالت « سافة الملك رودريك — بعث الى بيتهِ بكوكبة من الفرسان اخرجوهُ من فراشهِ ٠٠ »

فوقف الرئيس مذعورًا وظهرت على وجههِ امارات الغضب وقال « ساقوهُ الى السجن ! أمثل اوباس يسجن ٠٠ قبح الله الجهل ٠٠٠ كيف تجراوا على مس يدهِ لغير التقبيل وكيف خاطبوهُ بغير الاحترام والتبجيل ٠٠ »

فتحققت فلورندا عند ذلك ان الرئيس من مريدي اوباس واهلهِ فتاقت نفسها الى استنجاده او مشورتهِ في امر الفونس ولكنها استحيت فاطرقت فتناولت خالتها الحديث عنها وقالت « والفونس ٠٠ هل تعرفهُ ٠٠ »

قال « كيف لا وقد عرفتهُ منــذ طفوليتهِ وكثيرًا ما كنا نلتقي بهِ في طليطلة ايام المواسم والاعياد على عهد المرحوم أبيه »

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت « اما وقد برح الخفاء فاخبرك ان الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة الفونس ٠ فاراد ملك طليطلة ان يحرمهُ منها بالقوة فقذفهُ في مهمة الى اقصى بلاد الاسبان ٠ فلما رأت عزمهُ وفهمت مرادهُ خرجت من قصره فرارًا ثم علمنا ان رودريك القى القبض على اوباس لانهُ ساعد على انقاذها من بين مخالبهِ ٠ هذه واقعة الحال كما هي وانت وشانك ٠٠ »

الفصل الرابع والستون

مهمة جديدة

فتفرس الرئيس في فلورانda وقال « اليست هذه بنت يوليان حاكم سبتة ٠٠ خطيبة الفونس اني اول الشاهدين على خطبتها وقد كان اهلها يتحدثون بخطبتها الى الفونس وهما طفلان ثم خطبها واوباس واسطة ذلك العقد فكيف يتجرأ رودريك على حلهِ ٠٠ »

فلما سمعت العجوز كلامهُ تذكرت انها كانت تراه يتردد الى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت « السبت الاب سرجيوس »

قال « انا سرجيوس وكنت كاهناً اتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ولم اجد سبيلاً الى نصرته اقمت في هذا الدير حتى توليت رئاسته . ولو اطاعني اوباس لاقمنا هنا معاً في امن وسلام . . »
ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها « كوني مطمأنة يا ابنتي ان سرك محفوظ في بئر عميقة واعلمي اني نصيركم ونصير اوباس في كل شيء . . . سامحه الله كم قلت له دع طليطلة وتعال الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور اهل المطامع وعندنا من المؤونة والاموال ما يكفينا طول العمر فابى الا البقاء هناك . واظنه بقي لرعاية ابناء اخيه وخصوصاً الفونس . . » ثم اطرق وهزّ رأسه وقال « فأوباس في السجن الآن . . ؟ »

قالت فلورندا « علمنا انهم ساقوه الى السجن ولا ندري سجنوه ام قتلوه وكان في عزمنا بعد نزولنا في هذا الدير ان نبعث هذا الشاب الى طليطلة يتجسس الاحوال و يعود الينا . »

فقطع الرئيس كلامها قائلاً « لا . . . لا يصلح هذا لذلك لانهم يعرفونه و يعرفون انه من اتباع الامير الفونس او المتر و بوليت او باس وربما قبضوا عليه وسجنوه اوقتلوه . دعوا ذلك اليّ فقد اصبح البحث في هذا الامر من واجباتي . . كونوا براحة فتأتيكم الاخبار صادقة » قال ذلك ونهض وهو يقول « وقد آن لكم ان تستريحوا من عناء السفر واعلموا ان الدير بمن فيه طوع اشارتكم لاننا جميعاً صنيعة الملك غيطشة ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به فهل تقيمون في شطر الدير الخاص بالراهبات و يبقى خادمكم شانتيلا في هذا القسم ام تفضلون البقاء معاً في هذه الدار ولا ندخل اليها احدًا سواكم »

فنهضت فلورندا وقد احست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله لانه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج فاثنت على الرئيس سرجيوس وقبلت يده واستشارت خالتها في الاقامة فقالت « أرى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتيلا معنا حتى نرى ما يكون . . »

فقال الرئيس « ذلك لكم . . » ثم خرج وكان الليل قد سدل نقابه واوقد الرهبان نيرانًا في بعض جوانب تلك الباحة للاستدفاء او الاستنارة وكان شانتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن احواله ولا يسمعون منه جوابًا مفيدًا . فلما خرج الرئيس من دار الاضياف سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعام و بعث الرئيس الى

قيم الدير وامره ان يعد للاضياف ما يحتاجون اليهِ من الطعام وسائر لوازم الراحة

صعد الرئيس الى غرفتهِ وهو في امرهام من قبيل اوباس لانهُ كان يحبهُ ويحترمهُ ويغار عليهِ مثل كل معارف اوباس لما علمت من تعقلهِ ورزانتهِ وإبائهِ . فاخذ يفكر في سبيل الى انقاذه . ثم تذكر انهُ ليس على يقين من حقيقة حالهِ فعوّل على ان يتولى البحث عن ذلك بنفسهِ . وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة في عيد الميلاد لحضور القداس الاعظم وتهنئة الملك لشواغل خصوصية اقتضت تخلفهُ — ولم تكن هي لتقتضي ذلك لو لم يكن هو ميالاً الى الابتعاد عن الملك وحاشيتهِ لما في نفسهِ من النقمة لغيطشة فقد كان حاضرًا في المجمع الذي دبر استبدالهُ رودريك ولم يكن استبدالهُ من رأيهِ ولكنهم غلبوهُ على رأيهِ بالاكثرية . ثم اصبح يخاف التظاهر بما يعتقده اتقاءً بنالهُ غضب الملك ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومهُ على طليطلة نادرًا فلما اقبل عيد الميلاد الاخير تعالل بما يمنعهُ عن القدوم . فلم يرَ شيئًا مما حدث لاوباس ولو كان هناك ربما شهد محاكمتهُ وسمع حجتهُ وإن كان حضوره لا ينفع اوباس شيئًا لانهُ لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الاكثرون

فخطر لسرجيوس ان يذهب الى طليطلة بنفسهِ فيعتذر للملك عن تخلفهِ في العيد ولكنهُ خاف ان يتهمهُ او يشك في سبب قدومهِ واول من ينبهُ شكوكهُ الاب مرتين فانهُ لا يغفل عن مثل ذلك . فرأى تاجيل الزيارة الى يوم رأس السنة فيذهب لمعايدة الملك عن العيدين ولا يكون ثمة ما يدعوه الى الشك في سبب ذلك القدوم — ولكنهُ لم يكن يصبر عن استطلاع حال اوباس طول هذه المدة فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير ان يشاهد اوباس او يسمع كلامهُ — فقضى سرجيوس معظم الليل في امثال هذه الهواجس

الفصل الخامس والستون

غرفة الرئيس

فلما اصبح بعث الى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة في راحة على اثر ما قاستهُ من تعب البدن واضطراب العواطف وخصوصًا بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس

ما آنسته من الشعور معها والعزم على مساعدتها — وافاقت في الصباح على صوت الجرس فنهضت واخذت تهتم بالذهاب الى الكنيسة وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام بجانب غرفتها تخالف ما تعلمه من وقع خطوات شانتيلا · ثم سمعت قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرأت راهبًا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال ان « حضرة الرئيس يدعوكما اليه · · »

فمضتا والراهب يسير امامها وفلورندا تقول في نفسها « لم تمض ايام شفائي بعد · · · أظن الرئيس غير عزمه عن مساعدتي »

ومشى بهما الراهب طول تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعد واعليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل ان يؤذن له بالدخول ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فاذا هما في غرفة بسيطة الفرش حسنة الترتيب في جدرانها اصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاقدار وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصوري رومية تمثل اهم حوادث الانجيل مثل ولادة المسيح في بيت لحم وعماده في نهر وصلبه وصعوده الى السماء · فلما اطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتأثرت لها تأثرًا عظيماً لما فطرت عليه من التقوى والورع وقد زادتها المصائب تمسكًا بحبل الدين — فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها للجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل ايقونة المسيح المصلوب كانت قريبة من موقفها ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلاً « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على اسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحًا · وعدتك يا فلورندا ان استطلع حال اورباس عنك وكنت عازمًا ان اتولى ذلك بنفسي ثم خطر لي ان ذهابي الى طليطلة اليوم بعد ان تخلفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك وربما آل الى عرقلة مساعينا فرأيت ان اؤجل ذهابي الى رأس السنة وهو قريب فما قولك · · ؟ »

فخفق قلب فلورندا وعدّت ذلك التاجيل فاتحة العراقيل وبدا أثر ذلك في وجهها ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستانف الكلام قائلاً « ولكنني مرسلٌ احد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي الى طليطلة · · »

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وارادت ان تبين له ما تودهُ الاطلاع عليه من امر الفونس فضلاً عن اورباس ثم هي تريد ان تعرف رأي رودريك

في فرارها وهل هو مشدد في البحث عنها ولكن الحياء منعها من الكلام في هذا الشأن صريحًا فقالت « اذا كان الراهب الذي ستنتدبهُ نبيهًا واتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيرًا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء . »

فقال الرئيس « فلنبحث في ما يطلب الاطلاع عليهِ . . . »

فقالت العجوز « لا اخفي عن مولاي الرئيس المحترم ان اهم النقط التي يطلب البحث عنها انما هي اوباس وحالهُ ثم يهمنا الاطلاع على رأي رودريك في فرارنا لاننا فررنا من قصرهِ رغم انفهِ . ثم نحب الاطلاع على المكان الذي بعث اليهِ الامير الفونس . . . »

قال « فهمت المطلوب وساوصي الرسول بهِ ونظنهُ يعود علينا بالخبر اليقين . . »

فنهضت فلورندا فقبلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز واستاذنتا بالذهاب رغبةً في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة . فاذن لهما فانصرفتا

اما هو فانهُ صفق فجاءه الراهب الذي يتولى خدمتهُ فامرهُ ان يستحضر لهُ راهبًا سماهُ فجاء ذلك الراهب وكان لهُ بهِ ثقة كبرى وكثيرًا ما كان يكاشفهُ عما في نفسهِ ضد رودريك فاوصاه بما يطلب الاطلاع عليهِ واستحثهُ ان يسرع في الرجوع

الفصل السادس والستون

حقيقة الحال

فسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها الخرج كانهُ منصرف الى المدينة على نية الاستبضاع ما يحتاج اليهِ اهل الدير من الادوات والامتعة . وكانت عادة ذلك الديران يرسل رسولاً لمثل هذا الشان مرتين او ثلاث مرات كل سنة . والغالب ان يكون ذلك في الصيف لانهم يفضلون الكنّ في الشتاء كما يفعل سائر اهل الجبال — على ان ذلك لا يمنع شخوصهم الى المدن في هذا الفصل

قضى رسول الدير في مهمتهِ خمسة ايام عاد في خامسها وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الايام اجيالاً . وكانت في اثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سطح الدير تشرف منهُ على الاودية والتلال لعلها تجد الرسول عائدًا . واتفق صفاء

الجو وامساك المطر كل تلك المدة فكانوا اذا جلسوا على السطح اطلوا على جبال اكثرها عار من النبات الاخضر وبعض رؤوسها وكهوفها مكسوة بالثلج وكانوا يشاهدون الضباب في كل صباح يغشى الاودية بحسبه الناظر بحرًا تتلاطم امواجه ويحسب ما يبرز في وسطه من قمم الجبال جزرًا ينفصل الماء بينها . فاذا حمي الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارًا وعادت تلك الجزر جبالاً . فكانت فلورندا تعلل نفسها في اثناء تسلط الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها

وكانت تستانس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لان غرفته او برجه يستطرق الى السطح فيخرج في بعض الاحيان فيجالسها ويقص عليها ما مرّ به من الغرائب في أثناء عمره الطويل وهي ترتاح الى سماع حديثه لانه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذي لا يلذ السامعين ولو كانوا شبانًا

ففي أصيل اليوم الخامس رأت وهي على السطح راكبًا اطل من بين اكمتين لم يقع بصرها عليه حتى علمت انه الراهب فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة « ها قد اتى فانهض الى الرئيس لنسمع حديثه »

قالت « هلم بنا اليه » وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالسًا ببابها يطالع في درج باللغة اللاتينية فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما فقرأ على محيا فلورندا امارات الدهشة والقلق فادرك انها تكتم شيئًا فقال لها « خيرًا يا بنية — ما الذي حدث »

قالت « ارى رسولك قادمًا فاستدعه لنسمع حديثه »

قال « وهل اتى .. ؟ اني أشد قلقًا منك في انتظاره ولا أقلب هذه الكتب الا تعللاً وتشاغلاً » ونهض لساعته واوصى خادمه ان يسرع في استقدام الرسول فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول في اثره وهو لا يزال في قيافة السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس فقال له الرئيس « قص علينا ما رأيته على عجل وابدأ باوباس »

فقال الراهب « اما حضرة المترو بوليت فانه مسجون في حجرة على حدة .. »

قال « وما سبب سجنه .. »

قال « انهموه بالمواطأة على خلع الملك وحاكموه في مجمع الاساقفة ... »

فقطع الرئيس كلامه قائلاً « وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام ذلك المجمع .. »

قال « فعلوا ذلك التماسًا للسرعة فألف الملك مجمعًا من الاساقفة الذين كانوا في

طليطلة يوم العيد ..»

قال « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ..»

قال « لا أدري ولكنني سمعت ان المترو بوليت ابدى من البسالة والحمية في أثناء المحاكمة ما أفحم بو اخصامهُ ..»

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع قول الراهب وتود الوصول الى خبر الفونس

فقال الرئيس « وهل تظن تلك التهمة في محلها ..»

قال « هل أقول كل ما سمعتهُ ..»

قال « نعم قل ..»

قال « بلغني من أهل القصر الملوكي ان لمحاكمة المترو بوليت او باس سبباً سرياً لم يطلع عليه الاَّ نفر قليلون ..»

فقال « وما ذلك ..؟ »

قال « بلغني ان الامير الفونس كان خاطباً لفتاة من أهل القصر الملوكي وان رودريك سابقهُ عليها وارادها لنفسهِ فوبخهُ اوباس على ذلك فغضب عليه واراد الانتقام منهُ »

قال الرئيس « وماذا تمَّ بالفونس وخطيبتهِ »

قال« اما الفونس فقد أرسله الملك في مهمة حربية الى بلد بعيد ليخلو لهُ الجو بعدهُ فكان ذلك سبباً لتداخل أوباس . اما الخطيبة فقد بلغني انها فرَّت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذي كانت فيهِ والحراس حولهُ .. واما الملك فقد اشتد غضبهُ على تلك الفتاة وعوَّل على الانتقام منها حالما يظفر بها »

فقالت العجوز « وكيف يظفر بها واين هي ...»

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الاحوال ان تلك الفتاة هي الخطيبة الفارَّة ولكنهُ تجاهل مجاراة لما أرادهُ الرئيس فقال « أكد لي العارفون ان الملك ربط عليها الطرق واقام الارصاد وبث العيون في كل انحاء المملكة ولا يكاد يمرُّ يوم لا يحملون الى قصرهِ فتاة او فتيات ممن يعثرون عليهن في أثناء التفتيش فاذا وقع بصرهُ عليهنَّ أطلق سراحهن اذ لا يرى تلك الفتاة بينهن ...»

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لاول وهلة ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها الى ذلك الرئيس المحب. وعولت على البقاء هناك حتى يعود أجيلا من عند والدها . ولكنها أحبت السؤال عن مقرّ الفونس فاومأت الى خالتها ان تسال

عنهُ فقالت « وهل عرفت المكان الذي ذهب اليه الامير الفونس ٠٠ »

قال« لم استطع الوقوف عليهِ صريحًا ولكنني سمعت ان الملك انفذهُ مع فرقة من الجند الى اسفية ٠٠ولم اتحقق ذلك تمامًا لاني لم ادقق البحث عنهُ ٠٠ »

فأومأ الرئيس الى فلورندا ان تكتفي بما تقدم ريثما يتوفق هو للذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك ٠ فسكتت ثم وقف الرئيس وصلى صلاة وجيزة فلما فرغ انصرفت فلورندا وهي غارقة في لجج التأمل لما سمعتهُ عن اوباس وسجنه وعن تشديد رودريك في البحث عنها فلم ترَ لها مندوحة عن البقاء مستترة في ذلك الدير لترى ما يأتي به القدر ٠ على انها عللت نفسها بالاطلاع على تفاصيل اخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة

ولكن الطبيعة ابت الاَّ معاكستها فتغير الطقس وتوالت الامطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر اياماً عديدة وهو قاعد على مثل الجمر فكيف بفلورندا والجمر يتقد في قلبها وفي رأسها ٠ وخصوصًا بعد ان مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى والدها فزاد اضطرابها وتضاعف قلقها وانقضت نفسها حتى تصورت الدنيا سدت في وجهها — فقد ضاع خطيبها وابعدت عن والدها وسجن نصيرها واصبحت طريدة شريدة ثم سيقت الى ذلك الدير فأقامت فيه قيام المجرمين في السجون ٠ وما كادت تفرح بنصرة ذلك الرئيس حتى حالت الطبيعة دون خروجه واقامت بينهُ و بين طليطلة سدودًا من الثلج ٠ على انها كانت اذا تراكمت عليها الهموم وغشت بصيرتها السوداء لجأت الى الصلاة فاذا صلت انفرجت كربتها وعادت اليها آمالها ٠ فاذا فرغت من الصلاة وكان الطقس صحوًا صعدت الى السطح مع خالتها تتطلع الى الطرق البعيدة لعلها ترى شبحًا قادمًا تتوسم من قدومه فرجًا ٠ ولكنها لم تكن ترى سوى جبال من الثلج متصلة الى بباب الدير ولولا اشتغال الرهبان بجرفهِ في كل صباح لغاب كلهُ فيه

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها و يعدها خيرًا و يريها ابواب الفرج ومرجع كلامه الى ثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب ٠ ولم تكن هي اقل منهُ اعجابًا فيه لانها شبت وهي لا تسمع اسم اوباس الاَّ مشفوعًا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انهُ قادر على كل شيء ٠ ولم تكن تصدق ان احدًا يستطيع اذيتهُ او التغلب على رأيه ٠ وكان سرجيوس يعمل فكرتهُ في طريقة لاخراج اوباس من

السجن فاذا خرج جاء الدير واقام فيه بسلام وسكينة . فلم يهتد الى سبيل امين لما بلغه من تشديد الملك في الاحتفاظ به والسهر على حراسته

الفصل السابع والستون

الثلوج والرسول

وافاقت فلورندا في صباح يوم من اواخر فبراير على هبوب العواصف وزخ المطر وكثير من الثلج او البرَد. واشتدت الانواء والرعود والبروق نحو ساعتين ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتةً — وتلك عادة هذا الشهر في البلاد المعتدلة فان الجو يتقلب في اليوم الواحد من ايامه تقلبات شتى بين صحو ومطر ونوء وصفاء. — فلما كفت الامطار اطلت فلورندا من باب الغرفة فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج الى باب غرفتها ومع ذلك فالشمس قد اشرقت على ذلك الثلج فتكسرت اشعتها عنه وانحل النور في بعض الاخاديد فبدا الطيف الشمسي بالوان القزح . ووقفت فلورندا وهي تتأمل ذلك المنظر الجميل ثم ما لبثت ان رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفي ايديهم المجارف والمعاول واخذوا في جرف الثلج وحمله الى الخارج فاعجب فلورندا ذلك المنظر واحست بانبساط نفس لم تشعر بمثله منذ اشهر — والانسان اذا امطرت السماء ثم صحت وصفا جوُّها يشعر بانبساط وخصوصًا اذا سبق المطر ضبابٌ متكاثف او غيوم متلبدة . ولكن البرد يشتد في ساعة الصفاء عما كان عليه في ساعة الكدر . ولذلك فان فلورندا لم تطل الوقوف في ذلك الباب فدخلت والتفت بقبائها المبطن بالفرو واحكمت الالتفاف به وعادت واذا بالراهب الشيخ صاحب الباب مقبلٌ وقد استبدل العكاز بمجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب وكان فوق ذلك لا يزال عاري الساقين والزندين واكتفى من وسائل التدفئة بلف حول صدغيه واذنيه بلفافة من صوف

فلما رأته فلورندا على تلك الحال اعجبت بتأثير العادة على الانسان ولبثت واقفة تنظر الى شيخنا الراهب وغيره من الرهبان يشتغلون وهم كثار وشانهيلا يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح ايضًا — فلما

فرغ الرهبان من العمل خرجت فلورندا وبربارة وقد اعجبهما صفاء الجو واشراق الغزالة وصعدتا الى السطح واطلتا على الجبال على سبيل الفرجة · ولم تقفا على السطح برهة حتى اثر الزمهرير في فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء · ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم واوشكت السماء ان تمطر فهمّت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب مطلاً من باب حجرتهِ على السطح وهو يشير اليها ان تأتي اليهِ فتحولت وتبعتها خالتها حتى اقبلتا على الحجرة واذا هناك نار موقدة في اناء شبه موقدة في بعض جوانب الحجرة · فلما دخلت احست بالدفء وشعرت بلذة غريبة · فقال لها الراهب اجلسي يا بنية وتدفئي فان البرد شديد جدًّا اليوم · فجلست وخالتها الى جانبها واتفق جلوسهما بجانب النافذة وقرفص الراهب امام النار ثم جلس واخذ يقص على ضيفيهِ احاديث شبابهِ وكهولتهِ على سبيل التسلية والخالة العجوز تشاركه في تحقيق بعض النقط وان كانت هي اصغر منهُ سنًّا

وكانت فلورندا في اثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحي الدير ولا يقع بصرها على غير الثلوج الاَّ قليلاً · والراهب والخالة مشتغلان في الاحاديث وهما يحسبان فلورندا مصغية لما يقولان حتى اقتضت الحالة استشهاد فلورندا فوجهت الكلام اليها وتوقعت الجواب فرأت فلورندا في شاغل عنها بالتفرس في شيء وراء النافذة وقد ظهر الاهتمام في وجهها · فالتفتت الخالة فاذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب فامعنت النظر فيهِ كأنها تعرفهُ فسمعت فلورندا تقول «اجيلا اجيلا ··» فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ولم يكن يعرفهُ فقال «ومن هو هذا يا بنية ··»

قالت «هو رسول ارسلناه في مهمة وقد عاد الينا فهل تسرع في فتح الباب لهُ حتى لا يضرَّ بهِ البرد»

فقال «سمعًا وطاعة ···» وتناول عكازه وتحوَّل نازلاً وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا الفراسة فاذا هو اجيلا بعينهِ على جوادٍ · ولما دنا من الدير وقف الجواد واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكًا شديدًا فلما رأتهُ فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك ان نادتهُ قائلة «اجيلا ··» فلم تسمع جوابًا وكأنها لا تخاطب احدًا فظنت هبوب الريح اضاع صوتها قبل وصولهِ اليهِ · ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير حتى اذا اقبل عليهِ شهر عكازهُ واخذ في ضربهِ ضربًا عنيفًا واجيلا لا يتحرك والراهب يزداد عنفًا بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين فخرج اثنان

منهم وفي يد كل منها عصا غليظة فامسك احدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت فاستغربت فلورندا ذلك وتولتها الدهشة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه . فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب تعديهم وهم لا يبالون بكلامها فغضبت وتحولت من تلك الحجرة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه وسارت الخالة في اثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها « اذهبي انت الى الرئيس وانا اخرج لمخاطبة اولئك الرهبان ... » ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جواباً فاسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه فرأت شانتيلا عاملاً مع الرهبان على ضرب اخيه ايضاً وقد أنزلوه عن الفرس وامسك احدهم برجليه والآخر بيديه واخذ الاثنان الآخران بالضرب على القدمين والكفين ضرباً موجعاً فازدادت فلورندا دهشة واستغراباً وصاحت « شانتيلا ... ما هذا العمل ؟ .. » وهو لا يرد عليها ولا يبالي بقولها

و بعد هنيهة رأتهم حملوا باجيلا فحملوه واسرعوا به الى الدير فوسعت فلورندا لهم فاذا هو بين ايديهم لا يبدي حراكاً فظنته مات من شدة الضرب فكادت تبكي لغيظها واسفها ولكن الاستغراب ظل غالباً عليها فلما دخلوا به سارت هي في اثرهم فصعدوا الى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهي لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ولكنها كانت تتلفت يميناً وشمالاً لعلها تجد الرئيس قادماً لتستنجده او تستفهمه واذا به مسرع على السطح من جهة اخرى والعجوز في اثره وهي تشير الى فلورندا ان تطمئن فاسرعت فلورندا الى الرئيس واستفهمته عن سبب ذلك فقال « لا تجزعي يا ابنتي فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته »

قالت « وكيف يحفظون حياته وقد اماتوه من الضرب .. »

فضحك الرئيس وقال « يظهر انك لم تسمعي (بالدنق) »

قالت « وما الدنق يامولاي »

قال « هو الموت من البرد الشديد . فالظاهر ان رسولك هذا اوشك ان يدنق من البرد فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت .. »

قالت « لم يكن يشكو من برد مطلقاً بل رأيته يضحك سروراً .. »

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال « والضحك في البرد من علامات الدنق .. » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول « اسقوه قليلاً من الخمر . وادنوه من النار »

فاسرع الراهب صاحب الباب الى ابريق في بعض اركان الحجرة صبّ منه في كاس ودنا من الرجل وتقدمت فلورندا نحوه ايضاً وتفرست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال مخل القوى فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على مداركته بالوسائل الفعالة

الفصل الثامن والستون

الخبر اليقين

فظلوا ساعة في معالجة احيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحا وعاد الى رشده فاستاذنت فلورندا في نقله معها الى دار الاضياف فاذن لها فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة فلما استقروا في الغرفة سألته عن سبب غيابه فاخبرها انه قاسى في أثناء رجوعه عذاباً أليماً من مقاومة الطبيعة وارصاد رودريك حتى اضطر ان يبيت في النهار ويسافر في الليل خوفاً من ان يقع كتاب بوليان في ايديهم وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سالته عن والدها فقص عليها ما كان من وصوله اليه وما اصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها الى ان قال « وقد عوّل على الانتقام من رودريك انتقاماً لم يسبق له مثيل في تاريخ الاسبان »

فابرقت اسرة فلورندا اعتزازاً بوالدها واحست بجبر قلبها بعد ان تصورت نفسها مهملة لا يسأل عنها أحد لكنها احبت الاطلاع على كيفية ذلك الانتقام فقالت « وكيف ذلك »

قال « لقد عوّل على اخراج هذه المملكة من يد رودريك .. »

قالت « يا حبذا السبيل الى ذاك ولكن ... »

قال « وهل تحسبين سيدي الكونت بوليان يقدم على هذا الآن وهو واثق من نفسه ... » ثم اخبرها ما كان من اتفاقه مع جند العرب على المسير معهم الى اسبانيا ليكون عوناً لهم على فتحها كلها

فلما سمعت فلورندا قوله اكبرته وظنت احيلا يقول ذلك ليطمئنها فقالت « وهل تقول الصدق »

فمد يده الى جيبهِ واستخرج انبوبًا مختومًا سلمهُ اليها ففضتهُ فرأَت فيهِ لفافة من القباطي (نسيج مصري قديم) ففتحتها فاذا هي كتاب من والدها اليها فحالما رأَت خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوهُ فدمعت عيناها ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الاَّ بعد ان سكن جاشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأتهُ واذا فيهِ : —

« من الكونت يوليان الى ابنتهِ الحبيبة فلورندا

باسم الآب والابن والروح القدس

« قرأت كتابك ايتها العزيزة فسبقتني الدموع الى تنهمو لماهاجهُ فيَّ من المصائب الكائنة . وقد ساءني ما اقترفهُ ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان . اما الاوليان فالله كفيل بقصاصهِ عنهما . واما ما اراده من مس عرضي فانا اتولى الانتقام لهُ بنفسي — وابشري اني حامل عليهِ وعلى بلاده بجند من العرب لا شك ان الله ناصرهم على ذلك الخائن لما نعلمهُ من غضب الاسبان والقوط عليهِ . وان العمل الذي اشرتِ اليهِ في كتابك بكفي وحده لغضب السماوات والارض على ذلك الدخيل في القوطية . ولا اطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك وانما كتبت هذه الاسطر تثبيتًا لاقوالهِ ولكي ابشرك بالفرج القريب . وسوف ترين رودريك الخائن قتيلاً مضرجًا او اسيرًا مكبلاً فامكثي حيث انتما منين حتى آتي اليك . واذا اعوزك الوصول اليَّ فانا مع كبير جند العرب حيثما يكون والسلام » (كتب في سبتة)

فلما وصلت الى آخرهِ لم تتمالك ان نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب الى غرفتهِ فسارت وحدها وهي لا تفقهُ ما تمرُّ بهِ لفرط تأثرها من ذلك الخبر البغتي وقلبها يرقص طربًا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام — والانتقام من اقوى ملذات الانسان

فلما اقبلت على الرئيس انكر ما بدو في محياها من آثار المغتة مع شيءٍ من الخفة فوقف لها فدخلت فحيتهُ وقالت « جئتك بأمر ذي بال وفيهِ القضاء المبرم على رودريك »

فاندهل لتلك المباغتة وقال « وما ذلك »

قالت « ان الشاب الذي وصل في هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول كنت بعثت بهِ الى والدي في سبتة وبعثت معهُ كتابًا مختصرًا شكوت فيهِ ما اصابني من رودريك فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » ومدت يدها واستخرجت الكتاب ودفعتهُ الى الرئيس

فتناولهُ سرجيوس وقرأه وهو لا يصدق انهُ في اليقظة واعاد قراءتهُ ثانية وثالثة

وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه فلما تنبهت جيدًا رفع بصره اليها وقال « ان والدك سيعمل عملاً يغيّر به وجه هذه الجزيرة — سيعمل عملاً يقضي به على هذه الدولة · وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين نعوذ بالله من غضب الله · ·» وصمت برهة ثم قال « وهل نقل الرسول اليك شيئًا من التفاصيل »

قالت « اخبرني بعض الشيء ولم استطع صبرًا عن نقل هذا الخبر اليك فاذا اذنت بعثنا الى اجيلا يقص علينا ما شاهده بعينيه · · »

قال « أحب سماع ذلك » ثم صفق فجاء خادمة فقال « اليَّ بالرجل الذي جاءنا في هذا الصباح وهو في دار الاضياف »

فمضى الرجل وعاد بأجيلا فانحنى أجيلا امام الرئيس وقبل يده ثم جلس متأدبًا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه فقص عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم وصبرهم في الحرب ومواظبتهم على الصلاة وطاعتهم لرؤسائهم الى ان قال « وزد على ذلك ان مولاي الكونت يوليان عون لهم في ارشادهم الى المسالك فضلاً عما سيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين بأثواب النصرانية وهؤلاء لا يدخرون وسعًا في نصرة اي داخل كان لانهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل · · »[1]

فلما سمع الرئيس ذلك هزّ رأسه وقال في نفسه « قد انقضت دولة هـذا الباغي وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها · · · · » ثم التفت الى فلورندا وقال « فصرت اذا ذهبت الآن الى اوباس أخبرته بهذا الخبر الجديد واطلعته على هـذا الكتاب ولا أظن أهل البلاط علموا به بعد · ثم نحتال في اخراجه من ذلك السجن ونأتي به الى هذا الدير يقيم فيه معنا · وطالما كان اوك مع العرب فنحن في مأمن منهم اذا هم غلبوا · واذا غُلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لاننا لم نتعرض لحربه · · »

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه · وبعد بضعة ايام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه في ركابه الى طليطلة



(١) دوزي ج ١

الفصل التاسع والستون

القائد كوميس

اما رودريك فقد جاءه كتاب صاحب بوتيكة ببنبئه بنزول العرب لاده فاطلع الاب مرتين عليهِ قبل عرضهِ على رجال دولتهِ فاوهمهُ الاب المذكور ان العرب انما يريدون الغزو لا الفتح فاذا أصابوا غنيمة عادوا على أعقابهم . وانهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط — وبالحقيقة ان العرب كثيرًا ما كانوا يسطون على ما يلي مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع في ايديهم من ماشية او نحوها . فارتاح رودريك لذلك الراي لقربهِ من المعقول ولم يطلع رجال حكومتهِ على الكتاب . ثم جاء طايطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم ورجالهم وقد ملكوا الجبل (جبل طارق) ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح واخبروا قائد الجند العام بذلك

وكان قائد جند رودريك رجلاً باسلاً دموي المزاج حادًّا اسمهُ الكونت كوميس لهُ وجاهة وسطوة عند رودريك . وكان قد لحظ فيهِ ميلاً الى فلورندا فنصح لهُ ان يتركها فلم يكترث بقولهِ فتركهُ وشانهُ وفي نفسهِ شيء عليهِ . فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة اوباس نصح لهُ سرًّا ان يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحهُ . وكان من جملة نصائحهِ لهُ ان لا يصغي كبير اصغاء الى مرتين وغيرهِ من جماعة الاكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب اسبانيا ومعهم يوليان اعتز لفوزه في ما اشار بهِ على رودريك من أمر فلورندا فزاده ذلك جرأة عليهِ واستخفافًا بهِ واستغرب كتمانهُ نزول العرب عنهُ . وكان يستبعد ان لا يكون عالمًا بنزولهم . فذهب اليهِ ذات صباح وهو في مجلس حضره كبار الموظفين وكلهم كونتية . وكان أصحاب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لا يزيدون على عشرة هم (١) ناظر الارضين الملوكية واسمه كونت الوطن (٢) رئيس الاصطبلات ويسمى كونت الاصطبل (٣) كاتب سر المملكة واسمهُ كونت السجلات (٤) رئيس القضاء وهو كونت النعم (٥) قائد الجند (٦) صاحب الخزنة (٧) قيم القصر الملوكي .[1] ومن أصحاب رتبة الكونتية عندهم أيضًا رئيس السقاة ونحوه ممن

(١) روبي ج ٢

يخدمون الملك . كان مجلس الملك حافلاً بهؤلاء والاب مرتين بجانبه فدخل الكونت كوميس وسلم كالعادة وإمارات الغضب بادية في وجهه وبعد ان استقر به الجلوس سال الملك اذا كان قد بلغه شيء من أخبار بونكة

فقال الملك « لا ادري .. هل سمعت شيئاً مهماً .. ؟ »

قال بصوت خشن « سألت حضرة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة »

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال « ما معنى هذه المراجعة .. بعد ما سمعته من جوابي .. » واعتدل وتصدّر وجعل يلاعب شعر راسه المرسل على كتفيه وقد بدا الغضب في عينيه وأصبح سائر الكونتية ينظرون بعضهم الى بعض والى كوميس ورودريك ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة . »

اما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقوله وقد شخصت أبصارهم نحوه بعد ما ابداه رودريك من الجفاء عظم الامر عليه — وقواد الجند من اعظم الناس انفة وشدة اذا حمي غضبهم لا يبالون بالتيجان او بالصولجة ولا يعبأون الا بشدة بطشهم وخصوصاً في ذلك العصر والكلمة النافذة لصاحب الجند القوي . وكان كوميس فوق كل ذلك قد غلب على رأي الملك ما علمه من تهوره في مسالة فلورندا واوباس . فلما سمع كلامه الملك اللهجة الشديدة قال « اظن حضرة الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله . — معنى سؤالي ايها الملك انه حدث في المملكة ما يدعو الى اطلاعنا عليه وقد كتمته . . وهو من الاهمية بحيث يجعل المملكة في خطر »

فضج الحضور ومالوا بكليتهم الى الاطلاع على جلية الخبر فلم يكن من الاب مرتين الا انه ونفض بهيأته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلاً وهو يتكلف التأني ويظهر الاستخفاف « اظنك تعني ما جاء من امر العربان الذين نزلوا سواحل بونيكة . . فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون ان يرجعوا الى بلادهم ولو كان هذا الخبر مهماً لعرضه جلالته على مجلس الاساقفة أولاً . »

وكان كوميس يحتقر الاب مرتين كثيرًا ولا يعبأ باقواله فوجه جوابه الى الملك وقال « اما الاستخفاف باولئك العرب فمن الخطأ الفادح وخصوصاً اذا عرف جلالة الملك انهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة .. (قال ذلك بغنة خصوصية) واما اطلاع المجمع المقدس على أمثال هذه الاسرار قبلنا فللملك الراي فيه . ولكني أظن قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من سواه وعليه حماية المملكة .

واما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة .» وكان يتكلم والتهكم ظاهر في كل عبارة ولم يشأ أحد من الحضور الدخول في هذا البحث لدقته وفيهم من ادرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبتة وما تحت ذلك من التعريض والتلميح ولكنهم ظلوا ساكتين

اما الملك فاشتد غضبه واحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة وادرك خطارة المركز الذي وصل اليه وانه في حاجة الى قائد الجند اكثر مما الى سائر رجال الدولة ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مبادأته بالجفاء فقال له « لم يكن من شأنك يا حضرة الكونت ان تخاطبني بمثل هذا الكلام بل كان الاولى بك ان تأتيني بطريق آخر»

قال « ان الملك لم يترك لنا سبيلاً نأتيه منه وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه والكل يعلمون ان هذا وامثاله لا يصلحون لغير العبادة وقد جعلهم الملك شركاءه في مهام المملكة .. ولو اخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد ... »

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح في ذلك العصر وخصوصاً في طليطلة يعدّ ضرباً من الكفر لما علماه من سطوة الاكليروس هناك ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به -- فتنبه بهذه الجسارة باباً لاستقواء رودريك عليه فاستعلى بحجته وحوّل وجهة الكلام الى الدفاع عن الاساقفة اراد بذلك ان يغطي خطأه فقال « ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الاساقفة .. ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الاب مرتين يرتعد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على تباته تعرض وخاطب كوميس قائلاً « ولا أظنك تجهل يا حضرة الكونت ان كلمة من جلالة الملك او من احد الاساقفة تكفي لتجريدك من هذا المنصب ... »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال « لقد خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كوميس وأنتم في أشد الحاجة اليه » وخرج وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً

اما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعةً ولم يكن يريد ان يغضبه في هذا المقام ولذلك فان عبارة مرتين ساءت الملك اكثر مما ساءت كوميس . ولم يجسر احد من الحضور على التوسط في الامر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه . ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه وقال « اهكذا اغضبت قائدنا وصاحب جندنا ونحن في اشد الحاجة اليه .. ؟ »

قال « انلوموني ايها الملك على انبهاره بعد ان اهانك واهان السادة الاساقفة جميعاً .. ان الصبر على ذلك ذلٌ لا يطاق »

قال الملك « انت تعلم ان كوميس اعظم قوادنا ولم نكن في وقت من الاوقات اشد حاجة اليه مما نحن الآن والعدوّ ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا .. سامحك الله على هذا الخطا ... ألا يكفي ارتكابنا الخطا الاول باخفاء تلك الاخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأً آخر شرًّا منه »

فاستاء الاب مرتين من هذا التعريض وقال « كأنك تقول اني انا سبب ذلك الخطأ فاذا كنت اشرت عليك مشورة فاسدة كان الاولى ان لا تقبلها .. » قال ذلك ومشى في وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره والاخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته

فشق ذلك على الملك وعده اهانة اخرى وقال « انكون مخطئًا ونضيع منا احسن قوادنا ثم تنقم علينا وتستخف باقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟ ... »

فاجابه مرتين وهو يهز رأسه ويمشي ولا يلتفت اليه « صدقت ايها الملك ان الذنب ذنبي والخطأ كله خطئي وكل هذه الشرور من نتائج اعمالي لاني لو لم أسىء الى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عونًا للعرب على فتح بلادي ... » ثم وقف بغتة وحول وجهه اليه وقد اشتد غيظه وارتعدت اطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال « اتخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتي ثم اذا أهين الاساقفة لا يهمك الدفاع عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك .... ألم يكن هم الذين دافعوا عنك بالامس وسط المجمع واتهموا رجلاً بريئًا بتهمة لا أصل لها .. ثم تقول اني كنتُ سببًا في خسارة ذلك القائد وانت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك في ما لا ينفعك .. وبسوء تدبيرك ايضًا خسرت الاب مرتين الذي لم يكن ينبغي ان تنسى تعبه في مصلحتك ودفاعه عنك .. » قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر

فلما خرج مرتين ظل رودريك وحده وقد خلا بنفسه وتصور عظم الخطر المحدق به فجلس على كرسيه والقى رأسه على كتفيه وراجع ما مرّ به من الحوادث في الاشهر الاخيرة وتذكر فلورندا ووالدها فتحقق لديه ان يوليان انما انحاز الى العرب غضبًا لها فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس وعظم عليه الامر وخصوصًا بعد ان فقد قائده واسقف قسيسه فندم من هذين الحادثين

الفصل السبعون

سرجيوس واوباس

واتفق وصول الرئيس سرجيوس ثاني يوم الخصام فنزل في الكنيسة الكبرى على جاري عادة الاساقفة ورؤساء الدبور اذا جاؤا طليطلة . فلقي هناك الاب مرتين وعهدك به في قصر الملك . فسلما وتخاطبا ملياً بشؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما في نفس مرتين . وكان الاب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر متسرعاً في ما يخطر له كما تبين لك من وصف اخلاقه فلم يخف عن سرجيوس شيئاً ما وقع بالامس له وللكونت كوميس وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه وكأنه من ألد أعدائه وهو انقلاب غريب لا يحدث الا في اصحاب المزاج العصبي او الدموي الحاد

اما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلاً الى مقابلة اوباس او انفاذه فلما لقي مرتين هان عليه ذلك فذكر اوباس بين يديه وزعم انه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلماً او على الاقل أُسيء اليه بتهمة لم تثبت عليه — ونظراً لغضبه على رودريك رأى في انتصاره لاوباس ما يشفي بعض غليله انتقاماً من ذلك الملك فقال لسرجيوس « ان اخانا اوباس سجن لتهمة اتهمه اياها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة فاجلت المحاكمة وسجن الى اجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته ولكن يظهر ان الملك لن يطلب العود اليها ... »

فقال سرجيوس « وهل تظن اذا استأنفوا محاكمته يتبرأ .. ؟ »

قال « لا ريب عندي في ذلك »

قال « ولماذا لم يطلب الاستئناف .. »

فابتسم مرتين وهز رأسه وهو يقول « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها احداً لان رودريك منع الناس من الدخول اليه »

فقال « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك »

فقال مرتين وهو يبتسم « ان ذلك هين عليّ ... فهل ترى ان نحرض اخانا

المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ...» — قال ذلك لا رغبة في نصر اوباس ولكنه توهم ان رودريك يضطر لاسترضائه كجاري عادته كلما اغضبه — ولذلك فانه لما خرج من حضرته بالامس كان يتوقع ان لا تغيب الشمس قبل ان يبعث اليه ليسترضيه فلما صبح الصباح ولم يأته من قبله احد اشتد حنقه فلما خاطبه سرجيوس بشان اوباس اراد ان يستنهضه لاستئناف المحاكمة لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك الطلب خصوصاً بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوبيس فلا يرى له مندوحة عن استرضاء مرتين لملافاة الامر — وما في ذلك من مصلحة لاوباس لانهم لو رضوا باعادة المحاكمة لاقتضى ان يجمعوا الاساقفة من أقطار المملكة كلها ولا يتأتى اجتماعهم الا بعد اسابيع

اما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال «اذا ادخلتني اليه نبهت ذهنه الى ذلك ...»

فنهض مرتين للحال واتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة اوباس ان يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فاخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه قبض عليها وسار مسرعاً الى اوباس

اما اوباس فكان لا يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم وهو يتلقى ذلك بصدر رحيب ويغالب المصائب بالصبر . ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما في ذهنه من المواضيع التي لا يستطاع التأمل فيها الا بالاعتزال عن الناس . ولم يكن يعد نفسه مسجوناً لاعتقاده ببراءة ساحته ولكنه كان يأسف لضعف الطبيعة البشرية لانها علة متاعب بني الانسان وخصوصاً اذا كانت في الرؤساء واولي الامر لان غلطة احدهم تجر الويل الى المئات والالوف من الابرياء . وكان اذا فكر في ما سجن من اجله اشفق على رودريك وامثاله لما هم فيه من الغرور وما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماساً للذة وقتية أو سعياً في وهم زائل — فكانت هذه التأملات وامثالها من غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والايام وهو سابح في عالم الفلسفة يحسب نفسه في نعيم وسائر الناس في شقاء لولا ما كان يعترض تأملاته من امر فلورندا والمونس . على انه وكل امرهما الى الله اذ لا حيلة له في مساعدتهما أو في معرفة السبيل اليهما

فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال واذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن في الدخول عليه

وكان سرجيوس يتوقع ان يرى تغيراً في صحة اوباس بعد ما سمعه من طول انحباسه . فلما

دخل عليه رآه مقبلاً لاستقباله بثوبه الكهنوتي — لانه لم يبدله منذ اقام هناك الاَّ قلنوسته فلم يكن يلبسها. فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه في تلك الخلوة هيبة وجلالاً

فلما تلاقت الابصار اسرع سرجيوس واكبَّ على يد اوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه اليه ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع امساك دمعه واوباس ينظر اليه ويده على كتفه لطول قامته بالنسبة اليه. ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه اوباس قائلاً « اهلاً بصديقي واخي سرجيوس من اين انت آتٍ الآن ولماذا ..؟ »

قال « اتيت من دير الجبل ولا غرض لي الاَّ رؤية المطران ووليت اوباس فاحمد الله على سلامته .. ولا بأس مما قاساه من البلاء فان الله يجرب خائفيه .. »

قال « انت من اهل العلم والحكمة وتحسب انحباسي في هذه الغرفة بلاء. اليس الناس جميعاً محبوسين على هذه الارض وآجالهم قصيرة وقواهم محصورة واعمالهم لا تملأ افئدتهم وهل من فرج الاَّ في العالم الباقي لمن احسن عملاً وكان رجلاً صالحاً. واما اهل الظلم منهم فانهم يشقون في الدنيا والآخرة. فلا تشفق على سجين بريء الساحة نقي السريرة فان سجنه وان طال قصير ولكن أبكِ اناساً منحهم الله السلطة على اخوانهم من بني الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ويكونوا عوناً لهم على دنياهم فظلموهم وأساؤا اليهم واهرقوا دماء الالوف منهم في سبيل لقمة يلتهمونها او جيفة ينغمسون فيها ولكنهم انما يظلمون انفسهم ولا يعلمون .. »

قال ذلك بصوت هادىء لا يتخلله اضطراب ولا حدَّة ولا شيء من عواقب الانفعال النفساني

فلا تسل عن اعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة على انه اراد ان يؤدي المهمة التي جاء من اجلها فقال « لقد صدق مولاي .. ولكن الله كثيراً ما يعاقب الظالمين ويثيب المحسنين وهم في هذه الدنيا عبرة لسواهم. وقد اتيتك الآن باخبار جديدة لا ريب انك مشتاق للاطلاع عليها ... ألا تريد الاطلاع على ما كان من امر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك ..؟ »

فلما سمع اسمها تحركت فيه عاطفة الحنو وبدا الاهتمام في وجهه ونسي ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة — والانسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب ان يهتم بالحياة واهلها — ولولا الحب لانحلت عرى المجتمع

المشري كما ينحل نظام الكون وتتبعثر الاجرام السماوية اذا فارقتها الجاذبية العامة — واوباس أحبَّ فلورندا من اجل الفونس وزاد حبه لها وحنوه اليها بعد ما اصابها من الضنك وكان انقاذها على يده — والمرء يزداد تعلقًا بالصغير كلما زاد ضعفه وكان له تعب عليه — فلما سمع اوباس اسم فلورندا هبت عواطفه من رقادها وان لم يبد ذلك في محياه الاَّ قليلاً وقال « وهل تعلم شيئًا عنها واين هي ؟ »

قال «هي في دير الجبل ...»

فقال « وكيف وصلت الى هناك .. »

فقصَّ عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى اتت الدير الى ان قال « وهي مقيمة عندنا في امان وسكينة. ولكنها في قلق شديد عليك وعلى الفونس لانها لا تعرف مقره . واو عرفته لا تستطيع الذهاب اليه لما اقامه رودريك من العيون والارصاد في سبيلها .. »

فاطمأن بال اوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال « ألا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة و يضيق عليها ... ؟ »

فابتسم سرجيوس وقال « ولكنه لا يلبث ان يقع هو في الضيق و يفرج عن الناس كافة وخصوصًا حضرة الميتروبوليت » . ورأى اوباس في عيني سرجيوس ما يدلُّ على امور مهمة يريد التصريح بها فابدى الاهتمام وقال « وكيف ذلك ؟ »

الفصل الحادي والسبعون

المروءة ومعرفة الواجب

فمد سرجيوس يده الى جيبه واستخرج كتاب بوليان وهو لا يزال في انبوبته وقال « لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم لم تتمالك عن ان تكتب الى ابيها كتابًا تشكو فيه ما حل بها من الشقاء في قصر رودريك وما اراده منها . و بعثت بالكتاب مع اجيلا فجاءها جوابٌ حاسم لما نحن فيه واليك هو .. » ودفع الانبوبة اليه . فتناولها اوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفًا وفضه وقرأهُ واعاد قراءته وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من اثار ذلك في سحنته فلم يرَ تغيرًا يذكر فلم يستغرب ذلك لانه من جملة ادلة

رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنهُ توقع ان يسمع ما يدلهُ على ذلك الاثر فاذا هو يقول «هل زادكم اجيلا ايضاحًا ..»

قال «نعم لانهُ رأى جند العرب ينزلون شواطىء اسبانيا و يوليان معهم يدلهم على عورات البلاد ..»

قال «وهل علم رودريك بذلك ..»

قال نعم جاءتهُ الاخبار منذ ايام فلم يعبأ بها ولا أطلع اهل مجلسهِ عليها فآل ذلك الى زيادة الخرق انساعًا وبات رودريك في اشد الضيق واصبح خروج الملك من يدهِ امرًا محتومًا ...»

فقال اوباس «وما سبب هذا الانقلاب ..»

قال «لان الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء اسبانيا من اناس اتوا طليطلة من هناك وتحقق ان رودريك اخفى ذلك الخبر عنهُ فعاتبهُ في في مجلس حضرهُ كبار الموظفين فآلت المعاتبة الى المنافرة فخرج كوميس من الجلسة غضبًا من رودريك ومن قسيسهِ مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسهُ فاجابهُ وتخاصما فخرج مرتين واقام في الكنيسة الكبرى وهناك لقيتهُ وفهمت منهُ انهُ ناقم على رودريك وساعدني من اجل ذلك في الوصول اليك برقعة كتبها الى الحارس . و يرى الاب مرتين انك لو طلبت استئناف النظر في قضيتك لا ريب في خروجك بريئًا .. وفي كل حال فان الله قد أعاد كيد الظالمين في نحورهم . وهذا رودريك الذي كان بالامس يستبد في رجل مثل اوباس اصبح وقد هجرهُ قائد جندهِ واخص أخصائهِ وبات هزوءًا بين الناس ... ألا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم ? ..»

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس في وجهِ اوباس ليتبين ما يبدو فيهِ واوباس مطرق يمشط لحيتهُ باناملهِ وهو مستغرق في الافكار وقد قطب حاجبيهِ وبان الاهتمام في عينيهِ فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع اوباس بصرهُ اليهِ وهو لا يزال مستغرقًا في الافكار وجعل يحدق ببصرهِ في وجهِ سرجيوس كانهُ يستطلع ضميرهُ . فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق بهما كانهما منفذ للسيال الكهربائي المتولد في الدماغ من اعمال الفكرة فكلما زاد الدماغ عملاً زاد ذلك السيال غزارة — وظل كلاهما صامتين بضع دقائق ثم تكلم اوباس قائلاً «أنستحسن الانتقام من رودريك في هذه الفرصة ..»

قال « وهل نتوقع فرصة أثمن منها فانهُ متضعضع الاحوال اعداؤه يهددونهُ واصدقاؤهُ يتوعدونهُ ... »

فنهض اوباس وجعل يخطر في ارض الغرفة ذهاباً واياباً وانامله في لحيتهِ يمشطها وشعر رأسهِ يجلل كتفيهِ وقد زاده ذلك السكوت وقاراً وهيبةً وسرجيوس ينظر اليهِ ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة امام سرجيوس فنهض هذا واصغى لما سيقولهُ اوباس فاذا هو يقول « أمن المروءة يا سرجيوس ان نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليهِ وهو في أشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل ان نساعد الغريب على القريب . إن رودريك مهما قيل فيهِ فهو منا ونحن منهُ ـ نشرب من ماء واحد ونقرأ في كتاب واحد ونتكلم لساناً واحداً ونصلي صلاة واحدة ونتناول القربان المقدس من كاس واحدة ونجتمع في كنيسة واحدة ـ فكيف نغتنم ساعة ضعفهِ ونعين عليهِ اناساً لا نحن منهم ولا هم منا ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ... ؟ وزد على ذلك ان الانتقام من رودريك في هذه الفرصة يجرُّ البلاء على كل بلاد الاسبان اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها الى دولة جديدة لا نعرف شيئاً عنها . ولا ندري ما يصير اليهِ أمر هذه البلاد اذا فتحها اولئك العرب — ألم يسفك اجدادنا دماءهم في فتح هذه الجزيرة واستثمارها فكيف نسلم بذهابها هدراً — أما ما في انفسنا من انكار حق رودريك في الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع بين الاخ واخيهِ أو الاب وابنهِ فلا يجوز ان يستعين أحدنا على الآخر بامة غريبة جنساً ومذهباً ووطناً .... واما ما ارتكبهُ رودريك من الشطط في اساءتي فيكفيهِ من ضميرهِ ما يعذبهُ والله يتولى أمره .. فنحن يا سرجيوس في موقف يقتضي أن ننبذ فيهِ الضغائن ونتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة المملكة . ويجب أن نغضي عما أساء بهِ أحدنا الى الآخر . وها اني أبدأ بنفسي فاذهبُ الى رودريك واستحثهُ على الاتحاد في سبيل الوطن ... » قال ذلك ومشى الى رف كانت قلنسوتهُ عليهِ فوضعها على رأسهِ وهم بالخروج وقد ظهر التأثر في وجههِ ونسي انهُ في سجن ولا سبيل الى خروجهِ الا باذن الملك

وكان سرجيوس في اثناء ذلك الخطاب يتصاغر في عيني نفسهِ فما اتى اوباس على آخر اقوالهِ حتى اعتقد سرجيوس نفسهُ من احقر الناس وان اوباس من طينة ارقى من طينة البشر ولم يتمالك ان اكب عليهِ فضمهُ الى صدره وقبل لحيتهُ وعارضيهِ وقال لهُ « بورك فيك من بشر ... وما انت بشر انما أنت ملاك كريم . لقد حقرتني في عينيَّ

وجعلني مرذولاً عند نفسي ... فانا تابع لك في ما تصنعهُ عاملٌ بما تامر بهِ »

وكان اوباس في اثناء ذلك يلبس قلنسوتهُ ويصلح شعره تحتها ثم مشى نحو الباب وما ادركهُ حتى انتبه انهُ لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك فتراجع وقد خجل لذهاب ذلك من ذهنهِ وتناول لوحاً من الواح الكتابة (مكسواً بالشمع) فكتب عليه ما يأتي :

« من اوباس الميتربوليت الى رودريك ملك طليطلة

« اكتب اليك من سجني لا لرحمة ارجوها ولا لنكبة اخافها ولكنني علمت بمصيبة تهدد المملكة فاردت ان اكون شريكاً في دفعها وان أضع رأسي بين رؤوس جندها ولي كلام احب ان القيهُ على مسامعك فأمر خفير سجني ان يحملني اليك والسلام »

وخرج فدفع الكتاب الى الحارس وامره ان يوصلهُ الى الملك وعاد الى مجلسهِ . فحمل الضابط الكتاب وسار

وكان رودريك قد اصبح في ذلك اليوم محتاراً في امره بعد ان هجره قائد جنده فلا هو يتنازل لاسترضائهِ ولا ذاك يعود اليهِ من تلقاء نفسهِ . ولو كان الاب مرتين عنده لاستخدمهُ في فض هذا المشكل . فقضى معظم اليوم في غرفتهِ واذا بخادمهِ الخصوصي يحمل اليهِ كتاب اوباس فتلاه وهو لا يصدق انهُ يقرأه فاعاد قرأتهُ غير مرة ولما فرغ من ذلك امر ان يكتب باستقدام اوباس مخفوراً وخرج لانتظاره في قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل اوباس بقدم ثابتة وجأش رابط فلبث رودريك صامتاً ساكناً ليرى ما يبدو منهُ . فبدأ اوباس بالكلام قائلاً « لا تخف ايها الملك اني لم آتك لعتاب او توبيخ انما جئت لامر يتعلق بمصلحة المملكة على اثر ما بلغني من نزول العرب في شواطئها وعزمهم على فتحها وان قائد جندك اغضب نفسهُ واغضبك واغتنم ساعة حاجتك اليهِ وهجرك — وهو ضعفٌ شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة فانهما غضبا من احد رجال القوط فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ومن نفسيهما لانهما من افرادها — على ان خطأً ما لا يبرىء الملك من الخطإ الذي اقترفهُ مما لا نخوض فيهِ الآن » قال ذلك بسكينة ورزانة والجد بادٍ في وجههِ فاستغرب رودريك ما سمعهُ وارتاب من اخلاصهِ فيهِ لانهُ لا يستطيع تصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه — كما يستبعد الشهم الوفي وجود اناس يكافئون على الحسنة بالاذية — فاراد الاختصار بالاجوبة ليتبين حقيقة مراد اوباس فقال « وما الذي تراهُ ؟ »

قال « لقد احسنت في اقتصارك على الموضوع الذي نحن فيهِ — فالذي أراه أن نبعث الى الكونت كومبس والى الاب مرتين فاذا حضرا اوبخهما واحرضهما على الرجوع اليك والعمل معك في انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجين ٠٠ »

فامر رودريك بعض الحرس ببابهِ ان يذهب في استقدامهما حالاً · فسار الرجل واشار رودريك الى اوباس بالجلوس وهو لا يصدق انهُ يقول ما يقولهُ عن اخلاص وحمية وظل صامتاً يخاف أن تبدر منهُ بادرة يلام عليها لان اوباس بهرهُ بمروءتهِ وجسارتهِ

واما اوباس فجلس ولم يعبأ بمن في حضرتهِ وبعد قليل عاد الرسول وانبأ الملك بقرب مجيئهما · ثم اقبل كومبس وحيّا باحترام وجلس باشارة الملك وقد استغرب وجود اوباس هناك · ثم جاء مرتين ولم يتمالك عن الانفعال حالما وقع نظره على اوباس · أما اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنهُ بالكلام فاذن لهُ فوجه كلامهُ الى كومبس قائلاً « قد بلغني يا حضرة الكونت انك خرجت بالامس من مجلس الملك غضباً فكيف انت الآن ٠٠ »

فقال « لم اغضب من جلالة الملك الاَّ غيرة على المملكة ولكنني لم ابلغ منزلي واخلو بنفسي حتى رأيتني عجلت في عملي لاننا في حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء ٠٠ »

ولم يتم كلامهُ حتى ابتدره اوباس قائلاً « عوفيت من شهم صادق — ذلك رجائي فيك لعلمي بحدة مزاجك وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب ٠٠ » ثم التفت الى مرتين وكان جالساً مطرقاً وقال « ولا أظن الاب مرتين الاَّ فاعلاً مثل ذلك ايضاً ٠٠٠ » فظل مرتين مطرقاً ولم يجب فالتفت اوباس الى رودريك وقال « لا ريب عندي من رغبة قدس الاب في الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملاً بوصية السيد المسيح · ولذلك فاننا لا نطيل الكلام في هذا الشأن بل نبادر الى العمل ٠٠٠ فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر في الوسائل اللازمة ٠٠٠ »

فرفع مرتين رأسهُ عند ذلك ووجه خطابهُ الى الملك قائلاً « كيف تبرمون امراً مثل هذا قبل عرضهِ على مجمع الاساقفة وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضي بذلك [1] ٠٠٠ »

(١) رومي ج ٢

الفصل الثاني والسبعون

الاقرار على الحرب

ولم تكن تلك القوانين خافية على اوباس ولكنهُ اراد السرعة لان جمع الاساقفة يستغرق بضعة أسابيع . على انهُ خاف اذا اكرجهم ان يفسد مرتين ما اصلحهُ فمذر الرجل على تعنتهِ فقال « لم اطلب ابرام شيء دون رأي المجمع ولكنني اردت التئام مجلس الملك للبحث في ما يعرضونهُ على المجمع » وقد فاتهُ ان مرتين انما أراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليهِ خروج اوباس من السجن لانهُ اغتاظ من جلوسهِ في حضرة الملك وزاد غيظهُ لما رآه جالساً مجلس المشير او الخطيب

فاستحسن رودريك عقد مجلسهِ فبعث اليهم وهم الكونتية الذين تقدم ذكرهم فحضروا وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجري في عقدها على القوانين الرسمية وهي تقضي باخراج مرتين منها لانهُ ليس من رجال الدولة فخرج وهو يكاد يتميز غيظاً

فلما التأمت الجلسة وقف اوباس ورفع يدهُ وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ثم خاطب الحضور قائلاً « انتم تعلمون الاساءة التي لحقت بي من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى سجنوني سجن المجرمين شهرين كاملين لم أرَ في اثنائهما غير الموكل بحراستي — حكموا عليَّ بذلك لغير ذنب اقترفتهُ او على الاقل اني اعتقد براءة ساحتي من كل ذنب ومع ذلك فحالما علمت بما يتهدد المملكة من الاخطار استأذنت في مقابلة الملك وعرضت نفسي للعمل في جملة العاملين على انقاذها . فكم بالحري يجب ان تكون رغبتكم في ذلك وانتم رجال الدولة ومدبرو شؤونها ... لا انبهكم الى امر لا تعلمونهُ ولكنني ابث لكم عواطفي في هذا الشأن واني اصغر العاملين في هذا السبيل ... »

فقال الكونت كوميس « ان شهامة اوباس ومروءتهُ وتعقلهُ اشهر من ان تذكر ولكننا لم نكن نحسب في البشر مثل هذه العواطف .. فكيف نرى ما سبقنا وهو ولا نتهالك نحن في خدمة الملك . ولكنني لا أرى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة لئلاَّ يضيع الوقت بلا طائل .. »

فقال اوباس « ولكن لابدَّ من استشارتهم في مثل هذا الامر وهم كما لا يخفى

اصحاب الفضل الاكبر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها واحكامها وتدبير شؤونها » [1]

فقال رودريك « لا يمكننا القطع في التجنيد والمحاربة الاّ بعد مشورتهم »

فقال كوميس « لا بأس من استشارتهم ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة . . . »

فخاف اوباس ان يجند كوميس فيذهب سعيهُ هدرًا وتذكران مرتين خرج من الجلسة حاقدًا وخاف اذا لم يسترضوه ان ينقلب عليهم ويهيج الاساقفة على الملك فتنقسم المملكة على نفسها فتكون المصيبة الثانية شرًّا من الاولى فعمد الى ملافاة ذلك فقال لكوميس « اراك ضيقت الفرصة ودققت في الطلب فالاساقفة كما قلت لا بأس من استشارتهم بل أرى احترامهم واجبًا لانهم واضعو اساس هذه النظامات كما تعلم فضلاً عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . وزد على ذلك ان الاتحاد يقضي علينا باستشارتهم لان غضبهم يفضي الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك ايضاً ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التي انما نسلُّ سيفك ونشحذ قريحتك في سبيل الوصول اليها . فرجائي فيك ان تتلافى هذا الخطر ولا شك عندي انك متلافيهِ فألتمس ان تبدأ بذلك من هنا (واشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين) لان حضرة الاب اذا رضي هان الامر . . . » ثم وجه كلامهُ الى رودريك وقال « هل يأذن مولاي باستقدام الاب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل لهُ حظاً من هذا البحث . . . »

فكان كلام اوباس نافذًا بلا مراجعة لانهُ بهرهم بما اتاه من الحمية والمروءة فضلاً عما فطر عليهِ من قوة العارضة . فامر رودريك للحال باستقدام مرتين وكان منفردًا في بعض غرف القصر فلما دخل وقف اوباس وبشَّ لهُ وقال « ليس فينا يا حضرة الاب من يجهل حق سيادة الاساقفة في شؤون مملكة القوط ولكن ولدنا الكونت كوميس رجل حرب يحبُّ المبادرة وغيرتهُ على صيانة هذه الدولة حملتهُ على التسرُّع . وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب ولكنني اصوب رأي حضرة الاب بالنظر الى وجوب استشارة الاساقفة . . . على اني اخاف ان يدعو ذلك الى التأخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعًا ولا اظن سيادة الاساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب بل احسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذي اراه — والامر لجلالة الملك — ان نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الاطراف في حشد القوات والاموال ونبعث الى الاساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هذا المجلس او نبعث اليهم بخلاصة اعمالنا وهم في

(1) كينزو

ابرشياتهم لاننا احوج اليهم الآن وهم هناك — واذا اذن ليَ الملك قلت كلمة في هذا الشأن والرأي راجع اليهِ في كل حال — وذلك اني ارى ان ينتدب قدس الاب مرتين لينوب عن جلالتهِ في تبليغ الاساقفة قرار هذه الجلسة واذا رأيتم اني اليق بهذه الخدمة قدمت نفسي لها ... او كما تشاؤون »

فلما فرغ اوباس من الكلام لم يرَ مرتين سبيلاً للرد عليهِ لعلمهِ ان امر المجلس نافذ لا محالة وقد اعجبهُ رأي اوباس بانتدابهِ لخارق الاساقفة ليتمكن من بث ما في نفسهِ اليهم لكنهُ ساء الظن في ذلك الانتداب وظن اوباس انما يريد ابعاده عن مجلس الملك او ان يفرّ هو من محبسهِ لغرض لهُ وكلا الامرين لم يرضهِ . فلم يرَ خيرًا من الرضوخ لقرار المجلس فعمد الى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظهِ من تغلب اوباس على رأيهِ « لا اظن حضرة الملك يسيء الظن بقصدي اذا التمست جمع الاساقفة فانهُ طلب فاتوني واما الحرب فانها كما قال اخي المتروبوليت تدعو الى العجلة وللملك ان يبلغ الاساقفة بالطريقة التي يختارها . واما انا فاني اعد تلك المهمة شرفًا لي ولكنها تبعث الى التطويل لما يقتضيهِ ذلك من الانتقال من ابرشية الى اخرى وكذلك انتداب حضرة الميتروبوليت فالانسب ان ينتدب جلالة الملك من شاء من حاشيتهِ ويفرقهم دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الاساقفة في وقت معًا »

ولم يجهل اوباس ما ينطوي تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ولكنهُ تجاهل رغبة في النتيجة واغضى عن كل سيئة في سبيل الوصول اليها فابدى استحسانهُ لموافقة مرتين والتفت الى رودريك وهو يبتسم وقال « لقد تمَّ الاتفاق بحول الله فما على جلالة الملك الاَّ ان يتحد مع مجلسهِ في التأهب للحرب ونحن في كل حال خدمة المملكة في الامر الذي تريدونهُ »

فلم يسع الملك بعد ما عاينهُ من مساعي اوباس في نصرتهِ من ان يحترمهُ ويتصاغر في عيني نفسه فقال لهُ « بورك فيك يا اوباس .... » فقطع اوباس كلامهُ خوفًا من اثارة حسد مرتين وحجتهُ في قطعهِ انهُ لا يريد ان يسمع الاطناب في نفسهِ ثم وقف وطلب الى الملك ان يأذن لهُ بالانصراف الى سجنهِ فقال رودريك « امكث معنا يا اوباس فانك نعم المشير ودع السجون لاهلها ... »

فقال اوباس « اشكرك على ذلك ولكنني استأذن في الانصراف من هذه الجلسة على ان اعود بعد قليل »

فأذن لهُ فخرج اوباس وقد حمد الله على نجاح مسعاه فلقية سرجيوس فقص عليهِ ما كان فازداد سرجيوس اعجابًا بتلك المناقب الشريفة وتداولا بشؤون كثيرة وعاد سرجيوس بعد بضعة ايام الى الدير

وكانت فلورندا تنتظر رجوعهُ بفارغ الصبر فلما عاد وقص عليها ما اتاه اوباس الى آخر الحديث احست بانقباض في نفسها لاعتبارها ذلك مخالفًا لما كانت تتوقعهُ من سقوط هذه الدولة على يد والدها وما تخافهُ على نفسها وعليهِ اذا لم يفز العرب في هذه الحرب . فوقعت في حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة اوباس لان نواميس الشرف والمروءة تؤيدهُ وتنصرهُ ولولا ضعف المرأة وإيثارها الانتقام لما تغيرت فلورندا غير ما اراده اوباس ولكنها لم تكن ترى سبيلاً الى السعادة الاَّ بقتل رودريك وخصوصًا بعد ان جاهر والدها بحربهِ فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما . وسألت الرئيس عن المونس فأخبرها انهُ في استجة مع فرقة من الجند ينتظر اوامر رودريك فتاقت نفسها للذهاب اليهِ لعلمها انهُ لو كان عالمًا بمقامها لسعى اليها او بعث في استقدامها . ولكنها خافت العيون والارصاد واستشارت الرئيس في ذلك مرة فقال لها « الشيء عندنا ريثما نرى ما يكون من امر هذه الحرب . . »

الفصل الثالث والسبعون

السفر

قضت فلورندا في ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع وهي تتنسم الاخبار بواسطة اجيلا وشانتيلا والرئيس فلم تسمع الاَّ بانتصارات العرب ووالدها معهم وقد دخلوا اسبانيا واوغلوا في مقاطعة بوتكة . وكان رودريك قد اعدَّ جنده وتأهب للخروج عليهم فسمعت انهُ برح طليطلة بنفسهِ ومعهُ العدة والرجال واضطربت اسبانيا بجملتها وفيها الخائف والشامت والآسف والناقم لاختلاف الاحزاب وتضارب الاغراض كما علمت

أما اهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الاخبار وهم يرون الخطر بعيدًا عنهم

لبعدهم عن ساحة الحرب . وفلورندا قد ترا كمت عليها الهواجس والمخاوف من قبيل ابيها وخطيبها لا تدري هل تسير الى احدها او كليهما او تبقى في ذلك الدير وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء ان يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما اقبل الصيف اصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء نشيط الهواء وقد اكتست اوديته حلة خضراء .

ففي يوم من ايام يوليو افاقت فلورندا باكرًا وهمت بالخروج من الدير للتمشي في بساتينه على جاري العادة وقبل ان تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس وقد مضت مدة لم يدعها اليه فاختلج قلبها واسرعت حتى اقبلت على غرفته فرأت عنده كهلاً لا تدل سحنته على انه من القوط او من الرومان ورأت عليه لباسًا تذكرت انها كانت ترى مثله وهي بعد عند والدها في سبتة ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غشي لحيته وشاربيه من الغبار حتى حاجبيه واهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعًا — فتوسمت فلورندا من ذلك القادم خبرًا جديدًا فدخلت وحيت فرحب بها الرئيس وقال « هذا رسول من ابيك »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الى الرجل وقالت « ما وراءك . . . »

قال « اني من اصدقاء ابيك ومحبيه والمطلعين على إسراره وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب الذي سيعود على راس . . . . — ألا تعرفينني يا فلورندا »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة في صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها في سبتة . . فاستبطأها الرجل فقال « ألا تعرفين سليمان التاجر . . . »

فانتبهت للحال وقالت « أنت سليمان . . . ؟ نعم اعرفك جيدًا وكنت تتردد علينا وتحمل الينا الهدايا والاحمال وتبتاع لنا الآنية والثياب . . هل انت آتٍ من عند والدي ؟ واين هو الآن . ؟ »

قال « هو مع جند العرب على مقربة من وادي لينة »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شيء في حضرة الرئيس فاجابته بالاشارة ان يفعل فقال « وقد اوغلوا في بوتيكة ولم يلقوا معارضة الا قليلاً وقد عدَّهم اهل البلاد رحمة ولا يلبثون ان يتملكوا البلاد كلها . . »

فبغت الرئيس وقال « وماذا جرى بجند الاسبان ٠٠ »

قال « لم يلتقِ العرب برودر يك بعد ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسراً آفاً بشرا ٠٠٠»

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال « هل تعتقد ذلك وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ٠٠ »

قال « تكونون في اي حال أحسن مما انتم الآن لان العرب اذا فتحوا بلداً فلما يتعرضون لاهلها في شيء غيرما يفرضونه عليهم من الجزية اوالخراج ٠ واما الرهبان وجماعة الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة يقيمون في ديارهم مستكنين آمنين — ذلك ما شاهدناه باعيننا في البلاد التي فتحوها في مصر والشام »

فاطرق الرئيس وسكت فقالت فلورندا « وما الذي جئت به الآن ٠٠ »

قال « كلفني مولاي الكونت والدك ان آتي لانفقدك واذا اردت الذهاب اليه سرت في خدمتك »

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت « ألا تخاف علينا بأساً في اثناء الطريق ٠٠ »

قال لا باس علينا من اهل اسبانيا ونحن منهم ٠٠ ولا من الملك وهو في شاغل من نفسه وجنده ٠٠ »

فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال « اذا لم يكن بدٌّ من ذهابك فهذه فرصة لا تضيعيها ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة »

فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها فاشارت عليها بالذهاب وتأهبوا في الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشانتيلا واما فلورندا فطلبت الى سليمان ان يجعل طريقهم باستجة

فساروا اياماً لا يمنع مسيرهم نوء ولا مطر والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقس جميل حتى اطلوا على استجة فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة وكانوا قد اشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد وجعلت تناجي نفسها عن مقر الفونس فلم تجد بدًّا من استفهام سليمان فقالت له « اذا انفذ رودريك جنداً الى مدينة مثل استجة فاين يقيم ٠٠ »

فقال لها « اظنك تسئلين عن مقام الامير الفونس ٠ »

فبغتت فلورندا وقالت « نعم ٠٠ وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته منذ بضعة اشهر اذ جئت هذه المدينة و بلغني قدوم الامير وجنده وكانوا يقيمون في هذه القلعة قرب الجسر هل ابحث عنه هناك . . »

فأسنأنست به فلورندا وقالت « افعل يرحمك الله . . وأتنا بالخبر . . »

فتركهم وتحول باسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعًا ينتظرون الخبر وفلورندا تهيء نفسها بملاقاة الفونس وكلما تصورت انها لاقيته يختلج قلبها في صدرها وهي لا تزال تتذكره كما شاهدته المرة الاخيرة في حديقة القصر في طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة وقد خرج من الحديقة مسرعًا مبغوتًا عند سماعه الصفير — تلك آخر صورة ارتسمت له في ذهنها : ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لان سليمان عاد سريعًا فلما رأته مقبلاً شخصت اليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله فلما وصل ابتدرها قائلاً « لم اجد احدًا في القلعة . . »

قالت « اتظنهم لم ينزلوا فيها . . . »

قال « لا ريب عندي انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فاخبرني ان رودريك بعث الى مولاي الامير الفونس ان يوافيه الى وادي لينة بمن معه من الجند لملاقاة العرب . . »

فبغتت فلورندا واطرقت وهي تتجلد وتمسك عواطفها بين يدي ذلك الرجل ولكنها اصبحت قلقة البال على الفونس لانه ذهب الى ساحة الحرب وهو في جانب وابوها في جانب واذا فاز الواحد غلب الآخر وكلاهما عزيزان عندها . وربما لم يفت سليمان ما مرَّ بخاطرها من هذا القبيل فقال لها « اظننا نلاقي الامير الفونس في الطريق اذ اسرعنا والاَّ فاننا ملاقوه في وادي لينة فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه وانيتك بما تريدينه »

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد واشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها وما زالوا سائرين جنوبًا وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادي لينة قلَّ الناس العاملون في الحقول

واقبلوا في صباح اليوم التالي على طريق رأوا فيها جماعة من اهل القرى يهرعون كانهم يفرون من عدو لاحق بهم فقالت فلورندا في نفسها الظاهر انا على مقربة من معسكر العرب او ان العرب قادمون . فالتفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الافق و يتفرس كانه يرى شيئًا غريبًا فنظرت فرأت غبارًا يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان « يظهر ان العرب قريبون منا اليس ابي معهم . . ؟ »

فقال « لا اظن القادمين عرباً لانهم سائرون من الشمال الى الجنوب . . » ثم التفت الى احد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل « ألا ترى جند الملك قادمين فهم لا يغادرون اذية لا يلحقونها بالفقراء امثالنا ولا يتركون ثمراً لا يقطعونه ولا زرعاً لا يدوسونه ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس . . . » قال ذلك وسار مسرعاً في طريقه لئلا يكون خاطبه من حزب الملك فيقبض عليه

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال وارادت ان تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان « وهل تظن رودريك نفسه مع هذا الجند . . »

قال « اظنه معهم . . »

فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها وسليمان يراعي عواطفها وملامحها فلما رأى اضطرابها قال لها « لا تخافي يا مولاتي فانك في امان تعالي نختبيء في مكان ريثما يمرّ هذا الجند . . »

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوا الخربة فقالت فلورندا « اري ان اتنكر بثوب الرجال » فاعطوها ثوباً من اثوابهم واعطوا مثله للخالة العجوز حتى لا يشك من يراهم عن بعدٍ انهم رجال ثم اختبأوا في تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة فاهتدت الى شق ارسلت بصرها فيه الى جهة الغبار فاذا هي بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهم الالبسة الملونة والدروع . ورأت في اواسط الحملة بنوداً كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بالبسة مرصعة وفي وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت انه موكب رودريك . فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها فرسمت اشارة الصليب فتشجعت وثبتت قدميها ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤنة والذخيرة وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم اقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دانيين بما يشبه الهودج وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر [1] في مقدمها صليب مغروس في احد اعمدتها ورودريك جالس وعلى رأسه

---

(١) نفح الطيب ج ١

التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد تردى بوشاح مزركش وردي اللون وجلس وتصدّر تصدر الملوك على عروشهم وبيده في لحيته وهو يجيل بنظره ذات اليمين وذات الشمال ينظر الى جنوده وكثرة ما معهُ من العدة والرجال. وقد جلس معهُ في ذلك السرير الاب مرتين وهو يخاطبهُ ويشير بيده ورودريك ينظر الى الاعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية في وجهه

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك وكان سليمان واقفاً بجانبها فلما مرّ الموكب التفت اليها فرأى لونها اصبح مثل لون التراب فاراد ان يشغلها عن الخوف فقال « ماظنك بعدد هذا الجند يا مولاتي ... »

قالت « لا ادري ولكنني أراه كثيرًا .. هل تظن جند العرب اكثر منهُ .. »

قال « ان العرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء ناهيكِ بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل التقائهِ بالعرب وخصوصًا جند مولاي الامير النونس فانهُ سينضم اليه ... »

فقالت « اذًا فالعرب في خطرٍ وضعفٍ .. »

قال « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذا البلاد فان القوة ليست في الكثرة وانما هي في الشجاعة .. ان العرب يا مولاتي لا يزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ الفاً ومع ذلك فلم يقف في سبيلهم احد .. »

فقطعت كلامهُ قائلة « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد .. »

قال « هذا صحيح ولكنني رأيت من شجاعتهم واقدامهم وصبرهم مالا اخاف معهُ عليهم شيئًا ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيهِ من يشاء .. » وفي اثناء هذا الحديث مرت بقية الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم . وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذي نزل العرب فيهِ ثم عاد فاخبر فلورندا ان العرب نزلوا في وادي لبتة قرب مدينة شريش فقالت له « وهل علمت بمعسكر النونس »

قال « هو على مقربة من ذلك المكان »

فقالت « وما العمل الآن .. »

قال « اذا شئت الذهاب توًّا الى مولاي الكونت والدك اوصلتكِ اليهِ حالاً .. »

فأصبحت فلورندا في حيرة كيف تدبر الى معسكر العرب قبل ان ترى النونس وتدبر طريقة للاجتماع بهِ او انقاذه فلبثت صامتة فادرك سليمان سبب صمتها فقال

لها « يظهر انكِ تريدين البحث عن الامير الفونس قبل كل شيء »

قالت « نعم . . »

قال « اعرف كرماً من كروم شريش لعائلة من اهل هذه البلاد وفي الكرم بناء مرتفع يطلُّ على سهول شريش كلها وحيثما عسكر القوم رأيناهم فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين وامضي انا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين او استشير والدك . . »

الفصل الرابع والسبعون

كتاب اوباس

فاستحسنت فلورندا رأيه وشكرته وساروا حتى اطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفي جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس وهو الذي عناه سليمان فصعدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا في الكرم احداً . وكان سليمان لا يمرُّ من هناك الاَّ و يرى اولاد الشيخ واحفاده واحفاد اولاده يسرحون في الكرم اما للعمل او للعب . فقال سليمان في نفسه « ان لهذا سبباً ذا بال » ومشوا حتى اتوا العريش في بعض اطراف الكرم وقبل الوصول اليه سمعوا صوتاً يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معاً والقلق بادٍ في وجوههم اجمعين فلما رأوه مقبلاً ذعروا ونهض له بطرس فقال « ماذا تريد » ولم يتم سؤاله حتى عرفه فقال « سليمان . . مرحباً بسليمان التاجر » فلما سمع الشيخ اسم الرجل وقف له ورحب به وكان لذكر اسمه تأثير في سائر اعضاء تلك العائلة لانهم كانوا يسمعون به و بعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر في بعض المواسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب عند رؤيته — واهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون فضل اهل المدن عليهم . فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ في ملاطفتهم وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم في ذلك العريش في اثناء النهار والكرم لا يستغني عمن يتعهده فقال الشيخ « يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا »

قال « اظنك تعني قدوم العرب . . . »

قال « نعم ولا ندري ما يأُول اليه حالنا بعد هذه الحرب ورأينا بالامس جند

الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا نأمن الحرب ان تنشب وعندنا اطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا ...» قال ذلك ويكاد صوته يختنق حنوًّا على اهله وولده

فابتسم سليمان وقال «لا بأس عليكم يا عماه اني كافل لكم كل ما يحييكم ويحمي اولادكم من كل شرّ .... ومعي اناس من اهلي ساعهد بهم اليكم يقيمون عندكم الليلة فهل من مكان لهم»

قال «على الرحب والسعة .. واشار بيده الى جهة مستودع الخمر في قمة الجبل وقال «هناك» وهرول مسرعًا ومعهُ بعض اولاده حتى اقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا ازمة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع وكان بعضهم قد سبق اليهِ فكنسهُ وغسلهُ ونظفــهُ فصعدت فلورندا على السلم الى المستودع وهي لا تزال بلبــاس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان وظلّ اولاد الشيخ اسفل المكان ينتظرون امرًا لخدمته فنزل سليمان فدفع اليهم قطعًا من الذهب وطلب اليهم ان يأتوهم بالطعام واظهر السخاء فازداد اولئك الغلمان رغبة في خدمتهِ

أما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع اطلت من بعض نوافذه فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقية سهلاً واسعًا على مدى البصر يخترقهُ نهر على ضفتيهِ الاشجــار والاعشاب وفي احد طرفي السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثلهُ وفي وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون امامها علم كبير . وامام الخيام الاخرى اعلام اصغر منهُ . ورأت وراء تلك المضارب خيام منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمل وهي لم ترهُ من زمن طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك وكان سليمان قد فرغ من صرف اولاد الشيخ وصعد فلما رأتهُ قالت «أليس هذا معسكر العرب»

قال «بلى يا مولاتي .. والخيمة التي تر ينها في وسط المعسكر هي خيمة الامير طارق ابن زياد . ومولاي الكونت بوليان والدكِ مقيم فيها معهُ ..»

فقالت «وما تلك المضارب البعيدة ..»

قال «هي اخبية النساء ومرابع الماشية .. لان العرب اذا ساروا الى الحرب اخذوا معهم نساءهم واولادهم ومواشيهم ويجعلونهم وراءهم فاذا ضعفوا في الحـــرب وحدثتهم انفسهم في الرجوع او الفرار لقيهم اهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا ..»

فحوّلت نظرها الى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خيامًا اخرى عرفت انها

مضارب الاسبان وفيها خيمة رودريك وخيمة الفونس · اما فسطاط رودريك فعرفتهُ من كبرهِ وما فوقهُ من الاعلام والبنود وما امامهُ من الخدم والاعوان وان كانوا لا يظهرون لبعد المسافة · واما خيمة الفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون فاشارت الى رودريك وقالت « أليست هذه خيمة الملك ·· »

قال « بلى ·· واظنكِ تريدين معرفة خيمة الامير الفونس فهذا لا سبيل اليهِ الاَّ بالبحث وقد عقدت النية على ان ابحث عن ذلك بنفسي بما لوالدك من الفضل عليَّ »

فشكرت فضلهُ ثم قالت « ومتى تذهب للبحث ·· »

قال « في هذه الساعة بعد ان اهيّء لكِ ما تحتاجين اليهِ من الطعام ولا بأس عليكِ هنا ومعكِ خالتكِ والشابان وهما نشيطان ·· »

قالت « ومتى تعود الينا »

قال « أما الرجوع فلا يمكن تحديده وسأبذل الجهد في الاسراع ·· » وبعد ان دبر كل شيء ودعهم ونزل والشمس قد دنت من المغيب

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان يتكلم لسانهم فضلاً عن لسان القوط وكان يعرف العربية والبربرية وكان يحسن التكلم خصوصاً بالاسبانية والقوطية فاذا كلم احداً باحداها ظنوه من اهلها · ونظن القارىء ادرك مما تقدم انهُ هو الرجل الذي جاء الجمعية اليهودية السرية في استجة منذ بضعة اشهر والفونس فيها وأنبأهم بما عزم عليهِ يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التي جاء منها ونزل الى معسكر الاسبان من ورائهِ لئلا يشك احدٌ في قدومهِ من بعض القرى او المدن · وما زال يتجسس وهو لا يتوقع ان يرى الفونس باقياً هناك فطال تجسسهُ ولم يشعر بهِ فسأل بعض العارفين فدلوه عليهِ فاذا هو في الطرف وراء معسكر رودريك فجعل همهُ البحث عن يعقوب وعنده كل الاسرار ··· وكانت الشمس قد غابت قبل وصولهِ الى المعسكر فجعل انهُ مارٌّ من هناك عرضاً والجند في شاغل عنهُ بالتأهب للحرب · ولما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الخفر ولم يرَ يعقوب بينهم فمرَّ من وراء الخيمة وتظاهر انهُ شرق بريقهِ وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث ان سمع جواباً عليها من الداخل · فعلم ان يعقوب هناك وانهُ علم بهِ فظلَّ ماشياً في طريقهِ ولم يمش قليلاً حتى سمع نحنحة دالة على مكان يعقوب والتقيا فسلما بعبارات خاصة يتعارفون بها ثم قال سليمان « اراكم لا تزالون هنا الم تنجح في اقناعهِ »

قال يعقوب «كدت انجح لولا اوباس وكتابة ..»

قال «وأي اوباس تعني»

قال «المتروبوليت اوباس عم الفونس»

قال «اليس هو الذي كان رجاؤنا في النجاة من هذه الدولة موقوفًا عليهِ ..»

قال «بلى .. هو بعينهِ وقد اطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة اشهر ورأيتم الفونس نفسهُ في تلك الجلسة يوم ار يناه الدنانير في ذلك التابوت .»

قال سليمان «وقد رأيت من الفونس اتحادًا معنا على هذا الامر . و ما الذي حدث لهُ بعد ذلك .؟»

قال يعقوب «خرجنا من تلك الجلسة وكلنا اقتناع بنجاح مشروعنا وقد افهمتهُ ان العرب اذا اخذوا البلاد ابقوا لهُ كل اموالهِ واعادوا الحكم اليهِ . وان بنجاحهم على رودريك سعادتهُ واما اذا فاز رودريك فالعاقبة تكون على رأسهِ ورأس عمهِ وسائر اهلهِ ... واخبرتهُ ان سقوط رودريك يتوقف على امر واحد لا يقدر عليهِ احد سواه وذلك ان ينضم هو ومن معهُ الى جانب العرب يوم المعركة الاولى . فاقتنع وتواثقنا على ذلك ...»

فقال سليمان «ثم ماذا ..»

فمد يعقوب يده الى جيبهِ واستخرج لوحًا مشمعًا من الواح الكتابة عندهم في ذلك العصر ودفعهُ الى سليمان وقال «وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمهِ اوباس ..»

فتناول سليمان اللوح ونظر اليهِ فلم يستطع قراءتهُ لشدة الظلام فابتدرهُ يعقوب قائلاً «لا تتعب نفسك في قراءتهِ فاني قد تغيبتهُ حرفًا حرفًا لكثرة ماقرأتهُ واعدت قراءتهُ من شدة غيظي من اوباس مع فرط اعجابي بهِ وها اني اتلو عليك نص الكتاب كما هو فاصغ . قال :

«من الميتروبوليت اوباس الى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

بسم الاب والابن والروح والقدس . سلام

أما بعد فقد بلغني ما ارتكبهُ ولدنا الكونت يوليان من الخطأ في حملتهِ على رودريك بجند العرب ولا أظنهُ فعل ذلك الا انتقامًا لابنتهِ وكأني بك لما بلغك الخبر سررت بهِ لانهُ يشفي ما في نفسك من هذا القبيل . فأخاف ان يسوقك الضعف البشري الى ماساق

ابو ولدنا المذكور فتوافقة على ما يضيع هذه المملكة و يبيد هذه الدولة فتهدمون بيوم واحد مابناه اجدادكم في اجيال وتدور الدوائر عليكم وعلينا جميعًا — فاذا كان قد خطر ببالك شيء من ذلك فانزعة عنك ـ انه من حبائل الشيطان . واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط — واما ما بيننا و بين رودريك من التباغض فاننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء — ورجائي ان تصغي الى نصحي ولا تقبل قول سواي والسلام ... »

فلما سمع سليمان نص الكتاب لم يتمالك ان قال « والله انه قول رجل عاقل ... ولكنه اذا عمل به فالضربة تعود علينا نحن اليهود وخصوصًا اذا فاز رودريك واستنطق بعض الاسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده — والذي اراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم — ان القوس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة في جانب رودريك .. والعياذ بالله .. »

فقال يعقوب « ذلك هو اعتقادي ولكنني قد استنفدت الحيل في سبيل اقناعه وانت تعلم ياسليمان كم بذلت من الوقت والسعي من ايام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور فتركت منصبي وتجاوزت عن أموالي وتظاهرت بالنصرانية وجعلت نفسي خادمًا اهيئ الاطعمة واخدم على المائدة — صبرت على ذلك اعوامًا حتى اذا خلت صبح الفرج قد اقبل أتانا اوباس فافقاله بعد ان كان اكبر نصير لنا بل هو المحرك الاعظم لمشروعنا .. »

فقال سليمان « اما اوباس فانه يجهد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق فهو لا يريد ان تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته و يسلمها الى اناس غرباء عنه دينًا وطنًا ولغة — اما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال لأن المسلمين خير لنا منهم نظرًا لما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر فانهم يطلقون لهم الحرية فيتعاطى كل منهم طقوس ديانته كما يشاء على ان يدفع مالاً قليلاً يسمونه الجزية . وزد على ذلك ان اليهود اقرب الناس نسبًا الى العرب لاننا واياهم من جد واحد هو ابراهيم كما تعلم . فهم يرفقون بنا بنوع خاص فيجدر بنا والحالة هذه ان نكون عونًا لهم في تملكهم هذه البلاد نفعل ذلك حبًا بمصلحتنا — ولا يهمنا كلام أوباس ولا غيره .. »

فقال يعقوب « هذا هو الامر الذي نتمناه ولا سبيل اليه الاّ بانحياز القوس الى

العرب لان ذلك يقلل جند رودريك و يضعف عزيمتهُ ولا يخفى عليك ان معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونهُ . فاذا راوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو يهون عليهم ان يتبعوهُ او ان يتقاعدوا عن الدفاع على الاقل» قال ذلك ويده في لحيتهِ يلاعب طرفيها بانامله وشعرها لا يزال متلبدًا بالاوساخ . وسكت هنيهة وسليمان ساكت ثم قال يعقوب « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء الفونس على الخروج الى معسكر العرب ذهبت مساعينا وارواحنا واموالنا ادراج الرياح والسلام »

فقال سليمان « هذا هو الصحيح ... ولو كان هذا الوطر ينقضي بالمال لهان علينا أمره ولكن الرشوة لا مدخل لها في هذا المشروع اذ لا نستطيع ان نرشو الفونس ولا اوباس ولا اذا رشونا احدًا من رجالهِ يستطيع التغلب على رايهِ وأنت أقرب الناس اليهِ ولم نستطع شيئًا مع كثرة دهائك ومكرك .. » قال ذلك وابتسم

فأجابهُ يعقوب « دعنا من المجون فاننا في معرض جدّ وخطر والوقت قد داهمنا . »

قال سليمان « ومتى ينوي رودريك القتال .. »

قال « سمعت انهُ ينوي مهاجمة العرب غدًا .. »

فبغت سليمان وقال « غدًا ... ؟ لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة .. الا نستطيع تاجيل الهجوم يومًا او يومين ؟ »

قال « لا اظنني استطيع ذلك .. وما الفائدة من التاجيل »

قال « ساسعى في طريق اظنني ابلغ منهُ المراد »

قال « وما هو .. »

قال « لا أقولهُ لك الآ بعد قليل فاسعفني انت بتاخير المعركة يومًا او يومين .. »

قال « لا أظنني قادرًا على ذلك يا سليمان لان رودريك يرى العجلة في مهاجمة العرب قبل ان تاتيهم نجدة فيقوى ساعدهم ـ أشار عليهِ بذلك اوباس ... »

فقطع سليمان كلامهُ « سبحان الله ما هذا اوباس .. كيف انقلب هذا الرجل من الشيء الى ضده ... »

فقال يعقوب « اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت ... »

قال « اني ذاهب الساعة وسأعود اليك غدًا صباحًا بالامر الذي دبرتهُ فاذا استطعت سبيلاً لتاخير المعركة افعل ... استودعك الله .. » قال ذلك وتحوّل راجعًا من حيث أتى و يعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره فتحول الى خيمة الفونس وقد مضى هزيع من الليل

الفصل الخامس والسبعون

الحيلة

اما سليمان فانهُ سار توًّا الى معسكر العرب والليل حالك حتى أتى خيمة يوليان فلم يعترضهُ أحد لانهُ كان عارفًا بشعار الليل عندهم وكان يوليان قد أوى الى خيمتهِ للرقاد وقلما كان يستطيعهُ لما تراكم في مخيلتهِ من الشواغل القديمة والحديثة فلما وصل سليمان كان يوليان جالسًا في الفراش وقد زاده الارق انقباضًا ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السويداء مرسومة في وجههِ بخطوط واضحة وخصوصًا بعد ان رأى جنود رودريك في الامس فتدهالهُ ما رآه من كثرتها واستعدادها وجند العرب لا يزيد على خمسها فخاف ان يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليهِ وعلى ابنتهِ وسائر اهلهِ — وكلما تصور ذلك اقشعر بدنهُ — وهو في ذلك اذ قيل لهُ «سليمان بالباب» فاذن بدخولهِ فلما دخل حياه فابتدأه يوليان بالسؤال «ابن فلورندا ..»

قال «هي في خير وستأتي اليك في صباح الغد او بعد الفراغ من المعركة» واخبره بمقامها وطمأنهُ

فقال «وما الذي حملك على المجيء الآن ..»

قال «حملني عليهِ امر ذو بال لا أظنهُ غاب عن بصيرة مولاي»

قال «ما في بصيرتي شيء الآن غير جنود رودريك فاني استكثرتها وخفت على جند العرب منها . واذا غُلب العرب عادوا ولا يهمهم شيء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس أهلنا وكل من قال بقولنا ..»

قال «ذلك ما جئتك من أجلهِ .. ولكن أعلم يا مولاي ان الامر على وعورتهِ يتوقف حلهُ على امر هين بنفسهِ» وقصَّ عليه حال القونس وما دار بينهُ وبين يعقوب بشأنهِ الى ان قال «وقد جئت الآن التمس منك كتابًا الى القونس تدعوه فيهِ الى التسليم وتضمن لهُ أموالهُ وضياعهُ وضياع أهلهِ أجمعين وتوشيهِ بعبارات التحريض على اغاظة رودريك مما لا يخفى عليك . واعطني الكتاب و بعثهُ اليهِ بطريقة اختارها»

فاطرق يوليان هنيهة ثم قال «عد الي في الصباح فاعطيك ذلك الكتاب»

قال «سمعًا وطاعة» وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا في انتظاره

على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتتراءى بها الاوهام لم يغمض جفنها الاّ قليلاً . وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد غلوة منها ولا تستطيع الوصول اليهِ

وامرؤٌ ما لاقيت من الم الجوى   قرب الحبيب وما اليهِ وصولُ

مضى معظم الليل وهي في هذه الهواجس وكلما هبَّ النسيم وسمعت حفيف الورق توهمت سليمان قادماً وكان شوقها يحدثها انهُ سيأتي والفونس معهُ . وهي في نحو ذلك اذ سمعت وقع الخطى وخشخشة الاعشاب اليابسة بقرب المستودع فاصاخت بسمعها وقد اسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها باذنها فاذا هي بالخطوات تقترب ثم سمعت همساً فلم تتمالك عن الوقوف حالاً ودنت من النافذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب اجيلا ثم صعد سليمان على السلم ففتحت لهُ فلوريدا واستقبلتهُ وهي تقول « ما وراءك يا سليمان »

قال « ما ورائي الاّ الخير . . . » وغنة صوتهِ تدل على شيءٍ في نفسهِ فاضطربت فلوريدا وابتدرتهُ قائلة « يظهر انك تضمر شيئاً . . . قل لي . . . ما الخبر . . »

فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهي تمسح عينيها باطراف انامله وقالت « ما الخبر يا سليمان هل رأيت الامير الفونس ؟ . . »

قال « كلاَّ يا مولاتي . . »

فلما سمعت فلوريدا ذلك انشغل خاطرها وقالت « واين هو اذاً . . . »

قال « هو في هذا المعسكر . . »

قالت « كيف عدت من هناك ولم تره . . . قل . . افصح »

قال « لان رؤْيتي اياه لا تفيدني ولا تفيدك شيئاً . . »

قالت « وكيف ؟ . . »

قال « لانهُ في حال لا تساعدهُ على سماع كلام احد غير عمهِ اوباس وهو يأْمرهُ ان يستهلك في سبيل رودريك . . . »

فلما سمعت ذلك هبَّ جلدها وتصاعد الدم الى وجهها واقشعر بدنها وصمتت برهة ثم قالت وهي تبتسم استخفافاً بما قالهُ سليمان ووثوقاً بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين « اظنهُ يسمع قولي . . . وما الذي يهمنا من هذا السماع الآن وما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلتهِ . . »

قال « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاي الكونت يوليان

وحياة كل قوطي ينتمي الى غيطشة وكل من لا يرضى ان يعيش ذليلاً بين يدي رودريك ...»

فقالت «وما معنى ذلك ؟»

فبين لها الواقعة باختصار الى ان قال «اعلمي يا مولاتي ان بقاءك وبقاء والدك وبقاء الامير الفونس نفسهِ تتوقف على انتصار العرب وخذلان رودريك . وذلك منوط بارادة الفونس . فاذا غادر معسكر رودريك وانضم الى العرب هو ومن معهُ انخذل رودريك لا محالة وخلصت البلاد من شره . ولكن يظهر انهُ مطيع لعمهِ وهذا يطلب اليهِ ان يناضل مع رودريك فاذا اطاعه كانت العاقبة وبالاً علينا جميعاً والعياذ بالله ..»

فاعظمت فلورندا امر الفونس ولكنها ما زالت ترجو ان ينصاع لقولها فعزمت ان تكتب اليهِ كتاباً شديد اللهجة تستجمع فيهِ كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان «ما كتبت اليهِ كتاباً هل تأخذه اليهِ ..»

قال «نعم يا مولاتي اني رهين هذه الخدمة ..»

قالت «اذا اصبحت تعالَ فأدفع اليك الكتاب فتحمله اليهِ وارجو ان يكون نافذاً بعون الله ..»

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيراً في عريش صاحب الكرم التماساً للراحة فغمضت عيناهُ ولم يستيقظ الاَّ على اصوات الطبول والابواق فنهض وقد اجفل واطل على المعسكرين فرأى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد اخذوا في الاصطفاف للقتال وامامهم الرايات والاعلام وفي وسطهم موكب الملك رودريك بمظلتهِ وسريرهِ وفرسانهِ واعوانهِ . والتفت سليمان الى معسكر العرب فاذا هم في حركة كأنهم يهمون بالدفاع فاسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في نفسهِ «فاتت الفرصة» وقد زاد فشله ما شاهده من الفرق العظيم بين مقدار جند القوط وجند العرب ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمؤونة . فوثب من مكانهِ وثوب النمر واسرع منحدراً نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى الفونس فوصل المعسكر وهو يلهث من التعب فرأى المسلمين واكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضي السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس . وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب وتقلة القسي العربية . واما الفرسان فقد كانت

عليهم الادراع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لايظهر من وجوههم غير الحدق وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات . ولم يصل الى الخيام حتى سمع اصوات التكبير والتهليل ومافيهم الا من قرأ الفاتحة . والتفت سليمان في وجوه الناس فلم يرَ بينهم من يبالي بما سيلاقي في تلك المعركة من خير او شر — واشتغل سليمان بذلك المنظر مدة عن بوليان ثم تذكر ما جاء به فانخرط في صفوف الاجناد وهو يتطلع و يتشوف فلم يجد بوليان فسأل عنه بعض الوقوف فقالوا له انه ركب في اثر طارق يستحثان الجند على الثبات ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانًا قادمين من بعض اطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سحنته و بانت ملامحه

فنظر اليه فاذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند كان سليمان رآه غير مرة وعرف هيبته لكنه لم يرَهُ على مثل ما رآه في تلك الساعة فخيل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس وقد أزاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان تحتهما عينان قد احمر بياضهما من الجهد في الذهاب والاياب . وله شفتان غليظتان ولحيته شعرها شديد السواد الا شعرات قد وخطها الشيب . وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيته وهو لا يبالي بمسحه ولا يلتفت الى شيء او يتفرس في رجل ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالاً كأنهم رجل واحد . وقد امسك عنان جواده بيساره واستل حسامه بيمينه وحسر عنها كمه فبان زنده اسمر شديد السمرة . ولم يكن جواده اقل حماسة منه بل كان يتوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجري وقد ملا العرق صدره ورأسه وتصبب عن خديه حتى اختلط بزبد شدقيه . وكان لونه كلون الليل الحالك

فتهيب سليمان من منظر ذلك البربري الهائل ورأى بجانب طارق فارسًا يختلف عنه لونًا وسحنة و يشبهه حماسة واقدامًا وبسالة ولكنه اصغر منه سنًا واكبر نفسًا فتنحى سليمان جانبًا ريثما يمرُّ طارق ورفاقه لعله يرى بوليان بينهم فيستفرده ويطلب منه الكتاب فاذا بطارق قد وقف وتحوّل بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ورفع يمناه والسيف مشرع في قبضته . فادرك الناس انه يهمُّ بالكلام فاصغوا فاذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه وحث المسلمين على الجهاد وترغيبهم فيه : « أيها الناس أين المفرّ البحر من ورائكم والعدوُّ امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة وانتم

لا وزر لكم الاّ سيوفكم ولا اقوات لكم الاّ ما تستخلصونهُ من ايدي عدوكم . وان امتدّت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرًا ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينتهُ الحصينة وانّ انتهاز الفرصة فيهِ لممكنٌ ان سمحتم لانفسكم بالموت واني لم احذركم امرًا انا عنهُ بنجوة ولاحملنكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس . أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلاً استمتعتم بالارفه الالذ طويلاً . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيهِ بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانًا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارًا واختانًا ثقة منهُ بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظهُ منكم ثواب الله على اعلاء كلمتهِ واظهار دينهِ بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصًا لكم من دونهِ ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليّ انجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليهِ واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتلهُ ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكتُ بعده فقد كفيتكم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليهِ . وان هلكت قبل وصولي اليهِ فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليهِ واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتلهِ فانهم بعده يخذلون »[1]

وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم وشعر سليمان عند سماعهِ ذلك الكلام بما فيهِ من بواعث التحميس . ولكنهُ قلق لضياع الوقت واوغل في الناس يسأل عن بوليان فرآه في جملة الركوب مع طارق فاسرع اليهِ فحالما رآه بوليان استدناه منهُ فجاءه فقال يوليان « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر . . »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة وتحوّل راجعًا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا وعليهِ المعوّل في التغلب على عقل القونس لما سيحويهِ من مثيرات العواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب في يدها فتناولهُ ولم يفهِ بكلمة محافظة على الوقت وهرول لا يلوي على شيء وهو في قيافة وهيأة لا يشك الذي

(١) نفح الطيب ج ١

يراه انهُ من رجال رودريك وكانت الشمس قد تكبدت السماء واطلت على معسكر القوط فانعكست اشعتها عن البيضهم وبنودهم وخوذهم وخصوصًا عن موكب رودريك . فجعل سليمان طريقهُ من وراء الجند والناس عنهُ في شاغل لما هم فيهِ من التاهب فرأى جند القوط قد ترتب على هيأة كراديس مثل نظام جند الروم . وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفًا متراصة[1] . فكان جند رودريك مؤلفًا من ميمنة وميسرة يقود كلاً منهما قائد كبير احدهما الفونس قائد الميسرة . واما القلب فكان قائده رودريك نفسهُ ومعهُ الكونت كوميس وقد جلس رودريك على سرير وفوق رأسهِ رواق من ديباج يظللهُ وهو في غابة من البنود والاعلام وبين يديهِ المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . واما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد حتى خفهِ فانهُ كان من الذهب المرصع[2] . فاعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط وابن قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد . على انهُ رأى في موكب رودريك رجلاً طويلاً واقفًا على دكة مرتفعة عليهِ لباس الكهوت وقد رفع يديهِ نحو السماء وفي احداها صليب مرصع ورفع صوتهُ في الصلاة يتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرفهُ سليمان من طول قامتهِ وقوة عارضتهِ انهُ اوباس . فوقف بالرغم عنهُ فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع اخذ في استحثاث الناس على الصبر والاتحاد وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم . .

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعًا حتى اتى ميسرة الجند وكانت عيناه شائعتين للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب اليهِ . فلم يجده في مصاف الجند فتحول للتفتيش عنهُ في الخيمة . فلما وصل الخيمة رأى ببابها رجلاً في مثل زي الجند لكنهُ لم يكد يتفرس فيهِ حتى عرف انهُ من رجال بوليان . فعلم انهُ هو الذي نقل رسالة بوليان الى الفونس فلما وصل اليهِ كلمهُ بحيث لا يسمعهُ احد . وقال هل هو آتٍ برسالة بوليان قال « نعم وهو في هذه الخيمة يتلوها وعنده خادمة »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي (٢) نفح الطيب ج ١

الفصل السادس والسبعون

مغالبة العواطف

وكان الفونس منذ اتاه كتاب اوباس وهو يغالب عواطفهُ ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى لهُ في ذلك الثبات خيرًا ناهيك بما فيهِ من الخطر على فلورندا وابيها ولما يتصور فلورندا مصابة بسوء يقشعر بدنهُ . وكان منذ قرأ كتابها الى والدها في تلك الغرفة المظلمة وهو يبحث عنها فلم يقف على خبرها ولم يكن يستطيع التدقيق في البحث خوفًا من رودريك ثم سمع بقدوم العرب وإيغالهم في بوتيكة وبوليان رائدهم وكان في عزمهِ ان ينضم اليهم اذا لم يكن انتقامًا من رودريك فاكرامًا لفلورندا . ثم جاءهُ كتاب اوباس فأثر على عقلهِ تأثيرًا عظيماً كأنهُ استهواه بالتنويم المغنطيسي — على ان في بعض الناس قوة يتسلطون بها على آراء مخاطبيهم لا يعبر عنها بغير الاستهواء .. وكان اوباس من اكثر الناس تسلطًا على الآراء. وخصوصًا على ابن اخيهِ الفونس مع ما علمت من ضعفهِ

فاصبح الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب كأنهُ في بحر لا قرار لهُ يشعر من جهة انهُ يجب ان يفعل بمشورة عمهِ ويرى ذلك من الجهة الاخرى مخالفًا لعواطفهِ ومناقضًا لمصلحتهِ — حتى اذا اتاه الامر من رودريك ان يوافيهُ الى شريش زاد تمكنهُ من رأي عمهِ وانشغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لم تبرح من مخيلتهِ ولكن عواطفهُ كانت مقيدة بسلطان عمهِ عليهِ واصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر وقد نسي الابتسام واغفل الاجتهاد وسلم امرهُ الى الاقدار

ولما جاء رودريك بالامس وعسكر هناك سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند[1] وامرهُ ان يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم . فبكر الفونس في الفجر وامر قوادهُ فرتب كل منهم فرقتهُ في موضعها ودخل الفونس خيمتهُ ليلبس درعه وكان يعقوب برافقهُ وعيناه شاخصتان يترقب مجيء سليمان او خبر من عندهِ حتى خاف ضياع الفرصة واذا هو برجل من بين الناس لحظ يعقوب من عينيهِ انهُ يحمل خبرًا سرياً وكان ذاك الرجل

(١) وفي التاريخ انهُ تولى ذلك مع اخوتهِ

يعرف يعقوب فطلب اليهِ مقابلة الفونس فقال «وهل معك كتاب اليهِ وممن ؟» قال «معي رسالة من الكونت بوليان» ومد يده ودفع اليهِ لفافة من جلد فتناولها يعقوب ودخل وحده ولم يكن في الخيمة غير الفونس فلم ينتبه لهُ فأقبل يعقوب حتى دنا منهُ وتنحنح نحنحة تعود الفونس ان يكون وراءها خبرهام . وكان قد خلع قباءه ونزع قبعتهُ واخذ في لبس الدرع فبدأ بالجزء الذي يكسو الصدر والظهر وهمَّ بلبسهِ وقد علقت حواشيهِ باطراف ضفائر شعره على كتفيهِ فاخذ في تخليصها . فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليهِ فاذا هو يحمل بيمناهُ لفافة مختومة وقدجعل يسراه على صدره فتناول الفونس اللفافة وفضها فاستخرج منها رقاً مكتوباً واول ما قرأ فيهِ اسم بوليان خفق قلبهُ واستيقظت عواطفهُ وتصاعد الدم الى وجههِ وبانت البغتة فيهِ وخصوصاً بعد ان أتم تلاوتهُ وكان يعقوب واقفاً امامهُ وقد اسند يديهِ متصالبتين على صدره . فدفع الفونس ذلك الكتاب اليهِ كانهُ يستشيره في امره . فتناول يعقوب الكتاب وقرأه فاذا فيهِ :

«من بوليان كونت سبتة الى الامير الفونس

بسم الآب والابن والروح القدس

لاحاجة بي ايها العزيز الى اطالة الشرح في المصائب التي توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغي فضلاً عما تعلمهُ من تعديهِ على الملك واخراجه من ايدي اهلهِ بقتل والدكم المرحوم . فكرسي الملك لبيت غيطشة وانت ارشدهم جميعاً . ولم يكتف بتعديهِ على الحقوق حتى تجاوزها الى الاعراض فمن كان هذا شأنهُ فكيف يطاع امره — والعرب يا الفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق وهي غالبة على رودريك لا محالة . لان اهل مملكتهِ كلهم عليهِ حتى اقرب اقربائهِ والذي ينصره انما ينصر الظالم والغدر — وانت تعلم اني ضنين بك شفوق عليك لما بيننا من رابطة النسب الصحيح فاذا أطعتني وانضممت الى جند العرب فاني ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك في الاندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة [1] قد سلبكم رودريك اياها ونرجع انت وسائر آل غيطشة الى ما كنتم عليهِ قبل استبداد هذا الطاغية . وانا انما كتبت هذا اليك رفقاً بك وشفقةً عليك والسلام»

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق وشعره لا يزال مسترسلاً على كتفيهِ وقد

(١) نفح الطيب ج ١

علي بعضة بهداب الدرع فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال « ما الرأي يا مولاي ؟ »

قال « الرأي ؟ . . انت ادرى مني بما كتب به الينا عمي الميترو بوليت فهل اعصى عمي واطيع بوليان . . »

فقال يعقوب وهو يحك قفا عنقه « لا اشير عليك بشيء فانك ادرى بالصواب وانا معك الى الممات . ولكنني استغرب ذلك الرأي من اوباس وهو اعلم الناس بما اصابك وأصاب سائر القوط من هذا الطاغية ولولا اعتقادي بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على اني لا احسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه . . . وفي كل حال فالخاطر لك . . »

فقال الفونس « كيف تقول انه ندم وانا لا اجتمع به الا حرضني على الثبات ولا يزال صوت خطابه يرن في آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر في ساحة الحرب واوباس يا يعقوب لا يقول قوله جزافًا ولولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعني اليه . . . »

قال يعقوب « عمك الميترو بوليت يا مولاي حكيم وفيلسوف وواعظ ولاهوتي ولكنه لا يعرف شيئًا من امور السياسة . . ولعلك اذا سمعت مني ذلك نقمت عليّ واستغشيتني فلا ابالي . . ولكن دع ذلك عنك وانظر الى الكونت يوليان فانه والد فلورندا وهو انما ركب هذا المركب الخشن في سبيل الدفاع عن . . . »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول « يكفي يا يعقوب فاني عامل برأي عمي لانه لا يجهل شيئًا نحن نعلمه وهو أدرى مني ومنك بالاسباب التي حملت يوليان على ذلك . . وقد آن لي ان اخرج لقيادة الجند . . . » قال ذلك وعاد الى لبس الدرع فيئس يعقوب منه ولبث واقفًا وهو يحك عثنونه بطرف سبابته فسمع تحنحه سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج فدفع اليه سليمان كتابًا قال له انه من فلورندا . فدخل به على الفونس فتناوله وفضه وحالما وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته وظهرت البغتة في وجهه وارتعشت أنامله حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب ثم امتد الارتعاش الى كل اطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل — اما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

«اكتب اليك على قطعة من ردائي بمداد من دمي . وهو الرداء الذي قابلتك به في حديقة القصر وقد تمزق تلك الليلة بين يدي رودريك دفاعاً عن جوهرة هي لالفونس اكثر مما هي لي . وقد أرسلت اليك مع حامل هذا بعض ما تناثر من شعري في أثناء ذلك الدفاع . — ناهيك بما علق منهُ بنواتئ تلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصري وانا هاربة من ذلك الوحش الكاسر — هذا هو رودريك الذي أراك اليوم تحارب بسيفهِ وتدافع عن عرشهِ لتحفظ لهُ ملكاً اختلسهُ من ابيك وتستبقي لهُ يداً سيمدها ثانية الى خطيبتك — الى فتاة تزعم انك تحبها وقد فاتك انهُ ذاهب بها وبأبيها وسائر اهلك واهلها الى الدمار . وكأني بك لم تعلم بما ارتكبهُ رودريك او عزم على ارتكابهِ — فاعلم انهُ أراد ابتذال عفتي وهتك ستري فهددني وخوفني وأملني ومناني وأراني السعادة في طاعتهِ والشقاء في عصيانهِ ولم يصغ الى بكائي ولم يرق لتضرعي . فعصيتهُ وآثرت الشقاء حباً بالفونس ومحافظة على ودادهِ . ولعل طول البعد انساك عهودك على ضفة نهر التاج يوم مسست شعر رأسك باناملك وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تفِ بقولك — اهذا هو الوفاء . . ؟ كأنك تعهدت بقتلي وقتل والدي وسائر اهلك واهلي . . . وكأنك اقسمت ان تؤيد سلطان هذا الباغي — فاذا علمت ماذكرتهُ لك وتذكرت ماضي عهودك ورأيت البقاء عليها فاترك رودريك وجندهُ وتعال اليَّ فوق هذه الرابية في مستودع الخمر بين المعسكرين او الى والدي في معسكر العرب . واما اذا كنت لاتزال على نصرة ذلك الظالم وكان لحب فلورندا بقيةٌ في قلبك فلا تتركني أموت قبل ان اراك واشكو اليك جفاك واخاطبك واعاتبك والعين على العين واتزود منك نظرة انسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فاستودعك الله الى ان نلتقي بين يدي الديان العظيم ومعنا رودريك يشهد على نفسهِ وعليك والسلام . . »   « فلورندا »

ما قولك في الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب ومشاهدة شعر فلورندا وقد علمت حبهُ لها واستسلامهُ لهواها فانهُ ما فرغ من تلاوتهِ حتى احس كأنهُ استيقظ من رقاد . او هي عواطفهُ تنبهت من غفلتها او انحلت من قيود الاستهواء فاستولى عليهِ سلطان الغرام فانساه او باس وكتابهُ وحكمهُ وآدابهُ . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضي القضاء غالب على كل سلطان يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد ويحير عقول الفلاسفة والحكماء — ظل الفونس بضع دقائق مطرقاً كأنهُ غائب الرشد ولم يبق في مخيلتهِ الا صورة فلورندا بثوبها الارجواني الذي رآها فيهِ المرة الاخيرة وشعرها الذهبي ضمن تلك الشبكة وفي يدهِ

بضعة من كليهما · وتذكر ما دار بينهما من التشاكي والعتاب وما تعهد لها به من أسباب السعادة باخراج الملك من رودريك · وتعاظم خجلهُ واضطرابهُ حتى توهم انهُ يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها — وكان يعقوب واقفًا بين يديهِ فلما رأى اضطرابهُ وتأثرهُ خرج من الخيمة تأدبًا ليخلو الفونس بنفسهِ · فلما خرج لقيهُ سليمان وكان واقفًا هناك على احر من الجمر · فلما رأى يعقوب استفهمهُ بالاشارة فاجابهُ باطباق عينيهِ ان الطبخة قاربت النضج · وفيما هما واقفان رأيا فارسًا مسرعًا نحوهما وفي يدهِ شيء فتقدم يعقوب نحوهُ للسؤال عن غرضهِ فاذا هو من اتباع اوباس فلما تلاقيا تعارفا فسألهُ يعقوب عن غرضهِ فقال انهُ قادم بكتاب من اوباس الى الفونس · فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيهِ ما يفسد تلك الطبخة فعمد الى الاحتيال فقال «ان مولاي الامير بغير ثيابهِ ولا يستطيع احد الدخول عليهِ ..»

قال «اني مأمور بايصال هذا الكتاب اليهِ حالاً ...»

قال «هاتهِ وانا ادخلهُ عليهِ بعد قليل ..»

فدفعهُ اليهِ وانصرف وهو لا يشك انهُ أتم مهمتهُ — اما يعقوب فانهُ تظاهر بدخولهِ الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصهُ :

«لا يخدعك اليهود بدسائسهم فانهم انما يريدون مصالحهم وليست هي في بقاء المملكة للقوط · اثبت في الدفاع عن الوطن كما هو ظني فيك واصغ الى قولي فاني بمنزلة ابيك»

فلما قرأ يعقوب الكتاب اصبح الضياء في عينيهِ ظلامًا وعجب لتيقظ اوباس وانتباههِ · وادرك انهُ اذا لم تنفذ حيلتهُ في تلك الساعة ذهبت مساعيهِ ومساعي سائر اليهود هباء منثورًا · فاستقدم سليمان واطلعهُ على ذلك الكتاب وتفاوضا فأقرَّا على كتمانهِ عن الفونس وان يعجلا العمل قبل ان ينشب القتال · فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسًا على وسادة هناك وهو لا يزال مطرقًا ولم يتمَّ لبس الدرع وشعره لا يزال مسترسلاً على كتفيهِ · فلما دخل يعقوب انتبه الفونس لنفسهِ فوقف وفي خاطره ان يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعهُ فابتدرهُ يعقوب قائلاً «ان الرسول لا يزال واقفًا في انتظار الجواب .. وقد امره صاحب الكتاب ان يعود سريعًا ..»

فخطر لألفونس ان يرى الرسول ويسألهُ شيئًا لعلهُ يتخلص من ذلك التردد فقال «ادخلهُ عليَّ»

فخرج واستقدمهُ فدخل سليمان وسلم متأدبًا فسألهُ الفونس قائلاً «هل رأيت

كاتب هذا الكتاب ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « ومن هو وماذا تعرف عنهُ ... »

فأشار سليمان بعينيهِ نحو يعقوب كأنهُ يخفي امرًا لا يريد التصريح بهِ بحضوره فاشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال « اتسمح لي يا مولاي ان اصرح بما اعلمهُ .. » قال « قل »

قال « اني من اصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفني ان استقدم ابنتهُ فلورندا من دير كانت فيهِ قرب طليطلة فوصلنا بالامس .. »

قال « واين هي الآن ؟ »

قال « هي على مقربة من هذا المعسكر »

قال « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ »

فأطرق سليمان وتظاهر بشيء يمنعهُ الحياء من ذكرهِ فازداد الفونس رغبة في الاطلاع عليهِ فقال « قل كل ما تعرفهُ ولا تخفِ شيئًا .. »

فرفع سليمان نظرهُ الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع في عينيهِ وقال « ماذا اقول يا مولاي ان فلورندا اصبحت في حال يرثى لها من الضعف ولم ارها يومًا واحدًا في اثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت اظنها تفعل ذلك شوقًا الى والدها فجعلتُ امنيها بقرب لقائهِ فلا تزداد الا بكاء . ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها ابت الذهاب اليهِ واخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن اخرى انها مخطوبة لك وسمعتها تقول انها تريد المجيء اليك ولو كنت في ساحة الحرب — لم أرَ في حياتي مثل هذا الحب فانها لم تبالِ بأَ بيها في سبيل لقاك — ولا اخفي على مولاي انني عرفت ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهي التي سلمت هذا الكتاب اليَّ وأوصتني ان اعود اليها بالجواب حالاً وهي تبكي ... » قال ذلك وتساقطت عبراتهُ كانهُ يبكي بكاء صادقًا

فلم يتمالك الفونس عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الابواق في المعسكر فعلم انهم شرعوا في القتال فدق قلبهُ ورأى انهُ لا بدَّ لهُ من القطع في احد الامرين . فتشاغل بلبس درعهِ واصلاح ثيابهِ وقد ترجح لهُ ان يتبع هوى قلبهِ ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكهُ

الفصل السابع والسبعون

الحب غالب

وهو في تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجلٌ بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم فنظر الفونس اليهِ فاذا هو الاب مرتين بلباسهِ الرسمي الملوَّن والموشى وعلى صدره صليب مرصع والغضب بادٍ في وجههِ ولم يكن الفونس يحبهُ ولا يعتبره فلما رآه داخلاً على تلك الصورة تلقاه بالسؤَال قائلاً «كيف تدخل خيمتي قبل ان تنبهني الى ذلك مع خادمي»

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة «اي خادم تعني ... واي متى كان الاب مرتين يستأْذن قبل الدخول... اين الكتاب الذي جاءك من عمك الآن .. ولماذا تخلفت عن القتال وانت قائد ميسرة الجند ..»

فاكبر الفونس استيائهُ على تلك الصورة وكبر عليهِ ان يعتذر عن سبب تخلفهِ او ان يصرح بعدم وصول الكتاب اليهِ فقال «وما شأْنك وحضوري القتال او ما يرد عليَّ من الكتب من عمي او من غيره .. ؟»

فحمي غضب مرتين ولم يعد يعي ما يقولهُ وقال «ان لي فيهِ شأْناً تعلمهُ . واذا كنت لا ترى ذلك من شأْني فلا اظنك تنكره على جلالة الملك .. صاحب هذا الجند وقائده الاكبر ..»

وكان سليمان واقفاً في بعض اطراف الخيمة بحيث تقع عينهُ على عين الفونس وكلما قال مرتين قولاً اشار سليمان بشفتيهِ وحاجبيهِ اشارة الاستخفاف والاستياء واذا ردَّ عليهِ الفونس ابدى سليمان استحسانهُ قولهُ واعجابهُ بحميتهِ وعزة نفسهِ . فازداد الفونس استمساكاً بذلك . فلما عرَّض مرتين بذكر رودريك وسلطانهِ زال حياء الفونس مما كانت نفسهُ تحدثهُ بهِ ولم يكن جوابهُ الاَّ الخروج من الخيمة مسرعاً الى جواده فامتطاه وحوَّل شكيمتهُ نحو ميسرة الجند وهو يقول «سوف ترون من هو صاحب هذا الجند وما هو مصير اهل البغي .. وقد كنت اتردد في الذهاب وحدي فها انا ذاهب مع جندي»

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف وعلا ضجيج الرجال

وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ودبدبة العجلات ومقارعة السيوف . والملك في قلب الجيش وحوله فرسانه واعلامه وبنوده واوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره وامسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبًا مرصعًا وهو يستحث الجند على الثبات والصبر

وكان الفونس لما ركب جواده وقعت عينه على اوباس عن بعد فخاف ان يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى اتى فرقته فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعد فحدثهما ووعدهما خيرًا . وقد علمت انهما كانا بجانبه ويكرهان رودريك فاطاعاه وامر الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه

اما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقي الشكوك لدى رودريك في اخلاصه وصدق نيته . فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس تأخر عن الخروج للحملة ثم رأى اوباس دفع الى بعض حاشيته كتابًا سار به الى خيمة الفونس فظن سوءًا واسرع الى الملك فاراه الرسول راكبًا الى تلك الخيمة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقي هو في الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس فاذا هو كتاب فلوريندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحًا شديدًا وفهم منه مقام فلوريندا ولكنه ما زال يعتقد (او يريد ان يعتقد) ان اوباس كتب اليه بالانضمام الى العرب

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فرأى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب فركض الى رودريك وكان لا يزال على سريره في وسط موكبه فنظر الى مرتين فاذا هو يشير باصبعه الى الفونس ورجاله فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبًا وقال «ما الذي غيرهم ؟ »

قال «غيرهم كتاب حضرة المتروبوليت وقد قلت لك اني لم اكن اطمئن لظواهره .. فأمر بالقبض عليه الآن واسجنه قبل ان يفرّ هو او يحرض باقي الجند على الفرار .. »

فامر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على اوباس حالاً فاسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لانفاذ امر الملك

اما مرتين فلم يشنف غيظهُ بالقبض على اوباس فاراد ان ينتقم من الفونس فاغتنم غضب رودريك ودفع اليهِ كتاب فلورندا فتلاهُ وهو ينتفض من شدة الغيظ لما حواه من الطعن فيهِ والتحريض على اذيتهِ . فلما فرغ من تلاوتهِ اصبحت لحيتهُ ترقص على صدره وانامله ترتجف وصاح في مرتين « اين هو المستودع الذي نقيم فيهِ هذه الفاجرة ؟ »

فاشار مرتين الى المستودع وهو يقول « اظنهُ هذا . . »

فامر رودريك كوكبة من فرسانهِ ان يذهبوا للقبض على من فيهِ ويسوقوهم اليهِ احياء او أمواتًا

الفصل الثامن والسبعون

فلورندا وبدر

اما فلورندا فظلت بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكنانهِ وكان اكثر اهتمامها في الميسرة لعلمها ان الفونس هناك ولا تسل عن اضطرابها وقلقها . فلما رأت الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمأنت وايقنت بالفرج ورقص قلبها طربًا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها ونظرها قصير فاخبرتها بما رأتهُ فشاركتها بالفرح وكان اجيلا وشانتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال فلما رأيا ميسرة القوط انضمت الى العرب اسرعا الى فلورندا فاخبراها ففرحوا جميعًا ووقفوا يتحادثون بما شاهده كل منهم في اثناء المعركة مما لم ينتبه لهُ الآخر

وهم في ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد اسرع ومعهُ بعض غلمانهِ واطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح « اين سليمان التاجر . . فانهُ وعدنا بالحماية »

فاطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون بتكسيرها حتى وصلوا الى المستودع وفي ايديهم السيوف مسلولة فحالما رأتهم فلورندا علمت انهم من رجال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها وصاحت « أجيلا . . . شانتيلا »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان القادمين عليهما وساعدهما على ذلك اولاد الشيخ ونساؤه وعلت ضوضاء النساء والاطفال وفلورندا واقفة في النافذة مع خالتها وهي تقرع صدرها وتصلي الى الله ان ينجيها وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم ان يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى اسفل المستودع فرأت اجيلا وشانتيلا قد وقعا قتيلين بعد ان قتلا بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنًا شديدًا . ولكنها اصبحت في شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله فجثت في وسط المستودع وكشفت صدرها وحلت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول وهي تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شدة البكاء « الهي انت نصير الضعفاء ... الهي انت منقذ المظلومين .. اللهم اشفق على صباي احمني من هؤلاء الظالمين .. اكرامًا لدم ابنك المسفوك على الصليب ... » ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهي لا تبالي بدبدبة الاقدام على السلم الخشبي المؤدي اليها ولم تلتفت الى شيء مما حولها وانما صوبت حواسها وعواطفها وافكارها كلها الى السماء وهي على ثقة تامة ان الله لا يتخلى عنها وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد طلباتها وتؤمن لها

اما الفرسان فانهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من اولاد الشيخ وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة ورئيسهم يتقدمهم وهو من اهل بلاط رودريك وكان قد شاهد فلورندا في طليطلة غير مرة فلما رآها في المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغيير بالاسفار ثم ما كان من تغير حالها في تلك الساعة وهي محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين وقد تورَّدت وجنتاها من اللطم والصفع واحمرت عيناها وتكسرت اهدابها من البكاء . وكان الدمع قد بلل وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها — فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه فتقدم اليها وامسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت اليه فرأت بيده الاخرى سيفًا لا يزال يقطر دمًا وقد تلطخت انامله الاخرى بالدم فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبًا ولكنها تجلدت وقالت « ماذا تريدون ؟ .. »

قالوا « نريد ان نمضي بك ومن معك الى الملك رودريك .. »

فلما سمعت اسمه صاحت « لا ... لا ... لا اذهب اليه .. »

فقال لها الفارس « سيري برضاك والاَّ اخذناك قهرًا ولا اظنك تستطيعين النجاة من ايدينا ونحن جماعة » قال ذلك وصاح في رجاله فقبضوا عليها بيديها وجروها

والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب — حتى نزلوا من المستودع فاركبوها فرساً وأركبوا خالتها فرساً آخر وساقوها وفلورندا لا تزال محاولة الشعر مكشوفة الصدر محمرة الوجه دامعة الطرف وهي تستغيث بالله وتستنصر على القوم الظالمين والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الاكمة وانتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك في موكبه وقد حمي وطيس الحرب والتحم الجندان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط . والمسلمون يعرفون بعمائمهم البيض . وقد تضعضع القوط حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودَّت لو ان نبلاً من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرأت فارساً من جند المسلمين يجول في المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح ولولا عمامته ولباسه العربي لظننته قوطياً . وقد شد عمامته على رأسه شدًّا وثيقاً واستل سيفه واخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عينه على عينها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ولكنه فهم مرادها من اشاراتها وملامحها ووقعت من نفسه موقعاً عظيماً من اول نظرة . واسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح « ابشري يا مليحة اتاك بدر . لا تخافي . . »

وجاء في اثره بضعة من فرسان البرابرة يتلون آية التوحيد وفي ايديهم السيوف فلم يستطع فرسان رودريك الثبات امامهم طويلاً فلما خافوا اختناق مسعاهم اسرع احدهم الى الملك يستنجده فلم يتمالك رودريك ان جاء بنفسه وقد تحول عن سريره الى جوادٍ مثقل بالزخارف وفيها الجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبائه حتى نعاله [1] وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة والجواد من أجمل الخيول شكلاً وقواماً ولكن جواد بدر يفضله خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى اوشكت ان تنجو واذا برودريك أقبل باثقاله فلما وقعت عينها على عينه صاحت هي وخالتها بصوت واحد — ناهيك بصوت يرجو به صاحبه النجاة من الموت والعار معاً — « هذا هو طاغية القوط . . »

فتحول بدر اليه فعرفه من قيافته انه الملك وتبارزا وكان بدر أنشط بدناً واخف

(١) نفح الطيب ج ١

مركبًا فتجاولا وتصاولا وكان رودريك من القواد المعروفين . وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تراعي كل حركة من حركاتهما وقد حبست انفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها او مماتها . فاذا هجم رودريك شاركت بدرًا بتلقي ضربته وربما رفعت يدها لتتلقاها واذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معهُ وهي بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة — ثم ما لبثت ان رأت رودريك يستمهل بدرًا بالاشارة وكان بدر يود ان يقبض عليهِ و يسوقهُ الى طارق اسيرًا لينال بأسره فخرًا . فلما رآه يستمهلهُ اجابهُ بالاشارة ايضًا ان يمضي معه الى معسكر المسلمين . فاجابهُ انه سيفعل ذلك بعدئذ . ففهم بدر انهُ ينوي قضاء حاجة قبل التسليم فاطاعهُ على غير حذر وقد يكون استمهالهُ خدعة يرجو الفرار بها ولكن بدرًا كان مستخفاً بالرجل ومعتدًّا بنفسهِ . فحوّل رودريك شكيمة جواده نحو خيامهِ فالتفت بدر الى رفاقهِ وكلمهم بالبربرية ان « خذوا هذه الفتاة الى خيمتي . . » واقتفى اثر رودريك

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فارًّا اركنوا الى الفرار . اما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول في معسكره كأنهُ يفتش عن ضائع وبدر يتبعهُ ويعجب من مسيره على تلك الصورة حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسًا وهمَّ بالفرار فصاح رودريك فيه « مرتين !! » فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيف كان مسلولاً بيده وهو يقول « كلُّ هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك . . » فاصابت الضربة عنقه فوقع مضرجًا بدمهِ فتركه صريعًا وساق جواده نحو الوادي وبدر يتبعهُ حتى وصل ضفة النهر واظهر انهُ لم يعد يقوى على رد جماح جواده فارسلهُ في الماء فغرقا معًا — ويقال انهُ فعل ذلك عمدًا وفضل الموت غرقًا على ان يقتلهُ احد من اعدائهِ [1]

فرجع بدر وهو يصيح « قتل الطاغية . . . قتل الطاغية »

فازداد المسلمون جرأة واوغلوا في معسكر اعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الاصيل حتى خلا المعسكر من القوط الاَّ من وقع قتيلاً او أُخذ اسيرًا واستولى المسلمون على ما فيهِ من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك

(١) لم يتحقق المؤرخون كيف قتل رودريك ومن ارائهم انه غرق في ذلك الماء

وكان طارق بن زياد في اثناء المعركة يجول على جواده يحرض المسلمين على الثبات ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالي بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط. وهو لم يكن يعلم بما كتبهُ يوليان الى الفونس. ولكنهُ صمم على الاستهلاك في سبيل الفتح كما رأيت من خطابهِ الذي ذكرناه. على انهُ كان قد صمم على الاستهلاك في هذا السبيل منذ وطئ الاندلس فاحرق سفائنهُ أياسًا لهُ ولرجالهِ من التعلق بها او الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط. ولذلك لم يكن يبالي بكثرة عدوّه او قلتهِ وانما كان همهُ وهمّ من معهُ الصبر والثبات — فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليهِ شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح وحرض المسلمين على الثبات حتى قضي على القوط بالفرار كما رأيت وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم

الفصل التاسع والسبعون

التوبيخ

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم امر طارق بحمل الغنائم والسبايا والاسرى الى ما بين يديه على جاري العادة بعد كل قتال. فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف واكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع. وجاءوا بالاسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح فتجمع من ذلك شيء كثير حتى اصبحت الاسلاب ركامًا امام الفسطاط والاسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض باعناقهم او ايديهم او ارجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانًا

واجتمع قواد الجند امام فسطاط طارق على بساط كبير افترشوه هناك وهو من جملة الغنائم. فجلس طارق في صدر المكان والى يمينهِ الكونت يوليان والى يساره الامير الفونس وبين يديهِ كبار القواد وفي جملتهم بدر — وكان الفونس قد لقي يوليان ساعة انضمامهِ الى جند العرب وتحادثا مليًّا في شأن المملكة وما كان من امر اوباس وذكرا فلورندا وانها مقيمة في المستودع حتى يرسلوا في طلبها وصمما على ان يستقدماها في صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والاسلاب. وكان الفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس في الاسرى

لعله يرى اوباس بينهم وهو لا يتوقع ان يراه اسيرًا لعلمه انه يفضل الموت على الاسر

فلما تكامل اجتماع القواد وكل طارق الى كبير منهم ان يخمس الغنائم حسب العادة فيختص بيت المال بخمسها ويقسم الباقي بين القبائل على مقتضى تعدادها . وكان يقول ذلك وامارات الاعتزاز والافتخار بادية في وجهه والفونس وبوليان يتساءلان في امر اوباس هل قتل او فرّ او اسر وكلاهما يستبعد وقوعه في الاسر . واذا هم بجماعة من جند العرب يسوقون رجلاً طويلاً شعرهُ مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم احدهم وهو يقول لطارق « وجدنا هذا الاسير مغلولاً في مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »

فقال « اليَّ به . . »

فاقبل اوباس وهو لا يزال كما كان في اثناء القتال محلول الشعر وفي صدره صليب وبيده صليب . فلما وقع نظر الفونس عليه لم يتمالك ان نهض حتى وصل اليه فجثا امامه واكب على يديه وجعل يقبلها ودموعه تتساقط بلا بكاء . وفعل نحو ذلك بوليان وقد امتزجت في وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من الخيانة وتغلب على ذلك كله انقباض النفس من السويداء . فانحنى على يد اوباس فقبلها وامسك به ودعاه للجلوس في صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت انظارهم الى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالاً باسترسال ذلك الشعر

اما اوباس فانه كان ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما دعاه بوليان للجلوس امسك عن مجاراته وظل واقفًا في مكانه يتفرس في وجوه الناس . ولو استطاع الفونس التفرس في عيني اوباس لرآهما تتلألآن ولم يخطر بباله انهما تتلألآن بالدمع لاعتقاده ان الطبيعة لا تستطيع قهره — وهي لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه واخضعها لعقله فانه لا يرى في حوادث الطبيعة ما يدعو الى الحزن او الى الفرح والحياة بجملتها نسمة من نسمات الوجود فما قولك باعراضها . ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح — فلا تلومنَّ اوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من اسبابها بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك حتى اذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه ادراج الرياح وجوزي جزاء سنمار — على ان اسفه ما لبث ان تحول الى الاعتبار فلما دعاه بوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهوري فيه خشونة من عظم التأثر « تدعوني يابوليان للجلوس في مكان تحسبه بيتك وانت قد خسرت

هذا البيت في هذا اليوم — بعته يا بوليان بارخص الاثمان وانت تزعم انك فعلت ذلك انتقاماً من رجل سافة ضعفة الى مس كرامتك فسقت نفسك واهلك وسائر رجال القوط والاسبان الى ضياع انفسهم واموالهم واعراضهم — حتى ابنتك التي ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها فقد ذهبت سبية في يد رجل لا هو من دينك ولا امتك ولا لغتك ٠٠٠٠»

وكان اوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب مع انهم لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هالهم صوتة ومنظره٠ اما يوليان فانه كاد يذوب خجلاً فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه واجفل وكذلك الفونس ولم يتمالكا ان قالا بصوت واحد «اين هي ؟٠» ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لانه لا يقول عبثاً ٠ فلما سألاه عنها وجه خطابه الى الفونس وقال «ضاعت خطيبتك منك وما أنت أهلٌ لها وقد ارتكبت مالم يرتكبه رودريك — لانك خنت بلدك واهلك واضعتهم جميعاً — فاذا كنت فعلت ذلك عقاباً لرجل أراد ان يمس عرضك فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه انت وقد جعلت اعراض القوط واموالهم وارواحهم معرضاً للسلب والقتل ؟ احكم لنفسك ٠٠»

فلم يكن جواب الفونس غير البكاء ٠ واما يوليان فانه احسَّ بتبكيت الضمير وخصوصاً لما سمع بضياع ابنته واراد ان يستفهم عنها فتهيب وظل مطرقاً

وكان طارق وبدر يسمعان كلام اوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله ٠ فالتفت طارق الى ما حوله يبحث عمن يترجم له اقواله ٠ فرأى سليمان التاجر فادرك سليمان غرض طارق قبل ان يسأله فتقدم وفسر له كلام اوباس وهو يتوقع ان يستاء منه ٠ فاذا هو قد زاد اعجاباً وخاطب اوباس بواسطة سليمان قائلاً «بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل ٠ اني لأعجب من فشل جند القوط وفيهم رجلٌ حكيم مثلك ٠٠٠ مع كثرتهم واستعدادهم ٠٠»

فقال اوباس «لا تعجب يا ولدي ان للدول آجالاً كما للناس فاذا جاء اجلها خابت الحيل في استبقائها ٠٠ على اني كنت احسب اجل هذه الدولة اطول من ذلك فعجله ضعف راي الملك وفساد نيات اهل شوراه ٠ وهكذا اراد الله ٠٠»

قال طارق «فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسؤك خروج هذه الدولة من ايدي القوط فان دخولها في حوزة المسلمين من اسباب سعادتها لان اهلها يعيشون في ظلنا ندفع عنهم الاعداء ونضمن لهم الأمن ولا نكلفهم على ذلك الاَّ جعلاً قليلاً هو الجزية فاذا

أدوها بات كل منهم آمنًا على عرضهِ وروحهِ ومالهِ ...» قال ذلك وأمسك بيد اوباس ومشى بهِ وهو يقول «هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم»

فمشى اوباس ويوليان والفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة فقعد طارق في صدرها وأقعد اوباس الى يمينه ويوليان والفونس الى يساره وقعد بدر في جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابسًا الثوب الذي حارب بهِ وعليهِ السيف والدرع . ولم يصدق يوليان انهم استقروا هناك وذهب تهيبهُ من اوباس فعاد الى الاستفهام عن فلورندا فقال «سمعتك يا مولاي تقول ان فلورندا ذهبت سبية فهل تعني ذلك حقيقة ؟»

قال «ومتى كان اوباس يتكلم جزافًا ؟»

فزاد اهتمام يوليان واستغرابهُ وأراد الاستيضاح فسبقهُ الفونس وقال «وكيف ذلك؟ ومن سباها ؟ .»

فقال اوباس «لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيتها وانا مسجون في الخيمة — رأيتها من شق في تلك الخيمة وهي محاولة الشعر تستنجد طيور السماء ودبابات الارض لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليهِ . فجاءها فارس عربي اكنهُ غير بربري عليهِ عمامة بيضاء فانقذها وذهب رودريك لاأدري الى اين ولكنهُ أمر رجالهُ ان يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر ... وبالطبع انها سبية وهي ملكٌ للذي سباها ...»

فقال يوليان «هل تعرف ذلك الرجل اذا رايتهُ .. ؟ يظهر انهُ اخذها اليهِ واخفاها عن الامير طارق لاني لم ارها بين السبايا ..»

قال اوباس «اظنني اعرفهُ على انهُ يمتاز عن كل هذا الجند ببياض لونهِ وشقرة شعرهِ»

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكرهُ الى بدر فالتفت اليهِ وكان جالسًا على عدة خطوات من يوليان يسمع كلامهُ ولا يفهمهُ لانهُ لا يعرف القوطية . على انهُ لو فهم ان سبيتهُ ابنة يوليان لم يبال لانهُ ما زال حاقدًا عليهِ منذ أحرمهُ بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم فحص شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليهِ من السوداء منذ بضعة عشر عامًا لمصيبة المت به فاذهبت صبرهُ على مرارة الحياة واصبح ضيق الخلق قصير البال . فكان رفقاؤُهُ لا يسرُّون بمعاشرتهِ وخصوصًا بدر لما بينهما من البون في السن . فلما نظر يوليان اليهِ كان هو يتلاهى ببند سيفهِ يلاعبهُ بين انامله وفكرهُ عند

فلورندا لانهُ كان قد فتن اجمالها . فلما رآه يوليان منشغلاً عنهُ التفت الى طارق وافهمهُ خلاصة حديثهِ مع او باس وانهُ يظن بدرًا هو الذي سباها وطلب اليهِ ان يستخرجها منهُ . فالتفت طارق الى بدر وناداه « بدر ! . »

وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده فلما سمع طارقًا يناديهِ اجابهُ وهو لا يزال جالسًا « نعم »

وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبهُ ويدللهُ ويعاملهُ معاملة الاب لابنهِ او الاخ الاكبر لاخيهِ . فلما رآهُ اجابهُ بلا اكتراث ابتسم لهُ وقال « أراك لا تزال جالسًا أظنك لم تسمع ندائي . . »

فقال « سمعت واجبتك » وهو لا يلاعب بند سيفهِ

فقال طارق « قم اليَّ لاسأَلك سؤَالاً . . . »

فوقف وقال « وما سؤَالك ؟ اسأَل كل ما تريد واطلب ما شئتهُ الاَّ سبيتي فانها لي ولا حاجة الى كثرة الكلام . . . » قال ذلك وهو يصلح عمامتهُ كانهُ يستعد للنزال

فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال « لا أدري ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك في شيء بعد . . ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقولهُ ؟ . »

قال بدر « قل فاني سامع »

قال « احك لنا كيف عثرت على هذه السبية . . »

الفصل الثمانون

الخصام

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف انهُ قتل الاب مرتين ثم غرق هو في النهر . وكان الفونس واو باس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لها . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال او باس في نفسهِ « لم يكن يليق قتلهُ بغير تلك اليد » فلما فرغ بدر من حكايتهِ قال لهُ طارق « لاشكَّ انك استأثرت بهذه السبية وانت لا تعلم انها ابنة الكونت يوليان . »

قال « نعم اني لم اكن اعلم ذلك ولكن علمي لا يغير شيئًا من عزمي . . . » قال ذلك

وتحوّل يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بغنة الجد وقال له «كيف لا يتغير عزمك والكونت بوليان هو الذي اكسبنا هذا النصر ولولاه لم ندخل هذه البلاد.. ؟ أيليق بنا ان نسبي ابنته ووحيدته ؟ فارجعها اليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها ..»

فقال «لا أُريد شيئًا غير هذه .. وهي غنيمتي في الحرب وهو الذي منعني بالامس من غنيمتي الاولى لانها لم تؤخذ في أثناء القتال . وهذه ؟ ... ألم اغتنمها في ساحة الوغى ؟ .. ألم احارب ملك القوط من أجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببًا في فشل جنده .. أتستكثرون عليَّ فتاة سبيتها وقد تركت لكم نصيبي من سائر الغنيمة ؟ ..»

فقال طارق وهو لا يزال يرجو اقناعه «اذا كنت تفعل ذلك نكاية في الكونت بوليان للانتقام منه فانتقم من غير هذا السبيل .. وانت تعلم يا أخي ان عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل —ما ذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت في هذا الفتح ثم قيل لهم اننا أخذنا ابنته سبية .. ؟ فارجع الى ما هو اجدر بك من كرم الخلق — افعل ذلك اكرامًا لي وعملاً بحقوق الاخوة ... »

وكان بدر شهماً لا يرضى ارتكاب هذا العار ولكنه احب الفتاة منذ رآها وزاد تعلقًا بها لانه تعب في انقاذها — والمرء اذا تعب في سلامة شيء أحبه — فشق عليه التخلي عنها ... فاطرق هنيهة ثم رفع راسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال «صدقت ايها الامير ان اتخاذ هذه الفتاة سبية يعدُّ غدرًا وخيانة ولكنني احببتها ولا يمكنني التنازل عنها فليزوجني الكونت اياها بشرع الله .. فهل له بعد ذلك عذرٌ ؟ ..»

فالتفت طارق الى بوليان كأنه يستطلع رأيه فقال بوليان «ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها» واشار الى الفونس

فقال بدر «لا يهمني .. فان الخطبة يسهل حلها»

فحمي غضب بوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال «لقد أطلت الكلام بلا طائل .. ان ابنتي مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها والسلام .. »

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال «انها سبيتي في ساحة الوغى اخذتها بحدّ هذا السيف فلا اتخلى عنها لاحد ولو كان أمير المؤمنين الاّ ان ياخذها مني بالسيف كما اخذتها ..»

وكان سليمان يترجم لالفونس واوباس كل ما يدور من الجدال فلما بلغ الى طلب

المبارزة وقف الفونس ويده على قبضة سيفه وقال « انا اولى الناس بمنازلة هذا الشاب وكلانا طالب فأيّنا غلب فهي له ... »

فوقف بوليان وامسك الفونس وهو يقول « بل انا اولى بذلك منك فاذا قتلتُ هذا الغلام فقد أنلتهُ الجزاء الذي يستحقهُ وان قتلني فموتي خيرٌ من وقوعي في مصيبة ثانية شرٌ من مصيبتي الاولى ولا طاقة لي على احتمال الاثنتين معًا .. » قال ذلك وتقدم ويدهُ على قبضة حسامهِ فسبقهُ بدر واستلّ الحسام فناداه طارق فلم يصغ ونادى اوباس بوليان فلم يطعهُ لانهما خرجا عن طور التعقل لشدة الغضب واقسم كل منهما انهُ لا يرجع حتى يقتل رفيقهُ او يقتل هو . فعلا الضجيج في الخيمة ويعقوب وسليمان في ناحية منها يتسارّان

وبدأ بدر فاطلق حسامهُ على بوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتلهُ لا محالة ولكن السيف غاص في العمود ووقف فيهِ وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود فاغتنم بوليان انشغالهُ بذلك وانقض عليهِ انقضاض الصاعقة فخاف طارق على بدر فصاح في بوليان فلم يصغ لهُ وفعل ذلك ايضًا اوباس وبوليان لا يبالي . فوثب طارق للتنصل بينهما بالقوة فرأى سليمان التاجر قد سبقهُ وتوسط بينهما وامسك زند بوليان وهو يقول « تمهل يا كونت بحياة طوماس .. »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى بوليان السيف من يدهِ واستلقى على الارض واخذ في البكاء فبغت الجميع حتى بدر والتفتوا الى سليمان كانهم يستفهمون عن السبب فاشار اليهم ان يصبروا فوقفوا جميعًا وتقدم سليمان الى بوليان وامسكهُ بيدهِ وجعل يخفف عنهُ وهو مستغرق في البكاء . ثم التفت الى سليمان وقال « لماذا اذكرتني بهذه المصيبة يا سليمان ... » فقال « وهل كنت ناسيًا اياها .. »

قال « كلاّ ولكنني لم اسمع هذا اللفظ منذ اعوام ولو لم تحلفني بهِ لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت من وقاحتهِ .. »

فقال « لو عرفتهُ ما تمنيت التخلص منهُ .. »

قال « وما يهمني من معرفتهِ ? يكفي للدلالة على اصلهِ ما ظهر الآن من وقاحتهِ وحماقتهِ .. »

قال « لا تبالغ في شتمهِ وانظر الى وجههِ وتفرس فيهِ فانك تذكر بهِ حبيبًا تحبهُ وتتوهم انك فقدتهُ وهو حيٌّ بين يديك .. »

الفصل الحادي والثمانون

كشف السر

فلم يفهم بوليان مغزى تلك الاشارة وكان قد جلس وتحوّل غضبهُ الى حزن ولا يزال اوباس وطارق والفونس وافنين وقد علتهم البغتة مما شاهدوهُ وهم ينتظرون ما يقولهُ سليمان — فلما سمع بوليان اشارتهُ تنبه وتفرس في سليمان ليرى هل هو يقول الجد او الهزل فرأى الجد باديًا في كل جارحة من جوارحه وقبل ان يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحضور واشار اليهم ان يتمدوا ليسمعوا حديثًا يريد ان يقصهُ عليهم فقعدوا الاَّ بدرًا فانهُ اغتنم انشغالهم وخرج لاستبدال سيفهِ استعدادًا لمنازلة بوليان ثانية — اما سليمان فقعد وقال « اسمعوا فاقص عليكم سرًّا حفظتهُ منذ اعوام وفيهِ موعظة وحكمة » واخذ يقص حكايتهُ بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال ووجه خطابهُ اولاً الى اوباس :

« لا يخفى على مولاي الميترو بوليت ما قاساه اليهود في اسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى اجبروهم أخيرًا على النصرانية او يرحلوا من بلادهم[1] فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد يسعى في افساد امرها على الحكومة . ولا أُخفي عليكم اني احد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت بوليان اعوامًا وهو يحسبني نصرانياً والحقيقة اني لا ازال على دين آبائي واجدادي . واظن مولاي المترو بوليت يعلم ان يعقوب (واشار اليهِ) حبرٌ من احبار اليهود وغنيٌّ من كبار اغنيائهم قد تظاهر بالنصرانية وادخل نفسهُ في خدمة البلاط الملوكي من ايام غيطشة المرحوم وسعى لديهِ في رفع الضغط عن اليهود وكاد ينجح لولم يحل دون ذلك اجل غيطشة . فلما تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليهِ ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الاموال في مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم اركانها — ولم نكن ندخر وسعًا في معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتية او القواد او غيرهم . ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهارًا فكنا نفعلهُ سرًّا — وصلنا الى جوهر القصة — وانبع لي بعد تظاهري بالنصرانية

(١) دوزي ج ١

الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاماً وتقربت من حضرة الكونت و بذلت مافي وسعي لاكتساب ثقته ففزت بذلك وصرت اتردد الى منزله كواحد من اهله . وكان له ولدان احدهما انثى وهي فلورندا والثاني ذكر كان اسمه طوماس . واتفق في اثناء ذلك ان الحكومة جددت الاضطهاد على اليهود واتتنا التعليمات السرية ان ننتقم لهم باي وسيلة كانت فتهيأ لي ان احرم الكونت اعز ولديه وهو الصبي ولم تسمح نفسي بقتله فاحتلت في سرقته وحمله معي في اثناء اسفاري الى بعض قبائل البربر و بعته لاحد كهنتهم الوثنيين (ماربوط) بيعاً رخيصاً ولم اقل له من اين اتيت به فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الامير طارق فرباهُ مع اولاده . فشبَّ الغلام لا يعرف والده ولا احد يعرفه سواي وسموه بدراً لبياضه وهو هذا الشاب الذي كان بين يديكم — و بما ان الكونت بوليان قد انقلب على حكومة القوط الآن ونصر اعداءهم حتى اصبح من انصارنا فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر . . . »

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون باعناقهم وخصوصاً بوليان فقد حسب نفسه في حلم وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر في جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس قد غابت واظلمت الخيمة واحسَّ طارق من تلك الساعة كأن غشاوة ازيحت عن عينيه اذ عرف اصل هذا الغلام والتفت ونادى « بدر » فلم يجبه احد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدل سيفه

فلما رآه بوليان وثب وهو لا يدري ماذا يقول ونادى « طوماس طوماس » وهرع نحوهُ . فلما رآه بدر مسرعاً اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهمُّ ان يضربه او يتلقى ضربة به . فوقف سليمان وقال « تعالَ يا بدر وقبل يد الكونت وهو يقبلك فانه ابوك . . . »

فبغت بدر واتخذ الكلام هزوءًا حتى تقدم اليه طارق وقال له « نحمد الله انك وجدت اباك وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه . . »

فنظر بدر الى طارق وهو يقول « الكونت بوليان ابي وفلورندا اختي ؟ من اين انت هذه القرابة ؟ »

وكان بوليان في اثناء ذلك واقفاً امام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ثم جاؤا بمصباح تناوله بوليان بيده وجعل يتفرس ببدر و يتامل ملامحه ومعاني وجهه فتذكر بعد قليل ان لتلك الصورة شبهاً في ذهنه فثار الحنو في قلبه فاكب على بدر وضمه الى

صدره وجعل يقبله ويتشق ريحه ويبكي بكاء الفرح والناس وقوف وما فيهم الاّ من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب · ولم يتحقق بدر انه في يقظة الاّ بعد قليل فقبل يد والده ووقف كانه أُصيب بالجمود

مضت دقائق قليلة واهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده والفضل في ذلك لسليمان ثم التفت اوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف الراس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق « يأمر الامير طارق حفظه الله ان تاتي ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف ·· »

فقال طارق « واين هي فلورندا يا بدر ؟ ·· »

قال « هي في خيمتي » فأمر سليمان ان ياتي بها

وكانت فلورندا بعد ان جاءت تلك الخيمة قد اصلحت من نفسها وهي تتوقع ان يأخذوها الى ابيها فلما ابطأوا طلبت من الخفر ذلك فلم يفهموا مرادها على انهم افهموها بالاشارات انها لن تبرح تلك الخيمة فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت « اين والدي ؟ ·· اين الفونس ؟ · »

فضحك وقال « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وستريته قريباً واما الفونس فلا ارب لك فيه بعد الآن لان الفارس العربي الذي انقذك من يدي رودريك لم يقبل الاّ ان تكوني له عروساً ··· »

فبغتت وقالت « وهل قبل والدي بذلك ؟ »

قال « وماذا يفعل ··· »

قالت « والفونس كيف فعل ·· ؟ لا اقبل باحد غيره الاّ ··· يظهر يا سليمان انك تمزح ·· »

قال « تعالي وانظري مجلس ذلك الشاب من ابيك ·· »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى اقبلوا على خيمة طارق فدخل سليمان واشار اليهم ان لا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها فسبقها سليمان الى بدر واخذه بيده وجاء به اليها وقال لها « قبل فلورندا يا بدر ·· »

فأجفلت هي وتراجعت فصاح بها ابوها « قبليه يا فلورندا ·· »

فلما سمعت ذلك تحققت ان اباها اراده لها زوجاً فحولت وجهها عنه واخذت في البكاء وهي تقول « ·· لا ·· لا حاجة لي بذلك ·· »

فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبلها ثم ضم بدرًا بيساره وقبله وقال « قبليه يا فلورندا انه اخوك طوماس الذي فقدناه منذ بضعة عشر عامًا . . »

وكانت فلورندا تسمع وهي طفلة انه كان لها اخ وضاع وقطعوا الامل من حياته فلما قال لها ابوها ذلك تفرست في بدر وهي لا تعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله حتى نهض اوباس ونادى « فلورندا » فاجفلت لانها لم تكن تتوقع ان تسمع صوته هناك والتفتت فلما راته هرولت اليه واكبت على يده فقبلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهي لا تعلم ماذا تقول

اما هو فباركها وقال « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود اخيك بعد ان قطع الامل من لقائه ونحمده على التفائك بالفونس ونجاتك من الشراك . . »

فتصدى الفونس وقال « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك . . . فانك بركتنا ونعمة من الله لنا . . . » واختنق صوته

فتنهد اوباس وقال « ياليتني استطعت ما اتمناه . . . ولكنني لو استطعته ما التقى بدر بابيه واخته ولا التقيت انت بخطيبتك . . . المرء يسعى في سبيل والله يدبر من سبل أخرى . . هذه ارادة المولى فما علينا الاَّ ان نشكر الله على ما وقع »

وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وتنشقت رائحته حتى تضايق هو وسلمت على يوليان والفونس ثم تناولت يد اوباس فقبلتها وقالت له « بقي علينا امر لا يتم سرورنا الاَّ به . . ولا يقدر عليه سواك . . »

قال « اظنك تعنين زفاف فلورندا الى الفونس وهذا واجب عليَّ لاني واضع عربون الخطبة فامهليني الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض

ثم وقف طارق وقال « يسرني ان يتم لكم هذا الاجتماع في يوم نصرنا الله فيه وانتم منذ الآن في ذمتي فتقيمون حيثما تشاؤون آمنين مطمئنين مكرمين انتم ومن يلوذ بكم . . »

وقضوا برهة يتحادثون في شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عيني الفونس ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفي . حتى اذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان « هلم بنا ننصرف الى مراقدنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء في أثناء النهار . . »

قال ذلك وخرج فتبعه اوباس والفونس وفلورندا و بدر ودلّ يوليان كلاًّ على مكان ينام فيه . وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فظنه ذهب للمنام في بعض الخيم

الفصل الثاني والثمانون

تمام الفتح

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا رقاداً لفرط تأثرهم من ذلك الملتقى الغريب ولما اصبحوا احب اوباس ان يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب فمشى ورافقه يوليان وبدر والفونس فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك وعرفوا من القتلى جماعة من القواد في جملتهم كوميس فاسفوا عليه اسفاً شديداً . ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الاب مرتين مجندلاً فلم يشأ اوباس ان يتفرس فيه . ولما عادوا من ذلك الطواف طلب اوباس من طارق ان يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها

فاجابه الى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى اوباس واخبرته بمقتل اجيلا وشانتيلا وطلبت اليه ان يصلي عليهما ويدفنهما فاجابها الى ما طلبت وقد اسف لمقتلهما فدفنهما ودفن معهما من قتل من اولاد الشيخ صاحب الكرم ولما اخبرته بما كان من دفاع الشيخ واولاده عنها اوصى طارقاً به وباهله خيراً

ولما غربت الشمس تهيأ الفونس لعقد اكليله على فلورندا في خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على ابسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سروراً على ذلك اللقاء ووجوههم تبتسم الاّ اوباس فانه مازال ساكناً كعادته لم يتغلب عليه فرح ولاحزن . وبعد تمام الاكليل سألهم اوباس عن المكان الذي يفضلون الاقامة فيه فقالوا « حيثما تريد انت »

فقال « أما انا فاتركوني وشأني .. »

فقالوا « كيف نتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا .. »

قال « لو كنت كذلك لنفعتكم ... اتركوني اقضي بقية هذه الحياة بالعبادة والصلاة والانقطاع عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفاني .. وهل اتوقع أن أرى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد اسفي ويضاعف حزني وانا لا استطيع العمل بما يدعوني اليه ضميري ويستحثني عليه الواجب ؟ فالاولى بي ان اقضي بقية هذه الحياة في مكان لا أرى فيه بشراً ... ولا يراجعني احد منكم في ذلك .. »

فلم يستطع احد ان يراجعهُ الاَّ رجلاً تصدى لهُ من جملة الحضور وقال « وانا اين اذهب ؟ »

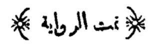
فتوهم الفونس انهُ يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافتهِ . اما اوباس فعرفهُ فقال « هذا يعقوب قد وفى نذره واصلح لحيتهُ واغتسل »

فتذكر الفونس شيئًا من ذلك منذ اجتمع بعمهِ في طليطلة فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهندام وقد اصلح لحيتهُ وتزيا بزي حاخامي اليهود تمامًا فقال لهُ « وما ذلك يا يعقوب ؟ »

قال « قد آن لي وفاء النذر والتحرر من ربقة الذل اذ اصبح الناس بعد هذا الفتح احرارًا يتبع كل رجل دينهُ . وانا من امم الله يهوديٌ جنسًا ودينًا فاحب الرجوع الى مذهبي فاصلي في كنيستي واقرأ في كتابي . . »

وباتوا تلك الليلة فلما اصبحوا لم يجدوا اوباس في خيمتهِ ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليهِ من ذلك الحين . فعلموا انهُ ذهب للتنسك كما قال

واما الفونس و يوليان فظلوا عونًا لطارق وجندهِ حتى اتمَّ فتح الاندلس . وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة الاَّ في استجة فانهم ساروا اليها توًّا بعد واقعة شريش وحاربوها حربًا شديدة . فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس وهربوا الى طليطله فاشار يوليان على طارق ان يفرق جيوشهُ في مدائن الاندلس لان الناس اخلوها وساروا الى العاصمة فبعث جيشًا الى قرطبة وجيشًا الى غرناطة وجيشًا الى مالقه وجيشًا الى تدمير وسار هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدها خالية لان اهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل — اما الجيش الذي سار الى قرطبة فانهم دلهم راعٍ على ثغرة فدخلوا منها البلد وملكوهُ . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن — اما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالاً من اصحابهِ وسار لاتمام الفتح كما هو مفصلٌ في كتب التاريخ[1]


تمت الرواية

(١) ابن الاثير ج ٤ ونفح الطيب ج ١

روايات أخرى تاريخية اسلامية وغيرها

تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب

(١) * فتاة غسان * (طبعة ثانية) هي الحلقة الاولى من روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة قروش والبوسطة قرش ونصف

(٢) * ارمانوسة المصرية * (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد أهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٣) * عذراء قريش * هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان ووقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٤) * ١٧ رمضان * او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة ستون باره

(٥) * غادة كربلاء * تاريخية غرامية . وهي الحلقة الخامسة من الروايات التاريخية الاسلامية . تشرح حال الاسلام على عهد يزيد بن معاوية وما كان من مقتل الامام الحسين وما عقب ذلك من الحروب والفتن ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٦) * الحجاج بن يوسف * هي الحلقة السادسة من هذه الروايات وهي تاريخية غرامية تتضمن حصار مكة على عهد عبدالله بن الزبير الى فتحها ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ثمنها عشرة قروش واجرة البريد قرش ونصف

(٧) * فتح الاندلس * هي الحلقة السابعة من روايات تاريخ الاسلام تتضمن وصف حال الاندلس (اسبانيا) السياسية والاجتماعية والدينية لما فتحها المسلمون وكيف فتحوها . ثمن النسخة عشرة قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(٨) ﴿ المملوك الشارد ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في أوائل القرن التاسع عشر على عهد المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ثمانية قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(٩) ﴿ اسير المتمهدي ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي من ذلك ظهور عرابي الى الثورة العرابية ودخول الانكليز مصر وظهور المهدي وواقعة هيكس الى سقوط الخرطوم وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ صاغ واجرة البريد ٢

(١٠) ﴿ استبداد المماليك ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر وفيها ما كان يرتكبه المماليك من الظلم والجور في حكومتهم بمصر وعاداتهم واخلاقهم ثمنها ثمانية قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(١١) ﴿ جهاد المحبين ﴾ رواية ادبية غرامية تمثل عواطف المحبين وما يلاقونه من المشقة في سبيل الحب ثمنها ٦ قروش صاغ واجرة البوسطة قرش ونصف

ونطلب هذه الروايات من مكتبة الهلال أو ادارة الهلال بمصر

